أميـر تــاج الســر

رعشات الجنوب

رواية

أمير تاج السر



رعشاتُ الجنوب

رواية

دار البشير دار البشير للثقافة والعلوم

-١-

جميعُ مَن في بلدة (مداري)، الكبيرة نسبيًّا، والمزدحمة بالسّكان، وما جاورها مِن القرى والأرياف، والجبال والأودية والخيران الضّحلة؛ يعرفون رابح مديني، يسمّونه المعلّم رابح، يألفون أطوارَه الغريبة، ووجهَه الموشوم بجرحٍ قديمٍ اكْتسبه من عِراك في شبابه، ويتسوّقون من متجره الواسع الذي أنشأه منذ سنواتٍ طويلة في وسط السوق الكبير، سمّاه لوازم، ويشتمل على شتّى أنواع البضائع؛ مِن حبيبات الفلفل والحبّهان، والعدس والفاصوليا، إلى الأسلحة المتطوّرة، والخمور المعتّقة التي يجلبها مِن كينيا، وأوغندا المجاورة، يسوق الأسلحة سرًّا لأفراد حركات التمرّد ضدّ الحكومة المركزية المُستترة في الغابات المحيطة بتلك المنطقة، والخمور، لعمّال الإغاثة الأوروبيّين، وبعض أهل البلدة الميسورين الذين يهْوون الغرابة، ويسعون إلى مزاجٍ مختلف بخمرٍ بعيد عن ذلك الذي يصنع محليًّا. كان أوّل مَن جلب إلى البلدة ببّغاوات ملوّنة تتحدّث بلهجات قبائل الجنوب كلّها، ولهجات أخرى عصيّة على الفهم، باعها بأسعارٍ خيالية، أوّل مَن شتم موظفي هيئة الضرائب الذين يأتون من (جوبا)، عاصمة الإقليم الجنوبي، مرّتين في العام، يزلزلون السوق، ويطرحون الأسئلة حتى على البهائم التي ترغي، وذكَّر رهبان الإرساليات الأوروبيّين المتخفّين في وجوهٍ طيبة، وأزياء برّاقة، في أكثرَ من مرّة، وبرغم بُعده الشديد عن الورع؛ بأنّهم

مجرّد قططٍ ضالة. وفي الحادثة التي جرتْ منذ عدّة سنوات، واشتهرت في المنطقة بحادثة فارون، أو حادثة فرعون بلهجةِ المحليّين، وضبط فيها أحد أولئك الإرساليّين- وكان اسمه فارون- عاريًا، يستدرج طفلًا صغيرًا إلى مخْدعه بقطعةٍ حلوى ملونة، كانت لرابح فلسفتُه الخاصة، قال في صوتٍ واضح خالٍ من أيّ نبرة انفعال:

- مجرّد قطّ ضال.. نعم قطّ ضال.

وأطفأ هيَجان المحليّين الذين جاءوا بجِرابهم وسيوفهم، وبنادقهم، وأوشكوا أنْ يفتكوا بالرجل الذي فرّ بعد ذلك من البلدة، ولم يعدْ إليها أبدًا. ولا يستطيع أحدٌ أنْ ينسى ذلك اليوم الذي جاءَ فيه برجلٍ ذي ملامح لاتينيّة أمريكية، في نحو الخمسين، قال إنّ اسمه سوليفان القديس، اقتنصه من الحدود اليوغندية كما يبدو، وعرضَه للبيع في مزادٍ مفتوح أمام محلّه تحت سمْع وبصَر الجميع، بمَن فيهم رجال الشرطة المحليّون، وأفراد كتيبة الجيش الحكومي الذين اكتفوا بالفُرجة، ولم يحرّكوا ساكنًا، بوصفه خبيرًا في صناعة الألغام، وقنابل المولتوف الحارقة، وصاحب سيرةٍ دموية حافلة، ابتدأت في كوبا وانتهت في أرض فلسطين المحتلّة. ذلك اليوم، تسابق قادةُ المتمرّدين الذين سمعوا بالخبر مِن عملائهم المدْسوسين في البلدة، وخرجوا مِن مخابئهم مِن دون حذر، في المزايدة على سوليفان، رفعوا سعرَه في هياج، وأرهقوه باللّمس والتقليب وتحسّس الأنامل، حتى اقتناه أحدُ القادة، وجرّه

بسرعةٍ إلى عربة جيب صغيرة، انطلقت بهما إلى مخبئه في إحدى الغابات المجاورة.

كانت لتلك الواقعة عدّةُ تصوّرات انطلقت من زوايا مختلفة، فقد تخيّلت النساءُ الفقيرات اللائي شاهدن سوليفان عاريَ الصدر، وفي إحدى ذراعيه وشمُ قرني ثورٍ حادّين، ويقاتل بشراسةٍ لتحرير جسده الضّخم من سلاسل الحديد التي قُيّد بها، تخيّلن ليالي عامرة تحت فوَرانه، وصباحاتٍ بلا عدد يقدمنّ له فيها شرابَ النعناع، وحلوى الفيتريت المقوّية، وأسرفت إحداهنّ في التخيّل حين سمّته حبيبي سوليفان، واقتربتْ منه بالفعل محاولةً أنْ تمسح العرقَ الغزير المتقاطر على صدره. الأطفالُ الصغار الذين لم يسمعوا بالألغام وقنابل المولتوف بعد، تخيّلوه حدادًا يصنع لهم دروعَ الحديد الصّدِئة التي يستخدمونها في لعبةِ الحرب المسيْطرة، أو يركبهم على ظهره العريض، في سياحةٍ مُمتعة يطوفون فيها أحياءَ البلدة كلها.

كان رابح يدسّ نقود التمرّد الخضراء في جيبه، يغنّي بابتهاج أغنيةً محلّية، ويمزّق ورقةً خاصّة بمحاذير الاتّجار بالبشر، صادرةٍ عن الأمم المتحدة، قدّمها له الأب فونو، راعي الكنيسة الإنجليكيّة بالبلدة، ويلقيها بعيدًا، في اللحظة التي اقتربَ منه فيها ملتحٍ اسمه فتاح، كان شابًّا في بداية الثلاثينيّات، من عرب البقارة الذين ولدوا بالبلدة، في مجتمعٍ قَبَلي محدود، ونشئوا فيها، واختطّ لنفسه طريقًا لم يكن السيرُ فيه مألوفًا في ذلك الوقت؛ حيث علا صوتُه مؤخّرًا، سمّى نفسَه

المجاهد، وابتدأ سرًّا في تكوين جماعةٍ من العرب والزّنوج المسلمين معًا، لها طابع التشدّد، وتسعى إلى إعادة الأمور إلى نِصابها بحسب اعتقاد مؤسّسها. وفي أحد أيّام العام الذي سبق تلك الحادثة، ظهرتْ جماعة فتّاح بوضوح في أماكنَ عدّة؛ في السوق، والأحياء السكنية، وحتى الغابات التي تحيط بالبلدة وتسكنها الضواري، ويستتر داخلها المتمرّدون على السلطة المركزية، كانوا يحملون مكبّرًا للصوت، ينادون بالعفّة، ونقاء الضمير، والجهاد الحقّ ضدّ مُفسدي البلدة، واشتبكوا بالكثيرين ممّن لم يعجبْهم ذلك النداء، وكان يومًا مشهودًا، سمّاه الدكتور إيزايا- الطبيب الوحيد في مستشفى مداري- يوم الكسور؛ نسبةً لعدد المصابين الذين ضجّ بهم مستشفاه غير المؤهّل لمثل تلك الحوادث.

كان فتّاح قد تحدّث إلى رابح مديني بالذات، مرارًا من قبل، نبّهه إلى تجارته الحدودية العاصية، ونزواته المتكرّرة التي يعرفها كلّ فرد، ولهاثه المحموم من أجل الدنيا، وشاهدهما مُرْتادو السوق- مرّات عديدة- يتعاركان، فتّاح يشدّ رابحًا من ثيابه، ورابحُ يُشهر في وجهه مدْيَة لها بريقُ شمسٍ ساطعة، ودائمًا ما تنتهي تلك المشادّات بالصلح، في بلدة تحيا بأعراقٍ مختلفة، وتواجه خطرَ الكوابيس والمجاعات، وإمكان أنْ ينقلب المتمرّدون عليها في أي لحظة، ويحرقوها.

سأله فتّاح:

- هل القديس لقبٌ، أم اسمٌ لو سمحت؟

- اسأله حين تعثر عليه.

ردّ بلا مبالاة، وانفلت داخلًا إلى متْجره، يساعد العاملين الموجودين بالمتجر في تلبيةِ نداءِ امرأة مسنّة كانت تسأل عن حنّاء القرود التي تستخدم في صبغ الشّعر، وتستهلَك بكثافة في تلك الأنحاء.

وبالرغم من أنّ أحدًا لم يرَ سوليفان القدّيس مرّة أخرى في البلدة، ولا سمع عنه شيئًا، حتى حين انتهت الحرب الأهلية بعد سنواتٍ من ذلك، واستبدلت النساءُ الفقيرات صورتَه التي كانت في أذهانهنّ بصور أخرى أقلّ شبقًا ووسامةً لرجال محليّين، ونسي الأطفال ظهرّه العريض الذي كان من المفترض أنْ يحملهم عليه؛ إلّا أنّ عشرات المعارك التي دارت هنا وهناك بين الحكومة والمتمرّدين، أو بين الفصائل المختلفة للمتمردين أنفسهم، وخلّفت ضحايا بلا حصر من جرّاء تفجّر الألغام، وطيشان القنابل، واحتراق القرى الآمنة؛ نُسبت إلى خبرتِه الطويلة، وسعى العديدُ من القادة وزعماءُ القبائل إلى رابح مديني، مُطالبين بتزويدهم بسوليفان آخر.

كان رابح يعدهم خيرًا، يتنقل بين البلدة وأوغندا، ويصل أحيانًا حتى حدود كينيا، والكونغو برازافيل، ويعود جالبًا كلّ شيء، ولا يوجد سوليفان جديد في تجارته.

تابيتا جنيّة الليل، كانت أمرًا آخر، إنّها قصّة رابح المفضّلة، القصة التي حكاها مئات المرّات لأهل البلدة، ولكلّ سائح أو زائر جديد يأتي، وأوشكت- برغم غرابتها، وعدم قابليتها- للتصديق أنْ تصبح جزءًا مهمًّا من تراث عرب المسيرية الذين ينتمي إليهم، ويشكّلون أكبرَ مجتمع عربي بالبلدة. امرأة بشعرٍ أخضر غزير، وعينين نازفتين، وجسدٍ فارع، التقاها في إحدى الليالي حين كان عائدًا على قدميْه من سهرة ممتدّة برفقة أصدقائه في حيّ آخرَ غيرِ الحي الذي يسكنه. أمسكته المرأةُ من يده كما قال، قادته إلى بيتٍ مهجور لم يرَه من قبلُ في البلدة، نزعت عنه ثيابَه كلّها، ألقته أرضًا واعتلَتْه، كان يحسّ بنارٍ مُشتعلة تحرق جسده، يشمّ رائحةَ جمر، ويصيح بلا توقف حتى أشرقت الشمس ليجد نفسَه وحيدًا وعاريًا، ومضعْضَع الجسد في صحراء (واوا)، تلك البقعة الجرداء التي تبعدُ عن البلدة مسافةَ نصف يوم، وحكى عنها الرّحّالة الإنجليزي القديم سير ويلفر، في كتابه (رحلاتي إلى المنابع والمصبّات)؛ حيث قال:

"شاهدت في واوا، وأنا أعبرُ بالليل، في رحلتي إلى منابع النيل؛ حضارةً ممتدّة، شاهدت قصورًا مشيّدة تعانق السماء، وجواري شاخصاتِ البياض، وعبيدًا طوالًا عراضًا، يخدمون أولئك الجواري، أكلت من فواكه نادرةٍ لم أعرفها أبدًا، وركبتُ فرسًا لها جناحان، حلّقتْ بي بعيدًا، ولم يكنْ في الحقيقة أي شيءٍ حين انتهى الليل، فقط تلك الصحراء الممتدّة".

قال رابح، إنّ عربة عسكرية مرّت في تلك اللحظة، عرفه ركّابُها، ستروه بخرقٍ كاكيّة اللون، وأعادوه إلى البلدة، واختفوا من دونِ أيّ سؤال.

كان الناس يسألونه في محاولاتٍ مُضنية، لجرّ تلك القصة الغريبة إلى أذهانهم:

- وكيف تعرّفت على ملامحها في ذلك الليل؟!

- كنتُ أحمل مِصباحي، لا أحدٌ يسير في الليل بلا مصباح.

- وكيف عرفت أنّ اسمها تابيتا؟ هل تحدّثتْ معك وأخبرتك عن اسمها؟

- لا.. أنا الذي سمّيتها تابيتا، كانت تشبه الاسم.

- كيف تشبه الاسم؟

- لا أدري. خطر لي أنّها تشبهه.

- والرجال الذين أنقذوك وأعادوك إلى البلدة، أين هُم؟ وهل تعرفهم؟

- لا أعرف. كانوا مجرّد رجالٍ أنقذوني، ولم أكنْ أعرفهم من قبْل.

كان الرّسام النمساوي المعاصر (كرستوف أوجين) موجودًا بالبلدة في تلك الأيّام، الرجل الهيبي ذو الشّعر الغزير المنكوش واللّحية

الصفراء، وسراويل الجينز الممزّقة، الذي يستوحي أعمالَه من بلادٍ لا يعرف أحدٌ كيف ينتقيها أصلًا، أو يعثر عليها في الخرائط، وكيف يصلُ إليها، وتبعد عن بلاده آلاف الكيلومترات؟ كان يقيم وحيدًا في كوخٍ صغير من القصب، شيّده عند مدخل إحدى الغابات، غير عابئ بالخطر، ولا لسعات بعوض الملاريا، وذباب التسي تسي الجالبِ لمرض النوم، وأنجز في فترة قصيرةٍ عددًا من اللوحات المُبهرة، استوحاها من الليل والفراغ، وطقوس الصيد، ونساء القبائل، لابساتٍ الخرقَ الممزّقة في وسطهنّ، وقدّم خدمة جليلة للسياحة حين جرّ وراءه عشراتِ الأجانب الذين يقدّرون فنّه، ويطاردونه إلى أيّ ركن يذهب إليه.

كان رابح قد تعرّف على ذلك الرّسام من قبل، حين قصدَ متجره ذاتَ يومٍ يسأل عن لوْنٍ ناقص في سلسلة ألوانه، ويحتاجه بشدّة لإكمال لوحةٍ اسمها (شقاء التربة) في مراحلها النهائيّة، سيهديها خصيصًا لأهل البلدة، وتُعلّق في مبنى الإدارة المحليّة، وكان من حُسن الحظّ أنْ عثر على اللّون في متجرٍ يمكن العثور فيه حتى على غترةٍ وعِقالٍ خليجي، في بلدةٍ لا يرتدي فيها أحدٌ غترة وعقالًا. وفي اليوم التالي لظهور جنيّة الليل، وبعد أنِ استعاد وعيه كاملًا، ذهب إلى الرّسام في كوخه، اقتحم عزلته، ووصف له المرأة الفارعة، بشعرها الأخضر الغزير، وعينيها النازفتين، وجسدها الضخم الذي بَرَك عليه وأشْغَله، وبمبلغٍ غير قليلٍ من المال، حصل منه بعد عدّة أيام من الانتظار على تلك اللّوحة متوسّطة الحجم، التي ما

زالت معلّقةً على واجهة متْجره حتى الآن، دليلًا ساطعًا على تلك المغامرة الليليّة، يستخدمه كلّما حكى القصة لزائرٍ جديد.

في تلك الأيام أيضًا، ارتفعت قامةُ الخوف بين رجال البلدة بشكلٍ كبير، صارت ليالي السّهر التي يقضونها في لعبِ الورق، واحتساء الخمور المحلية أقلّ امتدادًا، وخيالات الظلال العادية التي ترتسم على الحوائط، جنيّات ليل يحملنَ نارَ القهر والشهوة، إلى أنْ مرّت شهورٌ طويلة لم يحدث فيها شيء، لتتضاءل قامةُ الخوف مرّة أخرى، وتعود الحياة إلى مجراها الطبيعي، ولا تبقّى من أثَر تابيتا- جنيّة الليل- سوى لوحتِها المعلّقة في واجهة المتجر، وقصتِها الغريبة التي لم يفلتها رابح عن لسانه قطّ.

كان قد أقيم منذ عشرين عامًا في الطرف الشرقي من البلدة، وبالقرب من ضفاف نهْرٍ موسميّ صغير اسمه نهر (بابي)، يمتلئ صيفًا، ويجفّ شتاءً، نصبٌ تذكاري من الحجر الأملس تخليدًا لذكرى الزعيم (ماجوك)، أحد زعماء القبائل المحليّة، والذي قيل إنّه أوّل مَن آخى بين أبناء الجنوب وقبائل العرب التي نزحتْ إلى المنطقة من الغرب والوسط- وحتى من الشمال البعيد- واحتكرت التجارة بالكامل، وكان فيها دعاةٌ مخلصون ساهموا في انتشار الإسلام بين السكان، وأيضًا نصّابون بلا ضمير، وعنصريّون تعربدُ في أذهانهم أحلامُ تجارة الرقيق الرّائجة في ذلك الحين. قيل إنّ الزعيم ماجوك ألقى بحَربته في

ذلك المكان بعد أنْ كسرها نصفين، وطالب الجميعَ بكسْر جِرابهم وإلقائها بجانب حَربته، ألقى قصيدة شعرٍ من نظْمه بعدّة لَهجات محليّة، تمجّد التآلف، وتذمّ الخصام، وأشرف بعد ذلك على زيجاتٍ عديدة خِصبة، تمّت بين العرب والزنوج، وأنتجت أجيالًا تحملُ ملامح من هنا وهناك، وعاداتٍ موروثةً من الطرفين.

في ذلك المكان، وتحت النّصب مباشرة، كانت تنحَر الذبائحُ في كلّ عام، تقدّم الرقصاتُ المبتهجة، ويأتي خلقٌ كثير من أماكنَ قريبة وبعيدة ليشهدوا ذلك الاحتفالَ الكبير، أو يشاركوا فيه بالغناء والرقص. وينتهز تجّارُ البلدة تلك الفرصة بنقل بضائعهم الخفيفة لتسويقها وسط المحْتفلين، وربّما عثرت فتاةٌ عازبة على زوجٍ ما كانت لتعثرَ عليه في مكانٍ آخر، أو الْتقى قلبٌ واجف بقلبٍ واجف، ودخلا في دوّامة الحبّ المنكود، وكثيرًا ما كانت الشرطة المحلية تعثرُ بين المحتفلين على لصٍّ هارب نبشت البلدة بحثًا عنه ولم تجدْه، أو يتهوّر أحدُ قادة المتمرّدين الكبار بالظهور علانيةً وهو يرقص ويغني، معرّضًا حريته وحياتَه للخطر. وبالرغم من ذلك كلّه، لم تكن الصراعات بين العرب والزنوج- أو بين القبائل المختلفة للزنوج أنفسهم- قد انتهت تمامًا، وظلّت باقية، لكنْ أقلّ حدّة من قبل.

في ذلك المكان بالضبط، ومنذ أكثر من عشر سنوات، التقى رابح مديني بسوشيلا أكوال التي تنحدرُ من قبيلة الزاندي المحلية، المعروفة

بفروسية الرّجال، ومَلاحة النساء، ولم تكنْ من سكّان البلدة، لكنها قدمتْ من ريفٍ بعيد لتحتفل أسوةً بالجميع. كان رابح في نحو الخامسة والخمسين، وكانت في التاسعة عشرة، هو تزوّج وطلّق، وتزوّج وطلّق مرّة أخرى، من دون أنْ يُنجب، وهي لم تتزوّج قط. كانت أوّل فكرةٍ خطرت بباله حين شاهدها حافية، مكسوّة بعقود الخرز، وسنّ الفيل، ودائخةً تحت نظرات الرجال، ترجّ جسدَها في حمّى الرّقص الجماعي؛ هي أنْ يهديها صندلًا متميّزًا بألوان الطيف، جلبَه ذاتَ مرّة من إحدى رحلاته الروتينية إلى أوغندا، ولم يعرضْه للبيع قط، ألبسها الصندلَ في خياله، وجعلها تتمشّى به قليلًا، ثمّ تنزعه وتنزعُ أشياءَ أخرى عن جسدها، وتقف أمامَه برشاقة. عند تلك النقطة، لم يستطعْ أن يسيطرَ على مشاعره أكثر، همسَ في أذن صديقه آدم مطر الذي يقف بجانبه- وكان من نفس قبيلته- ويملك مطعمًا في السوق اسمه مطعم (بابايا):

- قل لي يا صديق، هل سأكون مغفّلًا، لو تزوجت من تلك الفتاة؟

- بل تكون مغفلًا لو لم تتزوّجها.

ردّ الصديق، وعيناه تتابعان الرّاقصة سوشيلا، وكانت تعدل قميصَها الوردي، الذي بعثره الرّقص، وتخرج من الساحة بعد أنِ انتهت الأغنية.

فيما تبقّى من ذلك اليوم، اشتعلت حواسّ رابح

كلّها، أخرج من جيب قميصه البنفسجي، من ماركة (سيجال)، الذي جلبه من أوغندا في رحلته الأخيرة؛ رزمةً من أوراق النقد خضراء اللّون، فضّها وبعثرها في المكان، في أغرب خطوةٍ من خطوات الكرم تصدرُ من تاجر، وتزاحمَ الناس، كلّ يريد الحصول على ورقة. صاح في عازفي آلات الرّبابة، والكمنجة، والطبل؛ أنْ يبدءوا العزف من جديد، وانتقى مغني قبيلة الزاندي المعروف في تلك الأنحاء، حميدو دينق؛ من وسط رفاقِه المغنّين، أوقفه على قدميه في الوسط، بعد أنْ همس في أذنه، كانت أغنية مسنودةً بالثروة والنفوذ، أغنيةٌ اسمها سوشيلا الرّاقصة، ألّفها المغني، ولحّنها في المسافة بين وسط السّاحة والمقعدِ الذي كان يجلسُ عليه، وغنّاها بترفٍ وصعْلكة لم تحدثْ من قبل أبدًا. كانت الرّاقصة سوشيلا قد عادت، شدّتها أغنيّتُها، وأعادتها مرّة أخرى إلى الرقص المحموم، وكانت الساحةُ خالية إلّا من جسدها المتماوج، وعذاباتِ رابح مديني الذي كان يحاول جاهدًا أن يبدو راقصًا مُحتفلًا بذكرى الزعيم ماجوك أكثرَ من كوْنه عاشقًا أخرقَ لفتاةٍ لا يعرف عن قلبها شيئًا، ولم يرها إلّا قبل عدّة دقائق فقط.

عند مغيب الشمس، كان الاحتفال قد انتهى تمامًا، تشتّت الجميع عائدين إلى منابعهم، وعاد نصب ماجوك الزعيم مجرّد حجرٍ أملس، مغروسٍ في بداية الليل. وعادت ضفافُ نهر بابي- لولا مخلّفات الحفل من ورق، وآثار خطواتٍ، وبقايا عظام ومرَقٍ مَدلوق، ونظرات، وقُبَلٍ مختَلَسة؛ واحدةً من أكثر

الضفاف قحطًا وعزلةً في المنطقة. كان رابح قد كلّم الراقصة عن حبّه، ورغبته في الزّواج منها، وفاجأه ردّ فعلها الذي لم يكن يتوقّعه، وعرف من قبل فتياتٍ أكثرَ رشاقة ومَلاحة، سقطنَ تحت قدميه، وكانت زوجتُه الأخيرة واحدةً من الملكات، لولا شراسة طبعها. صدّته الراقصة بعنف، ورحلتْ إلى ريفِها البعيد، تاركةً خلفها تاجرًا مجنونًا، يؤجّل بيعَه وشراءه ورحلاتِه الدّؤوبة إلى الحدود زمنًا، ويخطّط لاحتضانها بوسائل لم يكن يظنّ أبدًا أنه سيستخدمُها يومًا.

- لم ينتهِ الأمر.

قال مخاطبًا صديقَه آدم مطر، وفي عينيه إشعاعٌ غريب، كانا داخل عربته الجيب القويّة، التي طالما عبَرَ بها الحدود، وقد رسم الليل ممحاةً عظمى محتْ كلّ أثرٍ للضوء.

كانت توجد في حي (لادولادو) الشعبي، الذي يحمل على عاتقه مهمّة إبقاء الفقر زاهيًا وملوّنًا، وإعادةِ إحيائه حين يوشك أنْ يموت؛ امرأةٌ اسمها (الصباح)، كانت من قبيلة الزّريقات التي خاضت حروبًا شتّى ضدّ سكّان المنطقة الأصليّين، قبل أن تتوطّن قبيلةٌ ذات جدوى ومكْر، وفنون عدّة، ظهرتْ في إجادة أفرادها للبناء باستخدام الطوب والرّمل والحجر، وحفرِهم لآبارٍ عميقة جادتْ بالماء العذب، وكان منهم صيّادون نافسوا المحليّين في غزو الغابات، وأسْرِ حيوانات شديدةِ التوحّش، ونساء لهنّ عيونُ غزلان، وأجسادِ نخلٍ

باسق. كانت الصباح معروفةً بعمل السّحر، وقيل إنّ لها شياطين، بعضهم بعُمر الكرةِ الأرضية يساعدونها في عملها. في ذلك الليل، وبعد أنْ فارق رابح صديقَه، قصد تلك المرأة، كان يعرفها جيّدًا، وتعوّد على زيارتها في أيّ وقت يحسّ أنه بحاجةٍ إلى خَدماتها، بالرغم من تحذير عددٍ من أصدقائه بأنها مجرّد امرأةٍ مسنّة بلا لحم ولا أسنان، ولا تملك له شيئًا، وقد أخفقتْ حتى في استعادة ابنها الذي اختطفه المتمرّدون منذ سنوات، ضمّوه إلى صفوفهم، وعُثر عليه ذاتَ يوم مَذبوحًا، ومعلّقًا على غصنٍ يابس من أغصان واحدةٍ من أشجار الباباي. كان بابُها موارَبًا، وعثر عليها نائمةً نومَ المسنّين الذي يقطعه ضيقُ التنفّس، وتساهم حرارةُ القدمين في إبقائه نومًا سيئًا، أيقظها بهزّ كتفيْها الضامرتين، وعلى ضوء فانوسٍ صغير في وسط الغرفة، كانت تستمع إلى قصّته، وأوصاف فاتنتِه، وتخطّ على الأرض الترابية خطوطًا كثيفة ومتعرّجة، ثمّ تخبره بصوتها الناعس عن مأساةٍ كبيرة قد تحدث لو ارتبطَ بتلك الفتاة.

- ما نوع تلك المأساة.. أمّي الصباح؟

يسألها وقد جفّ منه الريق، ودائمًا ما يجفّ ريقه حين يسعى لمعرفة المستقبل، ويفاجأ به ليس كما يريد.

- لا أعرف.. لا أعرف.

- كيف لا تعرفين؟!! إنّه زواج وليس ساحة حرب.

- قلت لا أعرف.

تردّد الصباح، ترقدُ على سريرها المنسوج من الحبال، مرّة أخرى.. تسحب غطاءَ النوم على وجهها، وتعاود الشّخير.

تلك الليلة، أراد أنْ يصدّق العجوز الصباح، كما صدّقها في أمورٍ أخرى من قبل، ولم يطاوعه قلبُه، وكانت قناعته التي توصّل إليها بعد ليلة مُضنية، نصفُها أرق، ونصفُها الآخر نومٌ متقطّع، هي أنْ يبقى راكبًا على سرج الحبّ الجديد، حتى يصل إلى غايته، أو يسقط ويتحطّم. سيحلم، ويخطّط بمكْر، ويذهب إلى قرية (كمايا) في ذلك الريف حيث تسكنُ الحبيبة، كما عرف مِن مرافقيها، حاملًا شهرتَه في المنطقة، وهداياه القيّمة التي يزعم أنّها ستكون أغلى هدايا تقدَّم إلى امرأةٍ ريفية، ولن يحكي عن تابيتا جنيّة الليل مرّة أخرى لأيّ أحدٍ حتى لا يوسّخ نقاءَ القلب، وربما يزيل لوحتَها التي رسمها النمساوي أوجين من واجهة متْجره، بالرغم من أنّه دفع فيها مبلغًا طائلًا، وهذه المرأة الصباح بالذات سيقتُلها حتمًا إن تزوّج وأنجبَ ولم تحدثْ مأساة.

على مدى ثلاثة أشهر تلتْ بعد ذلك، اكتسب رابح مديني عاداتٍ جديدة لم تكن له من قبْل، أصبح أقلَّ صبرًا في الأخذ والردّ والمساومة، حين يكون حاضرًا في متجره يساعد عامليه، أقلّ تذوّقًا

لمزاح الأصدقاء الذين كانوا من قبْلُ يمزّقون سراويله، ويبصقون على عوْرته في لحظة المزاح ولا يغضب، وبحثَ بنفسه عن عدوّه الملتحي فتاح، وتحرّش به بنتْفِ شعيراتٍ غزيرة من لحيتِه. وفي أول رحلةٍ قام بها إلى أوغندا، اشترى راديو من ماركة فيلبس، وجّه إرسالَه إلى محطّة تبثّ أغنيات الوَلَه، وزار منجِّمًا اسمه (سمومو) كان يقيم في أحد أحياء كمبالا المسقّمة، استدلّ عليه بواسطة أصدقاء هناك، وكان معروفًا لدى أهل المدينة بإنهاءِ قصص الحبّ المعذّبة نهاياتٍ سعيدة، زوّده بقصّة عشقه لفتاة الزاندي، وجلب منه عقدًا من الخرز علّقه على رقبته، قال المنجّم: إنّه أشبه بمغناطيس يشدّ اللحمَ كما يشدّ المغناطيس الحقيقيُّ برادةَ الحديد. وصارح حرّاس الحدود الذين كان يُغدق عليهم دائمًا، ويسهِّلون عبورَ بضائعه بخيْرها وشرّها من دون تدقيقٍ بأنّه لن يدفع قرشًا جديدًا لأحدٍ حتى يحلّ لغز سوشيلا.

سأله أحدُ الحرّاس:

- مَن هي سوشيلا يا معلّم رابح؟

- امرأة.

- كلّ النساء ألغاز، لكنّها في النهاية ألغاز قابلة للحل.

وكانت جملةُ حارس الحدود التي ردّدها من بين أنفاس سيجارة القندول المشتعلة، مِن الجُمل

القليلة التي أبهجته في تلك الأيام، وأوشكَ أنْ يرقص لها طربًا. أراد أنْ يسأل حارس الحدود، إنْ كان قد حلّ لغزَ امرأة من قبل، وفاجأه الحارس حين قال: حللتُ عشرة ألغاز نسائيّةٍ غامضة، فقط لا تيأسْ يا معلّم رابح.

الرحلةُ إلى قرية كمايا، إحدى قرى قبيلة الزاندي، حيث تقيم الحبيبةُ التي رآها عَيانًا مرّة واحدة فقط، ومئات المرّات في خياله؛ كانت شاقّة، اصطحب فيها صديقَه الأثير آدم مطر، وستّةً من أبناء الجنوب الأشدّاء المدرّبين على القنص والعِراك، ودرءِ الخطر، واعتاد اصْطحابهم في رحلاته الدءوبة إلى الحدود. كانت عربتُه الجيب الروسيّة الصنع ممتلئةً بالمتاع، ثيابٌ برّاقة، وأساور عرس، ومشابك للشّعر وحمّالات صدر، وموادّ تموين كثيفة، لم تغفلْ حتى صابون الغسيل، وإبَرِ الخياطة، ومكعّبات مرقِ الدّجاج من ماركة ماجي التي كانت ترفًا جديدًا في تلك الأيام. لم يكن الطريق نظيفًا، أو آمنًا، واضطرّ رفقاءُ الرحلة إلى التوقّف عشرات المرّات أمامَ متاريس عسكريةٍ أنشأتها الحكومة على طولِ الطريق الملتوي، ويدقّق أفراد الجيش الذين يحرسونها في كلّ عربةٍ عابرة بحثًا عن متمرّد ربّما يكون في إحداها. كان رابح يستعين بشهرته في المنطقة، وأنه معروفٌ حتى لترابِ الأرض؛ لعبور تلك المتاريس، ويستعين بسجائر القندول التي كانت من ضمْن فاكهة العسكريّين المفضّلة؛ حيث خصّص لها مكانًا ظاهرًا في العربة، ويقدّمها بابتسامة في كلّ حاجز أمنيّ يتوقّف فيه. وحين وصلوا إلى

قرية كمايا، بعد يومين شاقّيْن، استهلكوا فيها برميلًا كاملًا من الوقود؛ تصدّوا لهجوم الثعالب والضّباع المفترسة، وغطرسةِ خفافيش الليل، ونفذوا من لغمٍ كاد يمزّقهم أشلاء، لم يجدوا قريةً ولا بشرًا ولا دليلًا واحدًا على حياةٍ كانت سائدة. كان المكانُ محترقًا، وقاحلًا، ولا شيء آخر.

وقف رابح في وسط القرية المهجورة يتأمّل البيوت المشتعلة، وآبارَ الماء التي رُدمت، وبقايا فزعٍ تخيّله، ويبحث بعينيه عن شيء لا يعرفُ ما هو، امتدّت وقفته لنصفِ ساعة كاملٍ، كان فيها رفقاءُ السفر يراقبونه باحترام، ولا ينطقون بكلمة، وفي النهاية بصَق على الأرض المحترقة بصقةً كبيرة، نزع عقدَ الخرز المغناطيس عن رقبته، ألقاه بعيدًا، وهو يردّد بصوتٍ ثابت لا أثرَ للحزن فيه:

- وداعًا للحبّ.. وداعًا للمرأة.. هيّا يا آدم مطر، هيّا يا صديق إلى بلادنا.

وكانت تلك الجُملة التي لم يزدْ عليها حرفًا آخر، هي آخرُ عهدٍ له بالمرأة وبالحبّ؛ فقد عاد تاجرًا أعزبَ، وأخرقَ، ومسافرًا روتينيًّا إلى أوغندا وكينيا والكونكو برازفيل، يأتي بالبضائع خيْرها وشرّها، ويحشو جيوب حرّاس الحدود بما يجعل غشاوةً داكنة تعمي أبصارهم، وشللًا كثيفًا يمسك بأطراف أيديهم التي تفتّش البضائع.

- هل حللتَ لغزَ سوشيلا يا معلّم رابح؟

يسأله أولئك الحرّاس بعد أن عادَ إلى سخائه القديم، يسألونه من بين أنفاس سجائر القندول الفاكهة..

- نعمْ حللتُه.

- ألف مبروك.

يتناولون يدَه التي يمدّها لمصافحتهم، والتي لا يمدّها، يتفحّصون اليدين ولا يعثرون على خاتمٍ أو دبلة، أو أيّ أثر لأنثى كانت لغزًا عصيًّا على الحلّ، وانتهى.

-٢-

إنّه الخميس، الثامنُ عشر من سبتمبر عام ١٩٧٥، وقد مضى حوالي العامين على ما سمّي باتّفاق الوحدة الوطنية الذي وقّعته الحكومة المركزية مع قادة المتمرّدين الجنوبيّين في داخل البلاد وخارجها، وهدأتْ بعده تلك الحربُ البذيئة التي استمرّت منذ الستينيّات، وأنهكت مواردَ البلاد كلها، وراح ضحيّتها عشراتُ الآلاف من الجانبيْن بلا سبب. خرج من داخل الغابات متشابكة الأشجار، والكهوف المدفونة في صحارى القحْط، رجالٌ متّسخون ويائسون، ألقوا أسلحتَهم في وسط كرنفالات الغناء التي أقيمت، وانخرطوا بمشقّةٍ في مجتمعات المدن والقرى التي هجروها منذ زمن. عثرت نساء عدَدْن أنفسَهن أراملَ لسنوات طويلةٍ على أزواج تحطّموا، وعثر عيالٌ كانوا يتامى على آباءٍ لم تبقَ عندهم خفقاتُ قلوب يُهدونها لابن، أو يجزعون بها عليه.. وشوهد رئيسُ البلاد في طوافه بكلّ مدن الإقليم الجنوبي يرتدي الزيّ الإفريقي الملوّن الذي يرتديه الجنوبيّون عادة، وعلى رأسه غطاءٌ من الريش، ونابا فيلٍ كبيران. كان يبشّر بعهدٍ جديد لا حربَ فيه ولا دمار، وبلاد ستنتهج التنمية منهجًا، بدلًا من منهج الحرب الذي تأخّر بها سنواتٍ طويلة إلى الوراء. وحمل مغنّي قبيلة الزاندي المعروف- حميدو دينق- ربابتَه، شدا بمصاحبتها في كلّ ركنٍ جنوبيّ أغنيةَ (وحدتنا) التي كُتبت بلَهَجات الجنوب كلّها، ولغة العرب التي كان يُتقنها المغنّي المعروف.

وبالرغم من ذلك، لم تكنِ الأجواء نقيّة تمامًا، كانت ثمّة جماعات صغيرة ما زالت تكابد وتتكبّدُ الخسائر، وثمّة تجارةٌ للسلاح المهرّب عبْر الحدود، ما زالت تمارَس، لكن أقلّ من ذي قبل. ولا شكّ أنّ ذكرى القديس سوليفان، صانع الألغام وقنابل المولوتوف، عاري الصدر؛ قد عادت إلى أذهان الكثيرين، واصطفّ عددٌ من النساء ممّن اشتهينه في ذلك اليوم الذي بيعَ فيه إلى المتمرّدين، يتأمّلن العائدين من وعورة التخفّي بحثًا عنه، ولا يعثرنَ على شيء، ولا حتى على صورته في أذهان أولئك العائدين.

كان بالبلدة- في تلك الأيام- سيركٌ كبير قدم من كينيا. إنه السيرك الموسمي الذي ينتظره الجميع بنفاذِ صبر ليمضوا معه أسبوعًا كاملًا، نوعًا من تغيير الرّتابة اليومية في بلدةٍ كلّها رتابة تُفرد له ساحةٌ كبيرة في وسط البلدة، ويشدّ خلقًا أكثرَ من أولئك الذين تشدّهم ذكرى الزعيم ماجوك التي تقام سنويًّا على ضفافِ نهر بابي الموسمي. كان صاحبُ السيرك واسمه عمبابا أزرق، من أبناء المنطقة القدامى فيما مضى، وبالتحديد من قبيلة العبابين التي لم تكن قبيلةً كبرى، أو ذاتَ نفوذ، وانقرضت تقريبًا من البلدة. هاجر إلى كينيا منذ سنواتٍ طويلة، اختفى لأكثرَ من خمسة وثلاثين عامًا، ثمّ ظهر مرّة أخرى، عجوزًا ملعونًا متكبّرًا، مصاحبًا لتلك الألعاب الغريبة، والوصلات التي يؤدّيها البشرُ والكلاب والأفيال، نوعًا من السّحر الخاص الذي لا تستطيع العقولُ استيعابه، ولكنْ تمجّده العيون التي تشاهده،

وتشهق الحلوق رهبةً في مواجهته، وعند نهاية كلّ وصلة، كانت ثمّة امرأة كينية في أواخر العمر، اسمها ديمومة، ترتدي قميصًا من قماشٍ يشبه جلدَ الثعابين، ووشاحًا من الأحمر الناري تطوفُ على المشاهدين، حاملةً إناءً من الفخار الأسود، وهي تردّد:

- ثمن المتعة، ثمن المتعة يا أحباب.

وكان ثمنُ المتعة ذلك، الذي يخرجه المشاهدون من جيوبهم طواعيةً في لحظة الدهشة، ويلقونه داخلَ إناء الفخار، في أغلبه، مجرّد قطع معدنية صَدِئة، أو أوراق صغيرة متآكلة، لا تنتهي إلى حصيلةٍ مُجدية في نهاية اليوم، لكنّ ذلك لم يكن يؤثّر كثيرًا، ويوجد بالبلدة وجهاءُ ميْسورون، يقدّرون عمبابا، يتذوّقون غطرسته، وغالبًا ما يتحمّلون أعباءه، وأعباء سيركِهِ كاملةً حتى يرحل.

قبل عدّة أيام، قدمَ إلى البلدة رجالٌ أشدّاء، طافوا على الأحياء كلّها راكبين عربة (كومر) قديمة، تحملُ لوحاتٍ كينية، وحاملين مكبّرًا للصوت يعمل بالبطاريات، أعلنوا بأصواتٍ منغّمة عن قدوم السيرك العظيم قريبًا بكلّ طاقمه الذي يعرفه الجميع، وفيه فقرةٌ جديدة ستقدّم لأوّل مرّة في يوم الافتتاح فقط، وتكون مفاجأة للبلدة، ثمّ توجّهوا بعد ذلك إلى ساحة الوسط، وبدءوا يعدّون الخيمةَ الكبيرة التي ستحوي العروض، وأماكنَ سكنى العاملين الخشبية، والأقفاص التي ستسكنُ بداخلها الحيوانات المصاحبة، وكانت

تلك المعدّات مكوّمةً في السّاحة، وقد أرسلت قبل عدّة أيام من مجيئهم. وفي يوم الافتتاح الذي جرى نهارًا، حصل تلاميذُ المدرسة الابتدائية الوحيدة بالبلدة، على عطلة مُفرِحة، وموظّفو الدولة الذين يعملون في مجال الزراعة والري والصحة، والإدارة البلدية على نصفِ يوم، يؤهّلهم لحضور الافتتاح والعودة سريعًا إلى أعمالهم، وانتعشت حركةُ البيع في السوق بشكلٍ ملحوظ، وانصبّت على شراء الترمس والحمّص وحبيبات لبّ القرع، والفول المطحون، المهمّة في إيقاد التّسلية، ووجد سجائر القندول المحلية سوقًا شرسة ساهمتْ في رفع سعْره.

كان الناس يتساءلون فيما بينهم، وهُم يستعيدون إلى الأذهان فقراتِ السيرك التي شاهدها بعضُهم طوال السنوات الخمس الأخيرة، ولم تتغيّر؛ فقرةَ المرأة الشابة زيابا، معشوقةُ الجميع، ذات العينين الخضراوين، والجسد الرشيق، التي يشقّها عمبابا بسيفِه إلى نصفين، في خدعةٍ مُرعبة، ثمّ تلتحم بعد ذلك، تنهض من رقْدتها، وترقص في رشاقةٍ، مانحةً الجميع قبلاتها، فقرةَ الكلب الأبرص من نوع (التشوكي) الذي يرقص البانديرا، والتش تش، وشجن الغرام، وهو يرتدي قميصًا أصفر، مثل أيّ راقص إفريقي بارع، الأفيالَ التي تؤدّي التحية العسكرية بصرامة الجيش، ودقّ الأقدام على الأرض، حين تلمح زيًّا كاكيًّا يتبختر أمامها، شروم الأصلع الذي كان من قبْل نشالًا معروفًا في البلدة، واستغلّ عمبابا موهبته بعد أن نشلَ حافظته شخصيًّا في المرّة

الأولى التي قدم فيها، اصطحبه إلى كينيا، درّبه على خفّة اليد أكثر، وأعاده فقرةً مُمتعة يتحرّك بين الناس، يأخذ ما يجدُه في جيوبهم، من دون أن يحسّ به أحد، ثمّ يعرض ما لديه بدقّة في نهاية الفقرة، وصبورة ملكي، المرأة المسنّة التي تتنفس من ثدْيَيها، ويمكن لأيّ مُشاهد أن يصعدَ إلى المسرح، ويتحسّس بيده حركة الهواء القويّة التي تخرج من الحلمتين عند كلّ زفير، يستعيدون كلّ تلك الفقرات وغيرها، ويتساءلون عن تلك الفقرة الجديدة التي أضيفت، وسيشاهدونها لأوّل مرّة.

في العام الماضي، وقبل يومٍ من ختام عروضه في البلدة، كادَ السيرك العظيم أن يتفكّك، وينتهي مجرّد خيام منصوبة في العَراء، بلا روح، ولا جاذبية، ذلك حين مات فجأةً أحدُ الأفيال المشاركة، ولم يُعرَف سببُ موته، وأصيب الكلبُ الأبرص بالعرج، وسعال الكلاب الضّار، ولم يرقص الباندير، والتش تش، وأحبّت الفتاة زيابا التي تشقّ من الوسط وافدًا من العرب، لم يكنْ من أهل البلدة المُقيمين، وقدم من إحدى قرى الغرب المجاورة، أحبّته بجنون، وتمرّدت على سيف عمبابا في لحظةٍ حرجة، وهو يتوجّه إلى خصرها، وفرّت في الليل برفقةِ حبيبها الذي كان ينتظرها في الخارج على ظهْرِ ناقة.

في ذلك اليوم، وقفَ عمبابا يائسًا أمام جمهوره الحاشد، قميصُه الإفريقي المزركَش بدا فضفاضًا على جسده الضئيل، تردّد قليلًا في الكلام، ثمّ بدأ

ينشد- بصوتٍ جَهْوري عريض- نشيدَ (آدم وحواء) الذي لم يكن نشيدًا قوميًّا لأي دولة، أو شعارًا مألوفًا من تلك التي يتقاذفها الناس، ولا كان حتى مؤلفًا وملحَّنًا حتى تلك اللحظة، بل يأسًا مرتَجلًا بعنف، نزف به الرجل حتى استعاد ثباته، وانتقى فتاةً أخرى مرعوبة مِن بين الحضور، منحها عدَّةَ قروش، علّقها في الهواء لمدة دقيقتين، ثمّ أنزلها، ومضى مطأطأ الرأس. لكنّ زيابا لم تغبْ كثيرًا؛ فقد شوهِدت بعد رحيل السيرك بعدّة أيام، حافيةً، وذابلةَ الوجه، وفي قميصها مِزَع، تبكي بمغَص، وتسأل عن باص مغادرٍ إلى كينيا، وتشعل في نفس الوقت رهانًا خطيرًا بين المحليّين، بعضُهم يقسم بأنها ستعود في المرّة القادمة برفقة السيرك لأنها فقرةٌ مُربحة، وبعضهم يقسم بأنها لن تعود لأنّ عمبابا نعَتَها بالفاجرة، ألغاها إلى الأبد كما قال عند رحيله، وأنه سيعود بشابة أخرى أكثر نضجًا، وتحمّلًا لسكاكين العواطف منها. تحرّش بها البعض، بمحاولة إمساك يدها، أو ضمّها بالقوة، وتكفّل البعض الآخر بحمايتها بوازع الأخلاق، وفي النهاية حشروها في سيارةٍ تنقل المواشي والأعلاف كانت مسافرةً إلى كينيا بالصدفة، من دون أن يعرف أحدٌ ما جرى لها في تلك الأيام التي قضتها بصحبة العربي الذي فرّت معه.

كان رابح مديني من أوائل الذين وصلوا إلى خيمة السيرك، بعد أن ترك عامليْه وحيدين في خدمة المتجر، كان قد عاد بالأمس من أوغندا، جالبًا بضائع جديدة فيها خمور غالية، وبهارات

هندية، وفستان عرس أبيض مطرّز، طلبته إحدى الفتيات العربيات من أهل البلدة لعرسها الوشيك، ودفعت ثمنَه مقدّمًا، ولم تكن ثمّة أسلحة مصاحبة بسبب الكساد النسبي الذي حدث في تجارتها بعد اتفاق الوحدة الوطنية. كان عمبابا يعرفه جيّدًا، أكثر من ذلك كانا صديقين قديمين، عملا معًا في مهنة تنظيف الدواب، وتقليم أظفارها التي كانت مهنةً سائدة في سوق (البردعة) القديم، أول سوق أقيم بالبلدة، وكان يقع في وسط حي لادولادو الشعبي، ومورست فيه وحشيةٌ غريبة للبيع في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حين كانت تجارة الرقيق في أوْجها، وأبناءُ الجنوب وبناته يساقون بواسطة الغزاة العرب، عراة وحفاة، ومقيدي أيادٍ وأرجل، إلى مصائر مجهولة. وفي الوقت الذي اهتدى فيه رابح إلى مهنة التجارة الحدودية نافضًا يديه من وسخ الدواب وأظفارها القذرة، كان عمبابا قد مضى بعيدًا ليغيب طويلًا، ويعود تلك العودة الموسمية المتغطرسة، التي تصيّره نجمًا في البلدة لأسبوع كامل، يرحل بعده إلى مدن إقليمية أخرى، قبل أن يرتدّ إلى كينيا .

على لافتةٍ كبيرة من القماش الأبيض، معلقة في مدخل الخيمة، كتبت عبارة ترحيبٍ روتينية بالضيوف: أهلًا وسهلًا.. مرحبًا بكم في السيرك العظيم، وتحتها مباشرة رُسم وجهٌ غريب لرجل ذي لحية جهمة، وشعر غزير، وشاربين طويلين، وتحته مباشرة كتب:

"الساحر التركي العالمي (ندمان قل).. يتحدّى مشاعركم، ونبضات قلوبكم، ويخبركم بما تأكلونه وتشربونه، في فقرةٍ جديدة ممتعة.. وليوم واحد فقط".

كان الزحام على أشدّه، رجال ونساء وأطفال، وتدافع بالأيدي والأكتاف، للوصول إلى المدخل، خاصّة أنّ السيرك لم يكن يبيع تذاكر للدخول محدّدة القيمة، ولكن يعتمد على ثمن المتعة الذي تجمعه الكينية ديمومة في إناء الفخّار الأسود بعد نهاية كلّ فقرة. وكان عمبابا يقف في المدخل، يرتدي قميصًا إفريقيًّا من عدّة ألوان، وسروالًا من وبر الخراف البني، ونظارة سوداء صغيرة الحجم، بإطارٍ من الخرز الأحمر على وجهه، وبدت هيئته في مُجملها غريبةً ومضحكة، ولدرجة أنّ رابح مديني ضحك بالفعل، وهو يحتضنه:

- أيها الفاسق العجوز.. كيف حالك؟

ضحك عمبابا بدوْره:

- مثلك تمامًا. ألم نتخرج معًا من سوق البردعة؟

وقفا قليلًا يستعيدان أيامَ السوق القديم، أصوات النهيق والخوار، وروائح البول والرّوث وعدد رفسات الحمير التي نالها كلّ منهما، وقرصات الجوع التي لسعتهما كثيرًا، وكيف أنّ التاجر الذي كانا يعملان عنده قد مات فجأة وهو واقفٌ على قدميه في وسط السوق يفاصل

على سعر ناقة، وقيل أصابته عينٌ حاسدة من أحد منافسيه، وأنّ فتاة من قبيلة الزهويّين العربية اسمها رضيانة الخضر كانت تتردّد على السوق لبيع الشاي، وتلقّب بملكته وسط الزبائن، استجابت لغوايتهما معًا، كانت تعشق في رابح رائحة جسده التي تذكرها برائحة ثمرةِ مانجو متخثّرة، وفي عمبابا، صوته الذي قالت إنه شبيه بصوت ذئبٍ مجروح يعوي في الغابة، كانا يقاسمانها الطعام القليل الذي يحصلان عليه، يتبادلان ليالي الغُهر معها في كوخٍ مهجور في طرف إحدى الغابات المجاورة، وحملت في بطنها جنينًا لم يعرفا أبدًا ابنَ مَن فيهما، وحتى الفتاة نفسها لم تستطع أن تنسبه إلى أيّ منهما ساعة أنْ ولدته في ذلك الكوخ بحضورهما، وحضور ممرضة متدرّبة في مستشفى مداري الذي افتتح حديثًا في ذلك الوقت، أحضراها لتولّي المهمّة، وتولّتها بيدين مرتعشتين، قالت: له صوتُ الذئب المجروح نفسه، الذي يعوي في حلق عمبابا، ويحمل جسده أيضًا رائحة المانجو المتخثرة التي تميز بها رابح، واختفت به صغيرًا جدًّا، وحتى قبل أن يتفحّصه الصديقان بتمعّن، ويلصقانه إلى أبوّة واحدٍ منهما.

- أين ذلك الولد يا رابح . هل ما زال مفقودًا؟

- نعم.. هو وأمّه لم يظهرا أبدًا منذ ذلك الحين.

- زمن طويل. أليس كذلك؟

- نعم.. نحو الأربعين عامًا كما أذكر.

- لعلّه يظهر يومًا.. وفي تلك الحالة سأتشرف بأبوّته.. ولداي الشرعيان هاجرا إلى أمريكا، وضاعا منّي.

- حين يظهر، سنقرّر مَن فينا الذي يتشرّف بأبوته، دعْك من هذا الأمر الآن.

لم يخبره رابح أبدًا- بالرغم من تكرار ذلك الحديث في كلّ مرّة يعود فيها بصحبة سيركه، ولم يخبرْ أحدًا آخر، حتى صديقه المقرّب آدم مطر- أنّ رضيانة الخضر، وابنَها الذي سمّته الجريح؛ كنايةً عن بنوّته الضائعة، ونسبته إلى رجلٍ اسمه سالمان عبيش لم يكن حقيقيًّا، ولكن أولُ اسمٍ خطر ببالها وهي تفرّ حاملة مأساتها، ومرتعدةً من بطش القبيلة؛ موجودان بالفعل، ويعيشان في مدينة جوبا عاصمة الإقليم، وبالتحديد في حيّ (مطرة جوبا) الذي كان عشوائيًّا ذاتَ يوم، وتمّ تخطيطه وتنظيمه بعد ذلك، وعرف رابح بأمرهما منذ زمنٍ بعيد حين ذهب إلى هناك في إحدى السنوات، لكنه لم يسعَ للبحث عنهما بالرغم من مروره شبْه السنوي بعاصمة الإقليم لتخليص شؤونه. لم يكن توّاقًا للماضي، ولا كان راغبًا في نبشه، وآثر أنْ تستمرّ الحياة كما هي. كانت رضيانة قد شاخت وهي تصنع الشاي، وتبيعه في سوق (المردة)، كما أخبروه، كأنّها لم تكن أبدًا شابة بطعم الفواكه، يتبادلها صديقان في ليالي تافهة، والجريح كبرَ بشدّة، متّبعًا شقاوة ولد بلا أب ينهره، أو يعنفه، تعلم القراءة والكتابة باكرًا، وتنقّل في عدّة مهنٍ هامشية؛ مثل صيد الغزلان،

وعتالة الأجْولة في السوق، وحصاد الفواكه في موسم نضجها، حتى استقرّ حارسًا من حرّاس السجن الكبير لمدينة جوبا، لكنه لم يتزوّج قط، ولا ساق دوافعَ قوية تبقيه في طقس العزوبية حتى ذلك الحين، وما كان الفقر الذي عاشه- ويعيشه- عائقًا أمام أعزب في ذلك الزمان؛ يمنعه من تذوّق المرأة. ولا يعرف رابح نفسُه أنّ الجريح سالمان عُرف بمنابعه حين كبر، ليس من أمّه التي تكتّمت كثيرًا على تلك المنابع، ولكن من صديق العائلة الوفي، الجنوبي تايلور الذي كانت لديه فلسفته الخاصة وهو يكشف منابع العائلة لولدٍ كثيرِ الأسئلة. سعى الجريح كثيرًا للعودة إلى مداري بحثًا عن أهله، لكن أمّه- التي انقطعت تمامًا عن جذورها، وأوشكت حتى أن تنسى اسم أمها وأبيها- كانت تمنعُه بشدة، وتتصنّع غيبوبة الموت؛ حين ترى إصراره الكبير، فيضطر للخضوع، ونسيان أمْر مداري. وفي إحدى السنوات، وكان الجريح في الثانية والعشرين، مرض بحمى التيفود المقاومة لعقار السلفا، وشارف على الموت، وكانت رغبته الأخيرة التي نطق بها بلسانٍ متعثّر، هي أن يرى بلدته. ذلك اليوم حملته أمّه بمصاحبة جيرانها وعددٍ من زملائه، أركبوه عربة كومر مستأجرة، طافت به في بلدة قريبة من جوبا، شاهدها الجريح في غيبوبة الحمى، ظنّ أنها بلدته، منحها ما استطاع استخراجه من قُبل هوائية، وطلب أن ترشّ حفنة من ترابها على وجهه، وأن يغسل ويدفن فيها، ويصلى عليه رجلٌ دين منها، وحين أفاق من توهانه، ولم يمت، وعرف بالخدعة من أولئك الذين ساعدوا الأم في

مهمتها، أيقن تمامًا أن تلك المرأة البائسة- بائعة الشاي، أمّه- ما فعلت كلّ ذلك إلّا فرارًا من سرّ أو عارٍ مدفون في تلك البلدة. أراد أن يسألها مرارًا عن ذلك السر، وخاف من جرحها، واكتسب عادةَ أنْ يبكي عند قبرٍ قديم كانت أمّه قد دلّته عليه وهو صغير، باعتباره قبر والده سالمان الذي مات، وهو رضيعٌ في المهد ما يزال. وحين تمّ استيعابه حارسًا بالسجن الكبير لمدينة جوبا بمجهود خارق بذلته أمّه لدى المسئولين، وبرغم عدم استيفائه للشروط المطلوبة لحراس السجون، التقى بسجين من مداري، اسمه شامي، ويلقب بالعقرب، وكان يقضي عقوبة بالسجن المؤبد، مضت منها أربعون عامًا بالتّمام والكمال؛ بسبب قتله لموظفٍ إنجليزي أيّام الاستعمار، شاهده يتحرّش بفتاةٍ عربية في وسط السوق، ويرفع قميصها. في تلك الأربعين عامًا، تحرّرت البلاد من قبضة الاستعمار كليًّا، واعتُبر قتلة الإنجليز أبطالًا قوميّين، كُرّموا أحياءً وأمواتًا، ومُنحوا أوسمة، ولم ينتبه أحدٌ إلى أنّ ثمّة بطلًا قوميًّا- اسمه شامي، ويلقّب بالعقرب- قد شاخ في سجن بائس حتى شارفَ على النهاية. حدّثه العقرب عن مداري كما يذكرها، وصف له بيوتًا من الطّين الخشن، وشوارع مغبّرة وممتلئة بالحفر، وسوقًا ضاجّة تباع فيها الدّواب، والجلود المدبوغة، وأشياء أخرى لم تكن موجودة إلّا في ذاكرته الشخصية، وتحمّس الجريح بشدّة، كتب رسالةً مؤثرة إلى مأمور مدينة مداري، مستر تومبسون، يخبره فيها بأنّه من مواطني المدينة الذين جنى عليهم القدرُ وأبعدهم عنها، وأنه سيعود حتمًا في أحدِ الأيام، ويفتتح محلًّا

لبيع الأغنام في سوق البردعة. كانت رسالة جديدة، كُتبت بأبجديّات أربعين عامًا إلى الوراء، سوق البردعة انتهى منذ زمن بعيد، وتهدّم، مستر تومبسون، مأمور المنطقة، عاد إلى بلاده منهزمًا، ولا بدّ قد مات، وشبع موتًا، وسعاةُ البريد الذين كان مِن المفترض أن يحملوا رسالة الجريح، ويوصلوها إلى مداري؛ مزّقوها باعتبارها رسالةً قديمة سقطت في أخطاء إدارة البريد، ولم تصلْ في موعدها، ولا جدوى من حملها الآن، وظلّوا هكذا يمزقون، ويحمِّلون البريد الأخطاء، كلّما تشنّج الجريح، وخاطب شخصًا مندثرًا في مدينة مداري. وفي اليوم الذي قال له فيه السجين، إنّ مداري تبعد خمسة عشرَ يومًا فقط، وعليه أن يركب حمارَه ويذهب، فطِنَ لأوّل مرّة إلى أنه يعيش في التاريخ المعشّش في ذاكرة سجينٍ مؤبد، وأنّ حماسه وضعفَ عقلِه أبْقياه غشيمًا جدًّا، وانقطع عن كتابة الرسائل ليرتاح سعاة البريد، لكنه برغم ذلك ظلّ وفيًّا للعقرب حتى بعد أنْ مات، شارك في غسله، ودفنه، وليالي العزاء التي أقامها في بيته شخصيًّا.

بدأت عروضُ السيرك ساخنةً مَتْبوعة بالصفير والتصفيق، بعد أنْ أغلق المدخل الرئيسي للخيمة، ووُضع عليه حرّاس أشداء، بينما بقي المدخل الخلفي- الذي يدخل منه اللاعبون وتُساق عبْرَه الحيوانات المشاركة- مواربًا، وأيضًا محروسًا برجالٍ آخرين؛ منعًا لتسرّب الجمهور الذي لم يجد أماكنَ من خلاله. جاء الكلب التشوكي الأبرص بقميصه الأصفر، رقص البانديرا، والتش تش، وشجن الغرام،

وحصدت ديمومة ثمنَ فقرته حصادًا جيّدًا. جاء فيلان ضخمان، علّق على رقبتهما شعار أحدِ فرق كرة القدم الإفريقية الشهيرة، أدّيا تحايا عسكرية صارمة أمام عددٍ من المتطوعين، صعدوا إلى المسرح يرتدون أزياء كاكية اللون، تنفّست صبورة مِن ثدييها بكفاءةٍ واقتدار، ووقف عمبابا في الوسط شاهرًا سيفه، ومتوجّهًا به إلى خصر فتاة رشيقة ظهرتْ تتراقص من إحدى الزوايا، ووقف الجمهور متوترًا، متقطّع الأنفاس، ليكتشف أنها المعشوقة زيابا نفسَها، وقد عادت هذه المرّة أيضًا، بالرغم من قَسَم عمبابا الذي ردّده مرارًا عند رحيله أنها لن تحظى بشرفِ سيفه مرّة أخرى أبدًا. انشقّت زيابا كالعادة في تلك الخدعة البصرية المرعبة، تلملمت، ونهضتْ ورقصت ومنحت قُبلاتِها الساخنة للجميع، وتقدّم عمبابا إلى الأمام، مُقتربًا من جمهوره الحاشد، بمسافة تكفي ليسمعه حتى حرّاس بوابات الدخول في الخارج، كان يصيح:

- لقد وعدتُ تينا ماترتينوس، في لحظاتها الأخيرة، أنْ أظلّ أرعى زيابا حتى أموت. شكرًا لتفهّمكم.. شكرًا جزيلًا.

ثمّ غادر المسرح في خطى ثابتة.

كان في الواقع يقصد أمّها، تينا ماترتينوس، الملقّبة بإيزابيلا الحسناء، تلك المُمرضة البرازيلية الجميلة التي كانت تعمل في أحد مستشفيات كينيا، وتزوّجها موظّف أرصادٍ جوي بريطاني، كان في مهمّة رسميّة لثلاثة أشهر في نيروبي،

يتعلّم فيها تقلّبات الطقس المداري، وانتهى الزواج بانتهاء تلك المهمّة؛ حيث عاد إلى بلاده تاركًا امرأة حاملًا في شهرها الثاني. وضعت المُمرضة حملها، أنثى سمّتها زيابا، تيمّنًا بالمناضلة الإفريقية، والناشطة في حقوق المرأة والطفل، زيابا لوجابي، وعهدت بها وهي في الثالثة عشرة من عمرها إلى عمبابا، الذي كانت تعرفه جيّدًا، وتثقُ فيه بلا أي دليل ثقةً قدمه لها، ولكنْ بإحساسها فقط، حين اكتشفت إصابتها بسرطان الثدي في مراحل متقدّمة، وأخبرها الأطباءُ بموتها الوشيك. ولم يخذلْ عمبابا إحساسها أبدًا، التزم ببنود الوصاية التي وقّعها أمام محام كيني، تمامًا كما وردت، وحتى بعد أنْ كبرت الفتاة، امتلكت صدرَ الإغراء، وجسد الفتنة الرهيب، كان عمبابا يتفه مُغرياتها، ويذهب بعيدًا، يلتوي برغباته في أماكن مفتوحة، وتجارية، وتسدّ حاجته إلى المرأة التي لم تكن قي الواقع حاجة كبيرة، خاصّة بعد أن ماتت زوجتُه الكينية منذ عدّة سنوات.

كان عمبابا في ذلك الوقت شبهَ عاطل، يتعلّم أبجديات الخدع عند ساحر كيني عجوز، ولا يستطيع إجادتَها، ولم يكن يملك وسائلَ رقي ترتقي بها مراهقة يتيمة، عُهد بها إليه، ولا كان يجيد حتى تربية الدجاج وحمام البيوت الذي لا يحتاج إلّا إلى قمحٍ وقدح ماء. في البداية احتار في أمرها، كوّم لها لعب الأطفال البلاستيكية التي لا تناسبُ عمرها، وعرّضها للتحرّش الدائم، باصطحابه لها إلى أماكِنه المشبوهة، تركها

عند نساءٍ بلا ضمير، عذّبْنها كثيرًا، وجاءته فكرة أن يستغلّ رشاقتها، وعينيها الخضراويْن اللتين ورثتهما عن أبيها، حين كبرت قليلًا، ويجعلها فقرةً مُربحة في سيركه الذي سمّاه السيرك العظيم، وكان في ذلك الوقت مجرّد فكرةٍ فقط، لم تخرجْ إلى حيّز الوجود بعد، بالرغم من أنّه استلف بالفعل نقودًا من أحد معارفه، وابتدأ يفاوض المسئولين في حديقة الحيوان الوطنية في نيروبي، لشراء تلك الأفيال الهَرِمة، التي مات أحدُها العام الماضي، في مداري، وكان الكلب الأبرص، هديةً من رجل فرنسي يقيم في كينيا، ويهوى اقتناء الكلاب، وقد استلمه بعد ذلك بفترة طويلة. ولن يعرف أحدٌ أبدًا أنّ عمبابا الذي ارتجل نشيد آدم وحواء في لحظة امّحاء فقرته المفضلة، وأقسَمَ ألّا يمسّ سيفُه خصر زيابا مرّة أخرى أبدًا، هو نفسه الذي ألغى عروضه في كافة مدن الإقليم، واستأجر بحصاده كلّه أدلةً وقوّادين ورؤساءَ عصابات من بقايا الجماعات المتمرّدة، وارتاد مواخيرَ، وبيوتَ لهْوٍ بلا حصر؛ بحثًا عن الفتاة الهاربة، حتى يئس وغادر إلى كينيا، ولم ينمْ إلى أن عادت مرّة أخرى باكية، تتمسح بقدميه. وزيابا نفسها وبعد خمسة أيام قضتْها في أحضان عاشقها العربي، كما هو مفترض، منحتْه ما أرادَه منها، أو لم تمنحه؛ تذكّرت وجه عمبابا النحيل، وصوته المجروح، وحلوى (حصان طروادة) التي كان يصنعها لها بنفسه من العسل والسكر ونخالة القمح، وفرّت من العاشق عائدةً إلى منابعها. لم تكن ثمّة ضرورة لتقسم أنها لن تكرّر فِعلتها مرّة أخرى، وقد قضى عمبابا

أيّام سهاده، في تنميق نشيد آدم وحواء، الذي ارتجله يومَ فرارها من أمام سيفه، كتب فيه كلّ انطباعاته عن المرأة، إبتداءً من عدم الثقة فيها، إلى طعنها بالسكين عند الضرورة، لكنّه برغم ذلك زرع في منتصف النشيد فقرات مشرقة، فقرات تخصّ الأمومة والطفولة، ومغص الحيض، ولحظة المخاض التي لو كانت عند الرجال لأبكتهم جميعًا. ولم يحتلّ آدم في النشيد فقرات جليلة، حيث جعله مغلوبًا على أمره، ومربوطًا إلى غواية حواء، حتى لو كان حاكمًا ديكتاتوريًا، أو آكلًا للحوم البشر.أرادت زيابا أن تقسِمَ بأنّها لن تفرّ مرّة أخرى، وشدّها عمبابا من شعرها، أجلسها وسط ألعابها القديمة، قرأ عليها النشيد كاملًا، وأضاف حين انتهى:

- هل هذا واضح يا بنت تينا الفانية؟

لكنّ ذلك لم يكن كلّ شيء، وما زالت هواجس مهمّة تؤرّقه، أنْ تكون الفتاة قد فقدت ما تعضّ عليه الشريفات حتى يمُتْن. لم يكنْ يستطيع سؤالها، وحاول في أكثر من مرّة أن يقرأ عينيها ولم يستطعْ، وقاده أرقُه ذاتَ يوم إلى قابلةٍ كينية، كانت مسنّةً لدرجة أنها تعرف السرّ، وتنساه مباشرة، وفي نفس اللحظة اصطحبها إلى منزله، أشار لها إلى غرفة زيابا التي كانت نائمة، وغارقة في عري النائمات باستهتار، وفحصتها القابلة لتُطَمئن عمبابا إلى وجود غشائها، وتسأله في نفس اللحظة، عن السبب الذي جعله يأتي بها إلى بيته، في هذه الساعة

من الليل.. كانت قد عرفت السرَّ ونسيته.

بعد فقرة زيابا، واصل السيرك عروضه، تجوّل شروم الأصلع بين المشاهدين، استولى على نقودهم، وحبيبات لبّ القرع، والخيوط المتناسلة التي عثرَ عليها في جيوبهم، وأعاد ما أخذه عند نهاية الفقرة، وحان الوقت أخيرًا لتلك الفقرة المفاجأة التي ينتظرها الجميع، وحُبست لها الأنفاس.

- الساحر التركي (ندمان قل).

صرخ عمبابا، بصوته الكبير الذي لا يشبه جسدَه، صوت الذئب المجروح، كما قالت فتاة الشاي، أمّ الجريح، التي كان يتقاسمها مع رابح مديني فيما مضى.

- (ندمان قل).. في خدمة المتعة ليومٍ واحد.. اليوم فقط وسيرحل. انتظروا وتوتّروا. ابلعوا ريقكم الآن، قبل أنْ يجف.

ضجّت الخيمة بالهتاف والتصفيق، بينما ظهر التركي يمشي بخطى واسعة، كان حافيًا يرتدي سروالًا أبيض فضفاضًا، وقميصًا من الدّمور، وفي عينيه وميضٌ، وقد ثُقبت أذنُه اليمنى، وتدلّت منها حلقةٌ من المعدن، كانت طويلة جدًّا، وتصْدِر رنينًا عاليًا عند احتكاكها بالأرض. وقف قليلًا يتأمّل الحشد المتوتّر على ضوء الشمس الساطع الذي ينتشر في الخيمة، عبْرَ فتحاتٍ كبيرة في السقف،

ثمّ تحدّث أخيرًا، وكان صوتُه مألوفًا، صوت رجل عادي، يتحدّث في جلسة سمر:

- نسيبة لادو .. اظهري يا نسيبة لادو.

وخرجتْ من بين الحشد فتاةٌ مرتبكة، كادت تسقطُ وهي تصعد إلى المسرح. كانت فتاةً مغمورة، وأتت من الريف المجاور للبلدة، ولم تكن تظنّ أبدًا أنها ستصبح يومًا فقرةً من فقرات الغرابة في سيركٍ تشاهده لأوّل مرّة، كانت مُرتبكة، وتتساءل في سرّها وهي تخطو، عن تلك الكيفية التي اهتدى بها إليها السّاحر، وعرف اسمها وسط كلّ أولئك الناس؟

- نسيبة لادو..

أمسكَ الساحر بيدها، ضغطَ عليها برفق:

- خالص التهنئة بخطوبتك التي تمّت بالأمس من الشاب موازع. هنّئوا نسيبة جميعكم.

ودوّت الخيمةُ بالتصفيق والصياح، وأيضًا بالارتباك والدهشة، وسقطت الفتاة عند قدمي الساحر عرقانةً وخائرة القوى. بالأمس فقط، خطبت إلى متمرّد سابقٍ في جيش التحرير من أهل بلدتها، اسمه موازع، ظلّ يغازلها منذ أن هدأتِ الحرب، وخرج من جوف الغابة، ليعمل دليلًا للصيادين، وجرى الأمر في قريةٍ ريفية، تبعد عدّة ساعات عن البلدة.. كيف.. كيف؟!!

- شريك علي.. انهض يا شريك.

ونهض رجلٌ مُسنّ من قبيلة الرزيقات، كان فيما مضى نجّارًا متمكنًا، صاغ أبوابًا ونوافذ بلا عددٍ لبيوت البلدة، وشيّد- وحدَه من دون مساعدة أحد- ذلك البيتَ الخشبي الكبير في حي (درب المأمون)، الذي كان فيما مضى مقرًّا لمأمور المنطقة الإنجليزي أيّام الاستعمار، ويسكنه الآن قائدُ الشرطة المحلية، وكان شريك قد تقاعد منذ عدّة سنوات بسبب أمراض الشيخوخة، واعتاد على حضور السيرك منذ قدومِه لأوّل مرّة، ولم يكن يظنّ أيضًا أنه سيصبح فقرة فيه.

- شريك علي، حدّثنا قليلًا عن حواء.

لم يقلِ الرجل المسنّ شيئًا، وقف قليلًا مُرتعش الركبتين، يطالع الساحر في بَلَه، ثمّ هبط من المسرح، وفرّ هاربًا من داخل الخيمة، والناس يصرخون: حواء.. حواء.. حدّثنا عن حواء. لقد طعنه الساحر بلا شكّ، أعاد ذهنه خمسين عامًا إلى الوراء، حين كان فتى قويًّا، وكانت حواء أنثى ضعيفة، ومخازٍ كثيرة حدثت، لكنّ أحدًا لم يكن يعلم، والذين يعلمون، لم يعودوا يتذكّرون.

- آدم مطر.. تحيّاتي يا صاحب المطعم.

إنّه آدم مطر، صديق رابح مديني، وقريبُه، من قبيلة المسيرية، الذي يملك مطعمَ بابايا النظيف في وسط السوق، والذي يفخر دائمًا بأنّ رئيس

البلاد- شخصيًّا- تناول فيه وجبةَ غداء مُشبعة، وُثِّقت بالصورة، وعلقت على واجهة المطعم عند زيارته للبلدة، في أعقاب اتّفاق المصالحة الوطنية. لم يكن مطر كصديقه في شهرته التي ما تركت ركنًا في المنطقة إلّا حطّت فيه، كان معروفًا في حدود زبائنه الذين كان أغلبهم من الريفيّين البسطاء، والسياح القادمين من عمق إفريقيا، وأوروبا عبْرَ سكك المغامرة، وكان كتومًا وصامتًا في معظم الوقت، ولا بدّ أنّ الساحر التركي شمّ رائحة عشاء من لحم الكلاب، قدّمه آدمُ ذات يوم بعيد إلى زبائنه، نوعًا من التجربة، ولم يكرّره أبدًا، لكنّ الساحرَ كان يتحدّث عن سرّ آخرَ نسيَه مطر، ونسيته البلدةُ منذ زمنٍ طويل. سرّ أخته عفراء التي شارك في خنْقها ودفنها في بئرٍ سحيقة بداعي الشرف، حين شكّتِ العائلة في بطنِها المتكوّر، وكان بفعل ورم ليفي، وليس جنينًا حيًّا، كما كانوا يعتقدون.

- أين عفراء يا آدم؟

تجمّد صاحبُ المطعم في وقفته، استمرّ متجمّدًا لعدّة دقائق، حتى أيقظه السّاحر، وجرجره عدّة عاملين في السيرك، أعادوه إلى مكانه.

- رابح مديني.. يا معلّم رابح.

لم يكنْ لدى رابح سرٌّ خاف على أحد، ولا كانت حياته، سوى صفحات مَقروءة ومسموعة ألفها الناسُ كلّهم، وتناقلوها فيما بينهم حتى أوشكت

أنْ تصبح جزءًا من التراث. تاجر الحدود المغامر، الرجل الذي اعتلته جنيّة من جنّيات الليل، اسمها تابيتا، وأحبّ واحدة من بنات قبيلة الزاندي، وأقلع عن سيرةِ المرأة حين ضاعتْ حبيبته، والذي يخطو الآن نحو الساحر في جرأة، غارسًا عينيه في عينين تشعّان بالوميض، وينتظر أنْ ينطق الساحر، أنْ يأتي بشيءٍ من ماضيه كما فعلَ مع الآخرين، حتى يخذله، ويقضي على فقرته التي بهرتِ الناسَ وأخافتهم في نفس الوقت، وقد بدأ بالفعل عددٌ من الحضور، يتسلّلون إلى الخارج؛ خوفًا من سماع أسمائهم تردّدُ بذلك الصوت العادي الذي كأنّه في جلسةِ سمر، لكنّ الساحر لم يكنْ مغرمًا بالماضي عند رابح، كما يبدو:

- انتهى الوقتُ يا رابح، انتهت حياتك وتجارتك.. ارقدْ بسلام.

- ماذا تعني؟

كان صوتُه مرتبكًا وهو يسأل، ركبتاه بدأتا ترتعشان، وشيء في صوت الساحر هزّه. وأطفأ جرأته التي صعدَ بها على المسرح، وكانت قراءة المستقبل هي النقطةَ الوحيدة التي يهتزّ بها سريعًا في حياته الراسخة. تحسّس جسدَه كلّه بيديه، ولم يحسّ بوجعٍ أو حُمّى، التفت إلى الجمهور الحاشد يبحث عن نظرةٍ منزعجة، أو نظرةِ خوف، لكنّ الجمهور كان يصفّق بلا معنى.

- ماذا تعني؟

- أعني ما قلته.. أنت رجلٌ ميّت.. ميت في انتظار مَن يدفنه، أمامكم رجلٌ ميّت، أيها السيدات والسادة.

- ماذا تقول؟

أهمله السّاحر، ابتعد عنه جارًّا حلقته المعدنية وهو يصرخ:

- كافي موسى.. اخرجي يا كافي.

كان رابح يعود إلى مقعده، متعثّرَ الخطى، بينما فتاةٌ من قبيلة الدينكا، يلمع جسدُها بالزيوت، وقد صبغ شعرُها بحنّاء كثيفة، تصعد إلى المسرح ملبّية نداءَ الساحر، كانت حاملًا في شهرها الرابع، وستبتهج حتمًا لو أعلن الساحر حملَها للجميع.

***

-٣-

عصر ذلك اليوم، الخميس، الثامن عشر من سبتمبر عام ١٩٧٥، أحسّ رابح مديني بالمرض فجأة، الرجل الذي لم يصَبْ حتى بالزكام العادي من قبْل، ولا بملاريا المُستنقعات التي تعدّ مرضًا مُزمنًا في تلك الأنحاء، وتُصاب بها حتى البويْضات في الأرحام، أحسّ برأسه ثقيلًا، وساقيْه متخاذلتين، وضيقٍ في تنفّسه، وشيء من المرارة يغذو حلْقَه الجاف، وتذوّق رشفةً من مرَقِ الدجاج، الذي أعدّته خادمةٌ من قبيلة الشّلك الجنوبية، اسمها سوارة، كانت تساند عزوبيّته في خدمة البيت منذ أنْ هجرَ النساء، واستفرغ.

كان قد انتظر حتى نهاية عروض السيرك كلّها، انتظر بتشتّتٍ وشرود ذهن، ولم يفهمْ حرفًا واحدًا من نشيد آدم وحواء المنمّق، الذي جعله عمبابا فقرةً ختاميّة ضاجّة، أحياها بصوته الكبير المجروح، غير عابئ بسخط النساء الذي كان جليًّا في الوجوهِ والأصوات الحادّة التي تقاطعه بين لحظة وأخرى. وفي لحظة الإغلاق، قرابةَ الظّهر، اقترب من صاحب السيرك المزهوّ بنجوميّته، شدّه من ثيابه، وهو يصرخ:

- أين هذا التركي الملعون يا عمبابا؟

- رحل بعد نهاية فقرته. لديه ارتباطات كثيرة في بلاد أخرى، إنّه ساحرٌ عالمي.

ردّ عمبابا بصوتٍ جاف، وهو يحاول تحريرَ ثيابه من قبضة رابح، وقد التفّ حولهما جمعٌ كبير من الناس، بمَن فيهم أولئك الذين أذيعت مَخازيهم علنًا، وما زالوا يرتعدون، غيرَ مصدقين، ووقف آدم مطر الذي ما يزال حائرًا ومباغَتًا هو الآخر مِن قوْل الساحر، بجانب صديقه، يضع يدّه على كتفه، ويمارس عادةَ الصّمت التي لا يخرج عنها إلّا عند الضرورة القصوى. كان الساحر قد كشفَ الغطاء عن ماضٍ أسريٍ قديم، حين دفنوا الأختَ عفراء مطر، وهي في العشرين، وتخلّصوا من عارٍ كانوا يظنّونه بداخلها، لكنّ المسألة كانت تافهةً، وتافهة جدًّا إذا ما قورنت بمسألةِ رابح الذي اعتبره الساحر جثةً هامدة، وهو ما يزال قويًّا ونشطًا في السّفر والعودة، والسّهر حتى الفجر، ويمسك الآن بصاحب السيرك من ثيابه، ويكاد يمزّقها. لم يكن آدم يحبّ عمبابا أبدًا، ولا تذوّقه قديمًا أو حديثًا، وقد نبّه رابح مرّات عديدة، بنفوره من ذلك الضئيل، ذي الزّي الملوّن، والغطرسة، لكنّ ذلك لم يؤثّر في شيء، آدم بالنسبة لرابح هو صديقُ البلدة الأثير، وعمبابا صديق سبعة أيام صاخبة يرحلُ بعدها، وربما يزوره رابح حين يذهب أحيانًا إلى كينيا، وفي الغالب لا يزوره أبدًا.

كان رابح مديني- لسوء حظّه- من الذين يؤمنون كثيرًا، بأحاييل السحرة، وادّعاءاتهم كشفَ الغيب، وعُرف بارتياده بيتَ العجوز الصباح فيما مضى، كلّما زادت متاعبه، بالرغم من عدم جدواها، ولجوئه للمنجم الأوغندي سومومو أيّام

لغز سوشيلا الذي ضيّعته الحرب، وكم من مرّة صادقَ منجّمين وسحرة، بلا دوافع ولا طلبات محدّدة يطلبها منهم، لكنّه في النهاية، كان يحضر سيرك صديقه القديم نوعًا من التسلية كالآخرين، وأيضًا وفاءً لزميل سوق البردعة القديم، شريكه في الجوع والعطش، وفراش رضيانة، وأبوّة الابن المفقود، ولكي يضع مبلغًا لا بأس به من المال في إناءِ الفخار الأسود، الذي تطوف به الكينية ديمومة عند نهاية الفقرات، وقد اعتاد في السنوات الخمس الماضية- وحين يأتي عمبابا إلى البلدة- أن يصطحبه إلى بيته، في حي درب المأمور، أحدِ أقدم الأحياء في مداري، وكان من قبل مأوى للمسئولين الإنجليز، ومِضمارًا لصعلكَتِهم وترنّحهم، وركضِ خيولهم، وكلابهم المدلّلة، وأنشئوا في وسطه ملعبًا مشجّرًا لكرة التنس، كانت تجرى بداخله مبارياتٌ استعمارية صِرفة، لم يُسمح لأحد من المواطنين مهْما كبر أو اغتنى أنْ يشارك فيها، والواقع أنه لم يكنْ يسمح لهم أصلًا بتعلّم تلك اللعبة النخبوية. في بيت رابح كان عمبابا يستريح طويلًا، يمدّد ساقيه، ويلقّهما، ينامُ على سرير مريح من خشب الزّان، وتحت رأسه وسادةٌ من ريش النعام، ويستطيع أن يسكر ويغني، ويمدّ يدَه إلى فواكه الطقس الاستوائي في أيّ وقت، وأن يشرب ماءً مثلجًا من ثلاجة كولدير نَشِطة تعملُ بالكيروسين، كان رابح من القلائل الذين يملكونها في البلدة، التي كانت بلا كهرباء مُنتظمة، ولم تكن ثمّة ضرورة لينام في شاحنته المُغبرة، أو في مسكنٍ خشبي بائس برفقةِ موظّفي سيركه، وتلك الدّوّاب نتنةِ

الرائحة. وقد حاول عمبابا مرارًا، أن يصطحب معه الفتاة زيابا، إلى تلك الضيافة المُرفهة، كان يخاف أن تتعرّى في غيابه، أو تستجيب لغواية واحدٍ من أولئك الذين يتحاومون حول أنوثتها، لكنّ "رابح" كان يأبى بشدّة. لقد حلّ لغز سوشيلا أكوال، أو حلّته الحربُ غير العادلة منذ زمن بعيد، ولا يريد لغزًا جديدًا في بيته، خاصّة تلك الفتاة الرّخوة، التي كلّها إيحاء، والتي يُمكن بقليلٍ من تكسّر الجسد، ولدغات العينين؛ أنْ تجرّ عجوزًا أعزبَ وأخرقَ مثله، إلى سكك النّزوات مرّة أخرى.

في العام قبل الماضي، وفي ذات البيت، وبعد أنِ اشتعل عمبابا بكأسين من خمر البن، أشدّ الخمور المحليّة فتكًا بالحواس، واحمرّت عيناه، وتصلّب لسانه في فكّه؛ طرح أمامَ مُضيفه مسألة الشراكة التجارية لأوّل مرّة، قال:

- هل تعرف معنى الوحدة الإفريقية يا رابح مديني؟

استغرب رابح الذي كان يمسك بكأسٍ بها خمرٌ نظيف من صناعة الإسكوتلنديّين من سؤال عمبابا، ولم يستطعْ أن يجد مناسبة تستوجب طرحَه. كان يعرف الوحدة الإفريقية كيانًا يضمّ دولًا سوداء وبيضاء، وجدت كلّها بالصدفة في تلك القارة السمراء المتخلّفة، يعرفُ أنّ اجتماعات سنوية تنعقد وتنفضّ بلا نتيجة، ورجالًا متأنّقين، يثرثرون بلا حساب، وجيوشًا تتمرّد وتنقلب على الحكّام، ولم يفكرْ أبدًا في معنى محدّد. هزّ رأسه ولم

يُجب.

- لا يهمّ.. هل فكّرت أنّ شخصي الضعيف، يمكن أن يكون من العظماء الذين سيكتب التاريخ، ذات يوم، أسماءهم بحروفٍ من ذهب؟

نظر رابح مليًّا إلى عمبابا، في ثيابه الملوّنة بألوان رملٍ وطوب، وذرة يابسة، نظرَ إلى عينيه المشتعلتين بفعل خمرِ البنّ الفتّاك، ولم يعثر أبدًا على عظمة ربما يكتبها التاريخ، لا في ذلك الجسد الضئيل الكئيب، ولا في صنعة متشرّد يعيش على خداع الناس، ويطوف بأفيال هَرِمة، وكلب أبرص، وامرأة تشقّ وتلتحم، وأخرى تتنفّس من الثديين، من بلدٍ إلى بلد.. سيصدمه بلا شك، ويردّ بأنه لم يفكّر في ذلك قط، وقد يرتكب عمبابا حماقة كبرى، وهو في تلك الحالة من زوغان العقل، وغياب الحواس، لكنْ قطعًا سينْسى كلّ شيء في الصباح حين يستعيد صوته، يقف مناديًا على فقراته في خيمة السيرك، أو يرفع سيفه الصدئ، يشقّ به الفتاة الرشيقة، خضراء العينين، في تلك الخدعة البصرية التي يمجّدها الجميع.

- لا في الحقيقة لم أفكّر.

- أنت مُحقّ، لا أحدٌ يستطيع تقييمي وأنا بهذا الضعف والفقر، لكنْ إنْ قوّيتني؛ سندخل التاريخ معًا، أنت بثروتك، وأنا بفنّي، سنشتري حيواناتٍ شابّةً ومروّضة، لا يرهقها السفر، ولا تؤثّر فيها قرصات الجوع، سنجلب الجليد من القطب

الشمالي، ونجعل الدببة تتراقص عليه بدلًا من ذلك الكلب التشوكي السخيف، سنلبس زيابا أزياءَ باريس المُختصرة الرائعة، ونشقّها بسيف من ذهب، سنتعشّى في موائد رؤساء الدّول، ونقدّم عروضنا حتى في أوروبا والمكسيك، وجزر بحر الكاريبي، نحن عالميّون.. عالميّون يا رابح، فقط ينقصنا المال.. ما رأيك؟

Que pensez – vous?

كانت خطرفات سكران، يشتعل الآن بكأسه الرابعة من خمر البن، كما قدر رابح مديني، وقد بدأت أعراضُ تسمّم المزاج تصبح أكثر وضوحًا في حركات يديه، وعينيه، وأنفه الأحمر المرتعش بلا توقف. لن يضع حصاد ثلاثين عامًا من الركض في الطرق غير الآمنة، والأجواء الملوثة، ورشوة حرّاس الحدود، وتعزيز المكانة الاجتماعية في بلاد لا تعترف بالمسكنة، في يد هذا المعتوه أبدًا، ولا كان أصلًا يرى فنًّا يقدَّم في تلك الخدع التافهة، إضافة إلى أنّه عمل وحده كلّ تلك السنوات، وسيعمل وحده حتى يموت. الصداقة شيء، وتبذير المال في الهواء، شيء آخر.

- آسف يا عمبابا.. لن أغامر بثروتي التي جمعتها كلّ تلك السنوات في مشاريع لا أعرف نتائجها، أنا تاجرٌ في حدود ما أعرفه، آسف حقيقة.

- إذًا، دعْك من الدببة البلهاء والجليد القطبي، وهاك هذا المشروع المُربح. فندق سياحي من

الدرجة الأولى، على ضفاف نهر بابي، بالقرب من نصب ماجوك، يأتيك بسيّاح لن تستطيع عدَّهم.. ما رأيك؟ أنا موافق أنْ يسمّى باسمك، فندق رابح.. ها.. ماذا تقول؟

- لا أستطيع يا عمبابا.

- ألَا تثق فيّ يا رابح؟

كان عمبابا قد وضع كأسَه على الطاولة الخشبية أمامه، نهض من جلسته، واقترب من رابح، وبيديه المرتعشتين، أمسكَ بكتفيه وهزّهما. كان يتجشّأ حموضةَ الخمر، وقد غدت رائحتُه لا تطاق، رائحة عطن، أو غراب ميّت.

- ألَا تثق في عمبابا؟ أنا مَن سيحرّك المشاريع في أنحاء الأرض، وما عليك سوى أنْ تجلس، وتحصد، وتحجز مكانَك في لائحة عظماء التاريخ، حين أذكر اسمك في كلّ مكان.

- ليست مسألة ثقة يا أخي، ولكنّي أعيش هكذا بارتياح.

كان رابح يردّد، وهو يحاول إبعادَ وجهه عن رائحة عمبابا الخانقة. وقد أحسّ بالتوتر، وأنّ هذه الليلة لن تنتهي على خير، وفي اللحظة التي استطاع فيها أنْ يشمّ هواءً آخر نظيفًا، خطرت له فكرة أنْ يلغي استضافة عمبابا عنده حين يحضر في سنواته القادمة، وإلى الأبد، لا بدّ أنّ الرجل واقع

في ورطات شتّى، ولا يحبّ رابح أن يلتصق بحاملي ورْطات من أي نوع، حتى لو كانوا أصدقاءَ قدامى، وقد جاهد سنين ليبقى لامعًا، يتاجر في ورطاته الخاصّة من دون أن يحسّ بأنها ورطات، واستطاع- بعد جهدٍ كبير- أنْ يلغي ذلك المتشدّد فتّاح، وجماعته، من مجتمعِ البلدة، بإيداعهم السجن في مدينة جوبا، وكان أن تحرّشوا بإحدى شاحناته وهي عائدة من أوغندا، وأتلفوا بضائعها بحجّة أنها تحوي منكرًا.

- إذًا، أنت ترفض.

- نعم.. أعتذر بشدّة.

- كنت أعرف.

ردّد بصوته الذي ما عاد مجروحًا فقط، ولكنه ميّت:

- لن يقيم أحد فردًا من قبيلة العبابين المنقرضة، حتى لو كان عبقريًّا. ستندم يا رابح، صدّقني ستندم، لن أنسى أبدًا أنك خذلتني.

في تلك الليلة، خرج عمبابا ساخطًا، يترنّح من بيت رابح مديني، سار في شوارع مداري الموحِلة، وكثيرة النّتوءات، ولا يعرف في أي شارع يسير، طرق أبوابَ أسرٍ نائمة، وأيقظها هلعة، قطع أحلامَ عذراوات ومراهقين، وآهات مرضى ساهرين، وردّد كلمة "السلام عليكم" مرارًا لكلّ شجرة يابسة

اعترضته، أو صخرة احتكّ بها وهو سائر في الطريق، حتى ماتت ساقاه، وما عادتا تستطيعان حمْله. وحين استيقظ في الصباح، وجد على ثيابه قيئًا كثيفًا، وفي أنفه ترابًا خشنًا، وكان ملقى في الطريق، وقد شمّته كلاب الليل كلها، وعافتْ رائحته، وتبوّل سكارى آخرون بجانب هيكله الضئيل من دون أن يلاحظوه. كانت ثمّة امرأة خَجِلة تشير إليه أنْ يستر عورةً مكشوفة، ورجال مسرعون لم يعرفوه، ولم يتوقّفوا لالتقاطه. تلملم من تلك الفوضى المخزية، جرّ قدميه جرًّا، وتسلّل إلى شاحنته، غيّر ثيابه على عجل، وركض إلى خيمة السيرك. كانت الساعة تمامَ الثامنة صباحًا، موعد الافتتاح، وقد امتلأت الخيمة بالناس، وكان موظّفوه في انتظاره ليبدأ إعلان الفقرات. وكان رابح مديني موجودًا وسط المتفرّجين، يحدق فيه بقلق، ويحاول أنْ يقرأ تداعيات ليلة الأمس على وجهه، ولا يعثر على أثر. هو أيضًا نامَ متأرجحًا، واستيقظ بصداعٍ وغثيان، وحين انتهت العروض، وبدأ الناس يتفرّقون، كان عمبابا يضعُ فرشاة أسنانه المكسورة، ذات اللون البنفسجي، في جيْب قميصه، ويحمل كيسًا من القماش بداخله ملابس نظيفة، وصندلًا بيتيًّا من البلاستيك، ويلوّح لصديقه رابح، ويتقدّمه إلى سيارة الجيب الواقفة على بعد أمتار قليلة من خيمة السيرك. وفي العام الماضي، وفي موعده المحدّد، والمرتقب من قِبَل الجماهير في البلدة، لم يذهب عمبابا مباشرةً إلى حيث خيمته، ومساكنه التي شيدت كما اعتاد أن يفعل، دخل سوق مداري بشاحنته القديمة، التي تجرّ خلفها مقطورةً مليئة بأدواته،

وحيواناته المشاركة، أطلق نفيرًا حادًّا أمام متجر رابح، وأقام معه هذه المرّة أيضًا حتى ذلك اليوم الذي ألغى فيه عرضَه الأخير، وتشتّت في مدن الإقليم كلّها بحثًا عن زيابا الهاربة، ولم يطرح طوال فترةِ إقامته موضوعَ الشراكة التجارية مرّة أخرى. كان ينام ويصحو، ويحتسي خمرَ البن بلا ضجيج، ولا لسان معطوب، وربما عاد بذاكرته إلى أيّام سوق البردعة القديم، تذكّر الأظفار القذرة، والتاجر الذي مات واقفًا على قدميْه، أو سأل بلا مبالاة عن الولدِ المفقود، أو أضاء جزءًا يسيرًا من تلك الفترة المُعتمة التي قضاها في كينيا، وعاد بعدها صاحب سيرك فقير ومتغَطْرس، لا يبدو ساحرًا مكتملًا ولا نصف ساحر، فقط حركة السيف الرّوتينية، وتعليق شخص ما في الهواء، وربما تحويل حمامة مسكينة إلى لوحٍ من الخشب، ولا شيء آخر، ولدرجة أنّ "رابح" اطمأن، جالسَه بودّ، باذَلَه صعلكةَ كبار السن، وكان ذلك عكسَ طباعه التي ترتاب حتى في بعوضة لو طنّتْ أمام أذنه مرّة، فلا يسمح لها أن تطنّ أكثرَ من ذلك.

بدا أنّ الأمر مُشاحنةٌ قد تطول بين صديقين مقرّبين، لم تنقطع صداقتهما برغم الفراق الطويل، وما كان رابح في تلك اللحظة يحسّ بضغينة كبيرة أو صغيرة تجاه عمبابا، ولكنْ بالقطع يبحث عن وسيلةٍ يطمئن بها قلبه الواجف، لقد خاض في دروب السحرة وقراء المستقبل زمنًا طويلًا، قرؤوا له مستقبل تجارته، وحياته الأسرية، صَدَقوا حينًا، ولم يصْدُقوا حينًا آخر، لكنّها المرّة الأولى التي ينعيه فيها أحد، وهو على قيد

الحياة.

- تأتي بتركي مَخبول يعلّق الحديدَ في أذنه، ليعلن موتي أمام الناس؟! هل هذا حقيقي أيها الفاسق العجوز؟ أخبرني فقط، هل هذا الساحر حقيقي، أم لعبة مِن ألاعيبك؟

كلمة الفاسق العجوز، التي صرخ بها رابح مديني في تلك اللحظة، لم تكن كلمة مزاحه العادية التي يستخدمها كلّما التقى عمبابا، ويتقبّلها الأخير ضاحكًا، وفاتحًا أحضانه لعناق الصديق، إنّها كلمة حقيقية خرجت من آخر حلقه، وتلقّاها عمبابا بلا مبالاة، وهو يعدل قميصَه الملون، ويثبت نظارة البؤس السوداء- ذات إطار الخرز الأحمر- على وجهه، ويتجوّل بنظراته في الناس المتجمّعين، والذاهبين إلى أشغالهم، آملًا ألّا تكون نجوميته قد انْخدشت.

- لست فاسقًا يا سيد.. أنا صاحب صنعة.. فنانٌ كبير.

أجاب في هدوءٍ صارم.

- ولست مَن أمَرَ التركي أن يعلن موتك.. إنه ساحرٌ قدَّمَ فقرة، وعليك تصديق أقواله أو رفضها، اذهبي إلى غرفتك يا زيابا..

كانت الفتاة الرشيقة، معشوقة الجماهير، ذات العينين الخضراوين، قد ظهرت في تلك اللحظة،

كانت مُحاطةً بمعجبين كُثر، رجال ناضجين، وشباب في عمرها، لا يهمّهم في الواقع، انشقاقها بالسيف، وتلملمها من جديد، ولكنْ ينتظرون تلك القُبل الساخنة التي تبعثها من فمٍ عسلي، وتزلزل بها قلوبَهم، ويتخيل كلّ فردٍ منهم أنّها وجّهَت له وحده، ولدرجة أنّ بعضهم كانوا يمصمصون شفاههم، ويبتلعون الريقَ في هيام. كانت تبتسم بليونة، وتضع طلاءً أحمر على أظفارها الطويلة، والتصقت برابح في ظهره، ولم يحسّ بها، أو بطعم جسدِها الرخو، روحه التي يجاهد في إبقائها حيّةً على جسده، هي ما كان يسيطر على مشاعره في تلك اللحظة، ولا بدّ أنّ تلك الأسرار التي كشفها الساحر أمام الناس، وكانت كلّها مخيفة وصادقة، هي ما كانت تزعزع كيانَه أكثر، وتدعم خبرَ موته المعلَن، إضافةً إلى إيمانه العميق جدًّا بقراءة المستقبل. يا الله، هل هذا حقيقي؟ هل سأموت فعلا؟ الآن هو منكسر جدًّا، وحائر جدًّا، وفكّر في منح عمبابا نصفَ ثروته لو طمْأنه بكلمة فقط، وثروته كلّها لو طمْأنه بكلمتين، لو قال فقط إنّها مجرّد مُزحة؛ لأنّ صوته حتى أصبح همسًا:

- يا عمبابا.. أخبرني فقط أنّها مُزحة، وسنذهب إلى بيتي كالعادة، توجد فواكه من كلّ لون، وببغاء إفريقي مسلّ، وزجاجة خمر فارهة أحضرتُها بالأمس، سنريقها معًا.. ويمكن أن نأتي بمغنّية خليعة مثل دفلة، أو حمامة، تطربنا حتى النهاية. هل تحب غناء حميدو دينق؟ سأحضره من أيّ ماخور يوجد فيه، سأحضره من جوبا، ونستمتع

معًا. هيّا يا صديق.. أحضر زيابا إنْ شئت، بيتي مفتوح لها.

- لا أستطيع أنْ أطمئنك يا رابح.. لا أستطيع، فلست مَن ألّف فقرةَ الساحر حتى أفنّدها، وأقولها لك صراحة، إنّ (ندمان قل) لا يمزح أبدًا.

قال عمبابا في جفاءٍ غريبٍ حيّر كلّ مَن شهد تلك الواقعة، ويعلم أهل مداري جميعُهم بعلاقة الودّ التي ربطت بين رابح وعمبابا منذ زمن طويل، وأمسك بيدِ زيابا، سار بها إلى بيوت السكنى المؤقتة، متبخترًا، تاركًا صديقه القديم متأرجحًا، واضطرّ أنْ يستند إلى كتف آدم مطر حتى لا يسقط، والأخير يحاول طمأنته بأنها مجرّد خطرفاتٍ لا يجب أن ينساق خلفها، بينما هو متوجّس أكثرَ منه. وفي طريقه إلى بيته، وهو يقود عربته الجيب، كان يدقّق في الشوارع بحثًا عن ذكريات قديمة، يدقّق في لحاءِ الأشجار بحثًا عن قلوب وسهام، ربما نحتها ذات يوم، ردّ على تحايا المارة بلا مرح، وعرج على حي لادولادو، توقّف أمام بيت العجوز الصباح، أراد أن يطرق الباب، ثمّ تذكر فجأةً أنّ الصباح قد ماتتْ منذ عامين، وجدوها جثةً متحلّلة، ماتت بفعل الشيخوخة والمرض، وهو مَن تكفّل بمصاريف كفَنِها الأبيض، وفاءً لامرأة لم يستفدْ أبدًا من خدماتها.

في بيته، عرج على خزانةٍ قديمة متربة، استخرج منها كتابًا أصفر بلا غلافٍ، تركته زوجته الأخيرة التي كانت تعمل مدرسةً في المدرسة الابتدائية

الوحيدة، في هرجلة خروجها القسري من المنزل، ساعة أن تطلّقت. كان اسم الكتاب "خروج الروح من البدن" وكان قد قلَّب صفحاتِه فيما مضى، وفرّ منها باعتباره حيًّا قويًّا، لم يحنْ وقت خروج روحِه بعد، والآن يحسّ بالضعف، يلهثُ بين صفحات الكتاب، وتبدو له روحه لاهثةً أيضًا، ليس في طريقها إلى السكينة، ولكنْ إلى العذاب.

حين وصل آدم مطر- صاحب مطعم بابايا- إلى بيت رابح لتفقده، لم يسمع جوابًا على ندائه، ولا فتح أحدٌ الباب، بعد أن انصرفت الخادمة سوارة، واضطرّ أن يتسلّق حائط البيت بكلّ عوائقه من زجاج جارح، وحصى مدبّب، وليعثرَ على صديقه راقدًا على أرض الصالة، غارقًا في العرق، وينتقل بيده إلى كلّ شبرٍ من جسده.. وهو يئنّ، هنا.. هنا.. هناك.

- ماذا بك يا رابح؟!

كان يصرخ، ويلهث.

- سأموت يا آدم.. سأموت.

أخذه على عَجَل، وانطلق به إلى مستشفى مداري، الذي يعدّ واحدًا من أفقر المستشفيات في العالم، وأكثرها بؤسًا وانعدامًا لوسائل العلاج.

***

-٤-

- إنها تداعياتُ الوهم.. هل يعرف أحدُكم ماذا تعني تداعيات الوهم؟ لستَ مريضًا يا معلم رابح، لم أعثرْ في جسدك على شيء.

كان الدكتور إيزايا جون، الطبيب الوحيد بمستشفى البلدة الصغير، الذي أنشئ أيّام الاستعمار كخدمةٍ ضرورية لتلك الأصقاع؛ مشغولًا بشدّة في ذلك اليوم، كان يجرى عمليةَ إزالة الزائدة الدودية للسيدة مارجريتا طوسون، التي تعمل ضمْن طاقم أوروبي في مجال الإغاثة، قدّم للبلاد للمساعدة الإنسانية بعد نهاية الحرب الأهلية، ويقيمون في معسكرٍ كبير، ومجهّز خارج البلدة، يتحرّكون منه بعرباتٍ نشطة سريعة، ويوزّعون أجولةَ الدقيق واللبن، وعصائد الفيتامينات التي تقضي على سوءِ التغذية لدى الأطفال. كانت موظفةُ الإغاثة قد شكتْ من مغصٍ في جانب بطنها الأيمن في الليل، مصحوبٍ برغبة في القيء، ظنّته في البداية من أثر عصيدةِ الفيتريت المحلية، التي قدّمتها لها امرأةٌ من أهل الجنوب، ولم تتذوّقها من قبل، وظلّت تتلوّى طوال الليل، آملةً أن يزول المغص. وفي الصباح، حين ساءت حالتها، حملها زملاؤها إلى المستشفى لينشغل بها الدكتور إيزايا طوالَ النهار وحتى أول المساء، يشخّص مغصَها المباغت بإمكاناته المحدودة؛ التهابًا حادًّا في الزائدة الدودية يحتاج إلى عمليةٍ جراحية يجب

أن تجرَى في نفس اليوم، سيجريها بمساعدة طاقمه المتواضع، وتضيع منه فرصة حضور افتتاح سيرك عمبابا، الذي كان من روّاده فيما مضى، يحضره بصحبة زوجته وأبنائه الصغار. كان من أبناء قبيلة الدينكا، كبرى قبائل الإقليم الجنوبي، وقد درس الطبّ في مصر بمنحةٍ دراسية من الدولة، وعاد ليتدرّب عدّة سنوات في العاصمة قبل أن يعود إلى مداري، بلدته التي أراد أن يقدّم لها خدماته برغم شحّ الموارد، وفقرِ المستشفى، واعتمادِه على المساعدات الإنسانية التي تقدَّم مِن دول الجوار. أخبروه بأمْر رابح، وهو يخيط غرزته الأخيرة على جلد الأوروبية الصّلدة، التي رقدت على طاولة الجراحة بلا وجل، وتقبّلت أن تجرى لها عملية تشقّ فيها البطنُ بلا إمكانات، وخرج مسرعًا، بعد أن بدّل لباسه الجراحي، ليشاهد تاجرَ الحدود الشهير على سرير الفحص في مكتبه، راقدًا متألمًا، يحرّك يديه الاثنتين بلا توقّف، يضعهما مرّة على رأسه الأشيب غزير الشعر، ومرّة على صدره، ومرّة على بطنه الذي احتفظ به- دائمًا- مشدودًا بلا نتوءات، وكان يمارس رياضة الركض- كلّما استطاع- في ميدان التنس الموجود في حي درب المأمور حيث يسكن، والذي خلّفه الإنجليز بعد خروجهم أملسَ وناعمًا، وحوّله الزمنُ إلى حفرة من حفر العالم الثالث، كلّها وسخ وفضلات. لم يكنْ رابح من زبائن المستشفى المعروفين فيما مضى، لا مريضًا ولا حتى زائرًا عاديًّا لمريض يرقدُ في عنابره الصغيرة المكتظة، وقد أعلن مرارًا بأنه لا يحبّ هواء المستشفيات الممزوج برائحة المطهّر، والحمى، ولن يرقد تحت

يدي طبيب إلّا مُضطرًا، والآن هو مضطرّ بالفعل، وسيرقد تحت يدي الطبيب.

فحصَه الدكتور إيزايا بتأنٍّ، دقّ على صدره وبطنه، وأماكن الوجع كلّها، واستمع إلى همسِها بسماعته الطبية، بحثَ عن انتفاخ ربما يوجد في الكبد، ولم يجدْه، عن نزيف في الطحال ولم يجدْه، تأكّد من الكلى والمثانة، والاثنى عشر، وضغط الدم، ومرض السكر الذي يمكن أن يكون رابضًا في جسد واحد قد بلغ الخامسة والستين، وفي مختبر محدود الإمكانات، يعمل فيه فني من أبناء الجنوب أجرى له تحليلًا طارئًا بحثًا عن تمرّد دموي، أو نقص في مناعة الجسد، أو ترسّبات في الكلى، وكانت النتيجة سلبية تمامًا، نتيجةَ شابٍّ ما يزال في عمر الزّهرة المتفتحة، وتوصّل إلى قراره، بأنْ لا شيء في ذلك الجسد المتأوّه.

في تلك الأثناء، كان آدم قد خرج عن صمته، حكى للطبيب بإيجازٍ قصةَ الساحر (ندمان قل)، التركي الذي كشف الغطاء عن حكايات بعيدة، حدثت في البلدة، وامَّحت آثارُها، وكان رابح مديني هو الوحيد الذي صرّح الساحر علانيةً بموته، وأخبره أن يرقدَ بسلام.

- هذا هو مربط الفرس.

تحدّث الطبيب، وقد انشغلت شفتاه بابتسامة أهل الجنوب البيضاء، لقد قضى في المهنة أكثرَ مِن عشر سنوات، صادفَ مذبوحين، وممزّقين

بالألغام، وذوي عاهاتٍ أحدثتها الحروب، مرضى حقيقيّين، ومرضى بلا مرض، يعشقون المرض، ويعرف واحدةً بالذات من أهل الشمال، اسمها عاقبة، كانت وما تزال تزورُه في اليوم الواحد أكثرَ من ثلاث مرّات، وقد اخترعت أمراضًا لم تُذكر في أيّ كتابٍ طبي من تلك الكتب التي حفظها، وحيّرته، كما حيّرت مختصّين أرسلها إليهم في مدينة جوبا، خاصّة مرض سمّته (الدفش)، وكانت أعراضه- كما تصفها- ألمًا حادًّا في رموش عينيها، وصفيرًا متقطعًا، يخرج من قدميها حين تمشي.

- انهضْ يا رابح، واذهب إلى عملك.. أكرّر.. أنت في صحة أحسن من صحتي.

- كيف ينهض ويمضي، الرجل يصرخ من الآلام.. ألا تحسّ؟

خروج آدم مطر من صمتِه هذه المرّة، كان أعنف لأنّه ضرب بقدمه دلوًا من الصفيح مطليًّا بالأبيض، كان يستخدم في حفظ الشاش الملوّث والأربطة المُستهلكة، وبعثر محتوياتِه على الأرض، أعنف لأنّه شدّ ربطة عنق الطبيب الحمراء، مُتناسلة الخيوط، وما كان أحدٌ يستخدم ربطة عنقِ غيره في البلدة، وأعنف جدًّا لأنّه خاضَ في سيرةٍ علميّة لا يعرفها، واصفًا شهادة الدكتور إيزايا، التي جاء بها من جامعة عين شمس العريقة، في مصر، بأنها شهادة عتّال، حصل عليها من سوق المَردة الشعبي في مدينة جوبا.. وإنه يعرف أطباءَ حقيقيّين في نيروبي، وكمبالا، ما كانوا

ليأمروا مريضًا متأوّهًا، بأن يذهب إلى عمله، وقد شاهدهم يهتمّون حتى بالذين يشْكون من لسعة الشاي على ألسنتهم التي ليست مرضًا على الإطلاق.

- سآخذه إلى جوبا.. إلى نيروبي.. إلى أيّ مكان.

كان يصيح، وقدماه تطاردان الأوساخَ التي بعثرها مِن إناء الصفيح، من مكان إلى مكانٍ داخل الغرفة.

لم يغضبِ الطبيب أبدًا، ولا تحسّس ربطة عنقه التي شوّهها الجذب، وأيضًا مِن ضروريات المهنة التي تعلّمها أيّام تدريبه الطويل في العاصمة، أن يملك صبرًا بطول نهر النيل، واتساع رقعة القحط في صحراء (واوا)، وردود الأفعال تلك، الراضية والساخطة، والعنيفة، والتي تستلّ سكينًا أحيانًا، وتحاول غرسها في الجسد، تعوّدها، خاصّة في ذلك المجتمع الضيق، القبلي، المحدود الأفق، ويذكر مُمرضًا من أبناء الشمال كان يعمل مِن قبْل في المستشفى، مات بلا معنى لأنّ الكهرباء انقطعت فجأة، وهو خلف الستار، يحقن مريضة تتألم، وظنّها الزوج المنتظر في نفس الحجرة على بعد عدّة ياردات، مؤامرة لانتهاك عرضِه في الظلام، واستلّ سكينة، وأخبره الجراح الذي درّبه في العاصمة، حين عرف بعزمه العودة والعمل في مداري، أنّ المدن البعيدة، جامعات أشدّ عراقةً من جامعات العلم التي بها مدرّسون يحملون شهادةَ الدكتوراه، توجد مادة اسمها علم برودة

الأعصاب لا تدرس إلّا في تلك المدن.

- لا تغضبْ يا مطر، الأمرُ لا يحتاج إلى جوبا، أو نيروبي، سنحقنه بمادّة مهدّئة، وينام.. اجلس أرجوك.

قدّم له مقعدًا من الجلدِ بأربع عجلات، دحرجه من خلف مكتبه، وشدّ المقعد الآخر الذي يجلس عليه المرضى عادة، وكان أقلّ راحة ليجلس هو عليه. أحسّ آدم بأنه تجاوز الحدود في ردّة فعله، لكنه لم يعتذر، وجلس على طرف المقعد الجلدي، وعيناه تتابعان الممرضة المسنّة سامتا، التي تنحدر من إحدى القبائل الجنوبية، وتعمل هنا منذ افتتاح المستشفى، وأصبحت من كثرة احتكاكها بالمرض، مرضًا هي الأخرى، وهي تلتقط حقنة معدنية من إناء يغلي على النار، تملؤها بسائلٍ أصفرَ معكّر، أخرجته من زجاجة صغيرة كانت موضوعةً على أحد الرفوف، وتتّجه بها إلى حيث يرقد صديقه. ولا بدّ أنّها حقنتها في جسده بعد أنْ أغلقت الستار لأنه سمع أنّةً أقوى من تلك الأنات التي جاءت ترافقه من البيت.

- هل سآخذه إلى بيته الآن؟

كان آدم يسأل، وتبدو له الأشياء عصيّةً على الفهم، ساحر يأتي ليومٍ واحد في سيرك اعتادَ الحضور في كلّ عام، يلدغه ويلدغ آخرين، وتأتي لدغته لرابح مديني أشدّ فتكًا من أي لدغة، ورجل ضئيل اسمه عمبابا، يعرفه كما يعرفه رابح، لكنّ

العلاقة بينهما لم تتطوّر أبدًا، ظلّت علاقة معرفة لا أقلّ ولا أكثر، هو آدم لم يكنْ من ضحايا سوق البردعة القديم، لا نظّف دوابًا، ولا قلَّمَ أظفارها، نجح في زواجه، وأنجب عيالًا، وورث مطعم بابايا من أبيه، وكان أوّلَ مطعم حقيقي يُنشأ بالبلدة منذ زمن بعيد، طوّره بجهود ثلاثين عامًا من العمل الشّاق، وزوّده بمقاعد وطاولات خشبية قوية، وطهاة يطبخون أصنافًا مَعروفة، وغير معروفة، ولكلّ الأذواق، والآن يفخر بأنه يملكه. كان يعرف أنّ رابح برغم قوّته ونشاطه، وإصراره على السفر إلى دول الجوار، برغم صعوبةِ الطرق، وأنّها كانت خطرةً وممتلئة بالعصابات، ومسلحي الجيوش المتمرّدة قبل اتّفاق الوحدة الوطنية، إلّا أنّه من الذين ينكسرون سريعًا أمام الخرافات، يصدّقون أوراق البخت، وينفقون أوقاتٍ طويلةً أمام العرّافات وقارئي المستقبل، وهو مِن الذين حذّروه من العجوز الصباح، ولم يكن يستمع. رابح صيدٌ ثمين لأولئك، والآن سقط من أوّل طلقةٍ فارغة وجّهت له. لم يكنْ آدم واثقًا من أنّها طلقة فارغة، لكنه يتمنّى لو كانت كذلك.

تردّد الطبيب قليلًا، ثمّ ردّ:

- لا بأس.. سنتركُه عندنا في المستشفى، حتى نتأكّد من شفائه.. لا تنشغل.

ثمّ التفتَ إلى الممرضة المسنّة، طلب منها نقل التاجر الحدودي إلى غرفة نظيفة داخل المستشفى، كان واثقًا أنها لن تعثرَ عليها، فلا

غرف مبجّلة في مستشفى هو أيضًا من ذكريات الإنجليز التي تركوها، وساهم الزمن المرّ في إبقائها ذكريات غير قابلةٍ لإدراجها من ضمْن الحاضر المزدهر. حُمل المريض على محفّة من القماش، وكان ساكنًا، تتحرّك عيناه بلا توقّف، وتخب منهما الدموع، وتبعه آدم مطر حتى استقرّ على سرير حديدي، مفروش بملاءة بيضاء، في غرفةٍ بها اثنان آخران، كانت ساق أحدهما مغلفةً بالجبس، ومربوطةً إلى ثقل حديدي، ثمّ خرج من المستشفى، ويفكّر في تلك المحنة الجديدة التي لم تكنْ تخطر على باله قط، وهو جالس يتفرّج على ألاعيب سيرك روتيني شاهده من قِبَل عشرات المرّات، ويأتيه بدافع تغيير نمطِ الحياة. دفنوا عفراء منذ زمن بعيد، والتركي أيقظ ما حوَته التربة. وعمبابا الخبيث، هل له دورٌ حقيقي في هذه المأساة؟ لم يكنْ واثقًا، لكنّ الأمور تتكشف غدًا.

خارج المستشفى، كان الليل قد هيْمن بجدارة، وكهرباء البلدة الشحيحة، تضيء قليلًا من نَزَف الليل، لكنّها لا تفلح في إيقاف النزف كاملًا. كان العشراتُ من أهل البلدة قد تجمّعوا، كأنّ مكبّرًا للصوت طاف عليهم في مخابئهم، وحمّسهم للتجمّع. سألوه عن المعلم رابح، وكانت أسئلة مشروعة في حقّ رجل تعرفه البلدة كلّها، وما جاورها من القرى والأرياف والأودية، والخيران الضّحلة، هو بخير.. كان يردّد.. هو بخير، مجرّد إرهاق. لم يذكرْ مسألة الوهم بالطبع، ويعرف تمامًا أنّ المُمرضة سامتا المسنّة- التي أطلعَتْ

أهلَ البلدة من قبْل على عورات ما كانوا سيعرفونها لولاها، بما في ذلك ألبسة النّساء الداخلية، وألوان الهَلع في وجوه رجالٍ معروفين بالشدّة- لن تدخر وهم رابح حتى تنتهي مناوبتُها. غدًا على الأرجح، سيعرف أهلُ البلدة كلهم أنّ تاجرَ الحدود المتمرّس قد صدّق ما قاله الساحر التركي، وانهزم، لكن لا يهمّ، فلم يكنْ رابح مديني طوالَ حياته غير كتابٍ مقروء، هو يقرأه بنفسه، ولا يحتاج سامتا أو غيرها لقراءته، وإنْ شفي، ونجا من هذه الوعكة؛ سيضيف تفاصيلَ كثيرة قد لا تكون خطرتْ بذهن الممرضة المسنّة نفسها. من مكانه وسط الناس، كان آدم مطر يستطيع أن يشاهدَ شاحنة عمبابا، بلا مقطورة، تتوقّف على مَقربة، وعمبابا يترجّل منها، يرتدي ملابس إفرنجية؛ سروالًا أزرق، وقميصًا ورديًّا، ويحمل في يدِه زهرة، والفتاة زيابا تخرج من الطرف الآخر، تمشي بدلع، ليلمحَها المتجمعون، ويهرولون ناحيتها.

***

-٥-

لا بدّ أنّ رضيانة الخضر- بائعة الشاي، أمّ الجريح- التي حطّمها الآن مرضُ تليّف النخاع الشوكي، وهي في التاسعة والخمسين، وترقد في أحدِ عنابر مستشفى جوبا الشعبي انتظارًا للخلاص، قد قضتْ وقتًا أطول ممّا ينبغي، حتى تبدّت لها الحقيقة، أن تعرفَ بالضبط، وبلا أي مجال لشكٍّ جديد؛ مَن هو والدُ ذلك الابن، حارس السجن الذي كبر عندها، من بين رجُليْن عزَبَدا في ماضيها، ولم تسمعْ عنهما شيئًا بعد ذلك أبدًا.

كم كانَ ذلك الوقت؟ عامًا، عامين، عشرة، عشرين؟ لا تعرف بالضبط، وما كان للزمن أبدًا معنى، أو دثارٌ مقدّس تدلقه على حياتها البائسة، وسمعت مرّة موظفًا حكوميًّا، في مجلس مدينة جوبا المحلي يتحدّث عن وقت الفقراء، واصفًا إيّاه بابْن الكلب، وحين سألته عن معنى تلك الصفة، غير اللائقة، قال: كلاهما لا يعني شيئًا لأي شيء.

حين غوتْ رجليْن صديقين، في سوقٍ قذر، أو بادراها الغواية، لا تذكر الآن بوضوح، وقضتْ معهما ليالي عهْرٍ طويلة، وبائسة في كوخٍ مهجور، تتصارع بقرْبه الضواري، كانت زهرة، والزهرة تغوي، إن زُيّنت لها سكّة الغواية. وحين حملت بالجريح، ووضعته على نفس السرير، وفي ذات الكوخ المهجور، واجهتها معضلةٌ أنّها من

قبيلةٍ عربية، والقبائل العربية شرهةٌ للدّم منذ القدم، ولن تُترك خاطئةٌ مهْما كانت معزّتها لدى الناس، حرّة ترضع، وتربي، وتتسكّع في بيوت الجيران، وتتسوّق من السوق، وتطبخ وتكنس، ولا كان سيُترك صغيرها، مهْما اعتذرت براءته، صغيرًا عاديًّا، يتهته بلسانِ البداية، ويزحف على الأرض، ويتعثّر، ويكبر مشاكسًا في الأزقّة، ولاعبًا لكرةِ القدم الصبيانية، وربّما مراهقًا يتبادل القُبَل والرسائل خلسةً مع الفتيات، أسوةً بآخرين وُلدوا في الضوء، وتعرف عشراتِ الفتيات مِن سنّها وسنٍّ أصغر وأكبر، قد ضِغْن من مجرّد شكوك، وليس بوجود ثمرةٍ حقيقية، تشهد على عُمق الخطيئة. تلك الأيام خافت بشدّة، حملت سنّها الغضّة، وطفلها ذا اليومين، الذي ما يزال يعلّم رئتيه التنفّس، وفرّت إلى جوبا راكبةً على ظهر عربةٍ استعمارية، كان وجودُها في ذلك الزمن نادرًا جدًّا، وتهيمنُ الدواب على المواصَلات بالكامل. كانت العربةُ تقلّ عائلة لأحد المسئولين الإنجليز في طريقِها إلى العاصمة، ومنْها إلى إنجلترا لقضاء عطلة الصيف. حملوها إلى جوبا، ليس رغبةً في فعلٍ إنساني صريح وطوْعي، ولكنْ إذعانًا لتوسّلاتها الباكية، وسترًا لتلك القطرات المتّصلة من دمِ الولادة، التي كانت تفرّ من تحتِ ساقيها، وترسم مأساةً على الأرض. كانوا يقولون في سوق البردعة القديم، إنّ الشاي الذي تصنعه رضيانة الخضر، وتضيف إليه توابل ومنكّهات عديدة لا يعرفها أحد، سيمجّد تلك الفتاة العذبة، التي مِن قبيلة الزهويّين، ويجعلها ملكةً ذات يوم، كوبُ شاي من عندها، مثل كوبين أو ثلاثة

من الأخْريات، ولم يتكهّن أحدٌ قط بتشرّد قادمٍ لا محالة. قالت في يوم الولادة، إنّ طفلَها له نفسُ الصوت المجروح الذي يخرج من حلق عمبابا، ورائحة ثمرةِ المانجو المتخثرة، التي طالما شمّتها على جسد رابح مديني، وبدأت معركةٌ جديدة مع الحياة في مدينة كبيرة، ومكتظّة نسبيًّا، ولا يوجد فيها قبلي واحد، يسندها إذا احتاجت لإسنادٍ، أو يعتبرها آثمة، فيخرج مدْيَته، ويذبحها. كانت في البداية وجلةً، وتخفت في جوفِ أحد المشاريع الزراعية التي أنشئت في أطراف جوبا، واختصّت بزراعة البن، والذرة، والقطن التجاري الذي يتمّ تصديرُه لدول الجوار. مسئولو تلك المشاريع كانوا إنجليزًا متغطّرسين، نساؤهم نظيفات، وبيوتهم مرتّبة، ولن يهدروا متعةً أو مشقة غالية، في بائسة مثلِها، وظّفوها عاملةً فقط، ونبهوها مرارًا إلى رغبات طفلها غير المقبولة حاضرًا ومستقبلًا من طفلٍ بلا أب، ومن أم تنتمي للطبقة الفقيرة، وقد كان الجريح، صريحًا جدًّا في رغباته، يزحف حتى بيوتهم المُلحقة بالمشاريع، والمغطّاة النوافذ بنمليّات تُدخل الهواء، وتمنع دخولَ حشرات المرض المقيمة بصفةٍ دائمة في تلك الأنحاء. يستدلّ على لعب الأطفال الغريبة الشّكل، والمُصنعة خارج البلاد، بحاسّة لم تبدُ عشوائية أبدًا، ولكن حاسّة ذات أضراسٍ وأنياب، ويتأرجح في أراجيح من بلاستيك الغرب الملوّن، لا تشبه جسدَه الملوّث بالطين، ولا عينيه اللّتين خرّبهُما الرّمدُ الصديدي، وحوّلهما إلى عينيْ فأر. نبّهوها إلى عورته المكشوفة دائمًا، يتجمْهر حولها الذباب، وحبّه للنبق الهندي الذي لا ينمو عشوائيًّا

مثل أيّ نبقٍ شوارعي صعلوك، ولكن يُغرَس بفنّ، ويرْوَى بفنّ، في أراضٍ مسوّرة، وبإشراف علماءٍ في التربة. كانت رضيانة تقيمُ في واحدٍ من أكواخ القصب، في وسط المزارع، يتيح لها أنْ تمارس عادة الفقر في أشْنع صورها، أنْ تطبخ عصائد الفيتريت المُرّة، وعظام البقر التي بلا لحم، والجراد الذي يغزو المزارع أحيانًا؛ على نارِ القشّ السّلحفائية، أن تتجرّد من أنوثتها تمامًا، بتركها للكحل ومرطّبات الوجه، وحتى أمشاط الشعر، والفرش المدلّكة لفرْوة الرأس، التي تستهلك إيرادها القليل، وأن تنخرط في مساءات السّمر التي يقيمها زملاؤها في الأكواخ، بلا ضجيج، ولا مرحٍ حقيقي، يلعبون لعبة التخفي، أو يقرؤون البَخْت، مستخدمين الحجارة، وعيدانَ الذرة. كانت تشارك بابتسامةٍ مرهقة، وبالشاي الذي لم تنسَ أبدًا أنها كانت ملكتُه في سوق البردعة القديم.

في أحدِ الأيام، مشى الجريح- وكان قد تعلّم المشي حديثًا- حتى أحد بيوت الإنجليز، تسلّل إلى البيت خلسة، أكل من دجاجٍ مطبوخ بحنكة، وجبن من ماركة (جيروم)، استغرق وقتًا طويلًا حتى تأقلم مع طعمه الفاخر، وشرب عدّة جَرعات من زجاجة كان فيها ماءٌ أحمر، وكان في الحقيقة نبيذًا متروكًا على إحدى الطاولات. وفي النهاية استولى على فستان مطرّز، أخضر اللون، وحمالة صدرٍ سوداء، ذات إثارة بلا حدود، جاء يجرّهما إلى أمّه في كوخها، وهو يترنّح من السُّكْر. كانت رضيانة في ذلك الوقت غافيةً، تتلاعب في حلمها أمنياتٌ أوصلتها إحداها إلى بيتٍ مريح، وحياة

رغدة، بعيدًا عن ذلك الكوخ الفقير، وأيقظها الجريح، حين حاول إلباسَها الحصاد الثري الذي جلبه من بيتِ الإنجليز، كان يحاول إدخالَ القميص من قدميها، وألبسها حمالة الثدي المُثيرة في إحدى ركبتيْها العاريتين بفعل تشتّت النّوم. كانت مشكلة حقيقية لها، ولاستقرارها في تلك البقعة البعيدة عن نظر القبائل، حتى لو كان استقرار جوع وعطش، ومذلة. مشكلة طفلٍ سكران، ومختلس، وسارق للخُصوصيات، أعقبتها إهاناتٌ عظيمة وجّهت للأم، واتهامات أخرى من عددٍ من بيوت الجوار بسرقة ألبسةٍ داخلية رطبة، وفرش أسنان من ماركات معروفة، مشابك للشعر، وعطور غالية من تلك التي ترشّها النساء على صدورهنّ، وهنّ يتهيّأن للقاءاتِ الحميمة. كان الجريح بريئًا من تلك التُّهم، ولم يعثرْ أحدٌ في الكوخ على غنيمةٍ ذات جدوى، وعثروا على القمل والنمل، والصدأ الذي يزحفُ على أدوات الطبخ المقشرة. طردوا رضيانة وابنها من مشروع الزّراعة، برغم كلّ ما قدّمته، وأنها هي مَن أتثْ بسرقات الجريح طواعيةً إلى البيت الإنجليزي، حين اكتشفتها، وخرجت مرّة أخرى إلى الطريق، كانت تواسي نفسها، تردّد وهي تبكي، أنّ شاي رضيانة القديم، هو السّندُ الذي ستستند عليه، هو الرجلُ الحنون الذي سيحنّ عليها، والقلب النّابض الذي سيشارك قلبها النبض، ستعود إلى صنعة الشاي مرّة أخرى متى ما استطاعت تدبيرَ أدواتها، وستكسب، وتربي الجريح سالمان، الذي نسبته إلى رجلٍ وهْمي، تربيةً صحيحة.

كان يتردّد على المشروع الذي كانت تعمل فيه، رجلٌ من أبناء الجنوب، في حوالي الثالثة والعشرين من عمره، متعلّمٌ في صفوف الإرساليات المسيحية، ومتأنّق في حدود إمكاناته، ويشغل وظيفةَ مساعدِ مشرف، غير مقيمٍ في المنطقة، ولكن يأتي عدّة أيام في الشهر، يقيِّم فيها العملَ، ويسجّل ملاحظات دقيقة، وبخطٍّ واضح على دفتر أسود كبير، كان يحمله دائمًا. كان اسمه تايلور، وينطقه العمال- بمَن فيهم رضيانة- تيلا، تقريبًا للاسم بربطه بالقطن طويل التيلة، الذي كان من ضمن زراعات تلك المشاريع. منذ الأيام الأولى، رأتْ في عيني مساعد المشرف، نظرةَ اعتبار خاصّة، كأنه قيّمها في دفتره، وكتب في حقّها تقريرًا مجيدًا، أو لعلّ تلك الزينة القصديرية المدّلاة على صدْرها، والتي لا تملك غيرها، قد أعجبته؛ لأنّه يطيل إليها النظر كثيرًا. لم يسأل عن والد الجريح قطّ، كما سأل العشرات غيره من زملاء العمل، ساكني الأكواخ، ولا اهتمّ كثيرًا بوجود فتاةٍ من قبيلة الزهويّين، لها وجهُ ظبيّ ناعم، ويدَا حدادٍ خشن في وسط تلك البؤرة التي لم يعملْ فيها العرب أبدًا من قبل. كانوا أصحابَ تجارة، وأصحاب رزقٍ واسع، يعرفون كيف يوسعونه كلّما ضاق. كان مساعدُ المشرف- برغم صغر سنّه- مطّلعًا على أحوال الحياة، بشكلٍ لا يصدق، واخترع بنفسه خططًا في غاية السوء، استخدمها مرارًا، حتى لا تفوته شاردةٌ أو واردة، كان يرتاد المواخيرَ الموحلة في المدينة، يفاوض نساءَ الهوى عنْ أسعارهنّ، ما أجرُ ساعة؟ ما أجرُ ساعتين؟ ما أجرُ ليلة كاملة أقضيها غارقًا في العِناق؟ ويفرّ

في لحظة اقتراب الفعل، يرتاد الأسواق التي خصّصت للصفوة، والتي خصّصت للشعب، ينهب السلع ويعيدها في نفس اليوم، ويسجّل بدقّة تشوّه اللص ساعة أن يسرق، وشارك متخفّيًا في انتفاضة الحفاة التي نظّمها ذات يوم عشراتُ الجنوبيّين المتذمّرين، ورفعوا فيها شعارات تقول: لا للعنصرية، لا لحصان الخواجة وسوطه.. لا لفقرنا الدائم.. لا لقوانين تكْبيل الفم. وحين أوشك أن يفقد وظيفته بعد أنْ تسلّق مرّة حائطَ البيت الذي يسكنه حاكمُ الإقليم، بغرض التعرف بدقّة على شعور مختلسي النظر إلى بيوت الصفوة، أقلع، وكان قد وصل إلى حدّ ألّا يهتمّ كلية بماضٍ مثل ماضي رضيانة الخضر، لم تكشفه أمامه، لكنه يكادُ يعرفه كاملًا.

في تردّده المتقطّع على المزرعة، استجاب تايلور مرّة لنزوةٍ أمرَهُ قلبُه الخالي من أيّ طعم أنْ يستجيب لها، أنْ يحب تلك الزهوية، وأنْ يصارحها بحبّه، ويتزوّجها، ويصبح والدًا غير مطابق تمامًا لذلك الولد الذي تشكو منه بيوتُ المسئولين باستمرار، كتب على صفحةٍ بيضاء في دفتره الكبير، عبارات أرادَ منها أن تهديه أو تضلّله، كتب: رجل جنوبي أمام فتاةٍ عربية.. أسود أمام أبيض، مستقيمٌ أمام خاطئة، ومحا تلك العبارات بنفس السرعة التي كتبها بها. كان من السهل عليه في ذلك الوقت أن يحبّ ويتزوّج فكتوريا الأم، ملكة بريطانيا، أو المقاومة جان دارك، بطلة حرب المائة عام بين بريطانيا وفرنسا، لو خرجت من كتب التاريخ، وعاشت في جوبا، ولن تقبل به

رضيانة الخضر بكلّ دماملها، وماضيها المتّسخ، وفقرها الذي كان أكثرَ كثيرًا من فقره.. لا يمكن. هنا تحوّل تايلور، أو تيلا، بعد جهود يومين من الأرق إلى صديقٍ كاملٍ للفتاة وابنها، الصديق الذي يهديك سرواله لو وجدك عاريًا، ملحفةً صوف دافئة لو ارتعشت أمامه من البرد، ودموعَه الحارة لو احتجت إلى البكاء، وضنّتْ عيناك بالدموع، ولم يكن تايلور- مع الأسف- رجلًا نافذًا أو صاحبَ كلمة تبقيها في بؤرة التخفّي تلك، بعد أنْ طردت، ولا كان سوى مساعد مشرفٍ فقير هو الآخر، يسكن في كوخٍ مشابه، داخل أحد أحياء المدينة العشوائية يحصل على أجره شهرًا، ولا يحصل عليه عدّة شهور.

لم يكن اليوم الذي طردت فيه من أيام زيارات تايلور المعتادة، لم تسمع حماره ينهق معلنًا قدومه، أو شتّت حذاؤه البالي طينَ الحقول، كما يفعل في كلّ مرّة، لكنّها وجدته أمامها فجأة، يرتدي قميصًا أبيض بجيبين في كمّيْه، ونصف بنطلون كاكي، ويحمل في إحدى يديه قدحًا من الفخار، به عصيدة دخن حارّة، قدامها للجريح الذي لم يحسّ بحرارتها، والتهمها كاملة، وما يزال يتصاعد منها البخار، ولا شكّ أنّ بقايا سكره بقطرات النبيذ، ما زالت تعربد في رأسه.

- ماذا حدث يا رضيانة؟ لماذا أنتِ راحلة؟

سألها، وقد لاحظ لفّة الثياب القذرة التي تحملها على رأسها، وأنّها متعجّلة، وتصرخ في

الولد أنْ يسرع.

- طردوني يا تيلا.

- طردوك!! كيف؟

ومِن بين دموعها، ومخاطِ الأنف الذي يرافق البكاء دائمًا، حكتْ له آخرَ كارثة ابتكرها الجريح، ابن الحرام، الذي فرّت بسببه من بلدها، وانقطعت من شجرة، والآن لا تعرف إلى أين تذهب. لن أرتاح حتى يموت هذا الولد.. تردّد وهي تحتضن الطفل، وتمرّر يدها على شعره المنكوش، وقلبها يهمس: ألف بعد الشّر عنه.

رافقها مساعدُ المشرف حتى بوابة المزرعة، انتظروا طويلًا في ذلك المكان النائي حتى عثروا على عربةٍ يجرّها حمارٌ ناهق، وكانت محملة بالقش، جلسوا على ظهرها، ومضوا بها إلى جوبا، ورضيانة في غاية القلق من صياح الجريح المتواصل بعد أن قرصته نملةٌ في فخذه، وأخفق نفخ الهواء- الذي كان يقوم به تايلور من حلقه القوي- في إطفاء حرارة اللّسعة، وفي جوبا أخذها تايلور مباشرةً إلى حيّه العشوائي، حي مطرة جوبا، تحدّث طويلًا إلى عددٍ من عمال البناء المتبطلين، من معارفه، وكانوا معروفين بتشييد البيوت من الخيش والصفيح والقشّ، حتى نجح في إقناعهم بمساعدة تلك الأرملة، وقصد إلى رجلٍ قوي من صعاليك العرب، اسمه رملي، كان يسكن في البيت الوحيد المشيّد من الطين،

ويحكم الحي بشراسة، ويحترم تايلور إلى حدّ ما، أخذ منه عهدًا ألّا يتحرّش بها أحدٌ من رجاله، أو غير رجاله، وأنْ تترَك هكذا في حالها، حتى تتدبّر أمورها.

لم يقصّرْ تايلور في شيء.. لم يقصّر أبدًا.

تردّد رضيانة في السّر والعلانية لمعارفَ اكتسبتْهُم بعد أن سكنتْ مطرة جوبا، واستعادت مهارتَها في صناعة الشاي، أو آخرين زاملوها أيام سكنى الأكواخ في المزرعة، وابتدئوا يزورونَها من حينٍ لآخر، وحتى للطبيب الذي يتابع الآن موت خلايا النخاع في جسدها، ويضطر أن ينخفض بأذنه، يلصقها على فمِها، الذي ما عاد فيه لسانٌ يتحرّك؛ ليسمع:

لم يقصّرْ تايلور.. تيلا إنسانٌ كبير.

في ذلك الحي، حي مطرة جوبا، علَّمت رضيانة جسدَها الذي كان ما يزال طريًّا، وناعمًا برغم سنتي الجوع اللّتين قضتهما في مزارع الإنجليز؛ شيئيْن مهمّين: أولًا: أن يذبل تمامًا، حتى لا يعيدها غاوية في حيٍّ كلّه رجال ينتظرون أسنانَ الغواية حتى يغرسونها في شهواتهم، وثانيًا: أنْ يظلّ ذلك الجسد باردًا، صقيعيًّا بلا روح، حتى لو سعتْ لتدفئته حرارة الرغبات كلّها، ونجحتْ بلا شك، لأنّ مرورها في الطريق، لم يكن يجلبُ صفيرًا، أو مغازلات، وجلوسها أمام بيتها في ساعة العصر تؤرجح الجريح في ثيابها المعقودة

على شكلِ أرجوحة؛ لا يجلب سوى الرثاء لذلك الطفل المسكين.. كان تايلور- تيلا، مخلصًا جدًّا، ولئيمًا في إخلاصه، ولدرجة أنه أشاع في الحي نبأً كاذبًا عن زواجه المرتقَب من المرأة العربية التي أضحت شغله الشاغل، وسرقته من معارف آخرين، كان يجالسهم في أوقات فراغه، يحتسي معهم خلاصةَ البوظة، ويزعجهم كثيرًا بنظرته القاتمة للبلاد في ظلّ الدولة الاستعمارية. يخرج من بيتها إلى إشراف المزارع، ومن إشراف المزارع إلى بيتها، ولم يكن في الحقيقة ثمّة بيت أصلًا، هو كوخ من الصفيح معروش بالقشّ، أقامه البناءون العاطلون عن العمل، بلا أجر، ومجاملة، أو رضوخًا لرغبةِ ابن الحي تايلور.. تيلا، والجريح بعد أن تعلّمَ الكلام.. لم يقله كذلك، ولكنْ يقول تالو.. ولو لم يكنْ صغيرًا جدًّا، وعاجزًا عن إدراك الخطورة التي تكمنُ في الوجود شبه الدائم لجنوبي أعزب، بجانب أمّه العزباء أيضًا، لحمل سكينة الطبخ الصدئة واستخدامها بدافع الغيرة فقط.

كانت مِن أبجديات الحياة في حي مطرة جوبا، حيث الكنّاسون والزّبالون، وخدمُ بيوت صفوة المستعمرين، وحيث عدّة بغايا يلكْنَ علكةَ المتعة الفاسدة، والفقيرة في زقاقٍ مظلم، أن تكون المرأة ذات صنعة.. لا توجد امرأة بلا صنعة، قد يكون الرجل عاطلًا، يتنقّل من ظلٍّ إلى ظل، ويتحرّش حتى ببهائم الطرق، وقطط البيوت الجائعة، لكنّ المرأة لا. أخبرها تايلور بتلك التفاصيل كاملة، وابتدأ في تنقيبها بحثًا عن صنعةٍ يلصقها بها. تذوّق طبخها بعد أن جلب لها

رطلًا من اللحم، ونصفَ رطل من البامية اليوغندية ذات الألياف الغزيرة، وملحًا، وبهارات، ولم يعجبْه، قال: لن يحبّ أحدٌ طبخ امرأة لا تعرف الطبخ، لن يوظّفوك طاهية أبدًا. أجبرها على كنس مساحةِ شارع كبير في الحي كلّه روَثٌ ووسخ، وفضلاتُ بشرٍ لا يملكون حفرًا لدفن الفضلات، ولاحظ أنّ ظهرها انحنى باكرًا، وفي منتصف الطريق، تعرّقت بشدّة، ولهثت، قال: لا تصلحينَ خادمة في البيوت، والشارع امتحانٌ سهل، إذا ما قيسَ ببيوت الأثرياء وموظّفي الخدمة المدنية؛ حيث الزوجات لا شغْلَ لهنّ غير قتل الخدم في أشغال شاقّةٍ مؤبّدة. وحين جرّبها أخيرًا في نقل الماء من بئرٍ تبعد عدّة كيلومترات عن الحي مبررًا ذلك بإمكان تشغيلها سقّا في الحي أو أحياء أخرى؛ وصلتْ بالدلو شبه فارغ.

كان من المفترض أنْ يكون مساعدُ مشرف الزراعة قد يئس، هذا ما يقتضيه المنطق، يئسَ ونفض يدَه عن مساعدتها، وتركها هكذا، وتسلّل إلى حياة أخرى، لكنّ ذلك لم يحدث، ظلّ متمسّكًا بها، وبقوّة، ويفكّر باستمرار في إيجاد مَخرَج حتى تعيش تلك البائسة، ويكبرُ ذلك الطفل الشّقي الذي ازدادت شقاوته حين كبر، ولم يعدْ يكتفي بنبقِ الشوارع المتشرّد تحت أشجار السّدر، كان يتسلّق السدرة، يهزّها، وينتقي خلاصة ما تدلقُه.

- الشاي.. الشاي يا رضيانة. كيف تذكّرت كلّ شيء ونسيت شايَك الفنّان، يا لي من مُستهتر.

خبّط مساعدُ المشرف الزّراعي على رأسه ذي الشعر الأجْرد الخشن، خبطات مُتوالية، وقف بعد ذلك على قدميه، والْتوى قليلًا كأنّ رقصة حماسيّة تتلاعب في رأسه، لكنّه لم يرقصها. لقد تذوّق شاي رضيانة منذُ عرفها في المزرعة، أثنى عليه مرارًا، وأفردَ له صفحة خاصّة في دفتره الأسود، مقارنًا نكهتَه بنكهةِ عرق البباي، الذي كانت تصنعُه أمّه في البيت، وتستخدمه في تعديل طباع والده من سيئةٍ جدًّا إلى سيئة فقط، بالرغم من عدم وجود أي مقارنة. وكتب في ذيل الصفحة ملاحظةً هامّة تقول: سأتذكّر هذا الشاي، ما دمت حيًّا.

- الشاي يا ملكةَ الشاي.

في ذلك الصباح، تنفض تايلور من النعاس باكرًا قصدَ رئاسة المشروع الزّراعي في جوبا؛ حيث توضع الخطط، وتعقَدُ الصفقات، ويمكن أن تكون ثمّة طريقة لمقابلة شخص كبير. ألحّ وألحّ عند باب الدخول، وتحمّل السبّ والإهانة، وصفعة جبارة على خدّه من أحدِ الحرّاس، حتى سمحوا له أخيرًا بمقابلة المسئول الكبير، وكانت المرّةُ الأولى التي يُسمح فيها بمثلِ تلك التوافه. وأمام المسئول، فتح دفتره الأسود الكبير وقرأ بلغةٍ إنجليزية فيها كثيرٌ من الخلل، خاصّة في الجُمل الاعتراضية، والتي فيها تعابير وصف تصوّره الشخصي عن حشرات النّحل، أي نوعٍ من الورد هو المفضّل لديها؟ وفي أي ركنٍ من أركان المزارع تستريح أكثر، وتنتج أكثر؟ ماذا تفعل لو اضطرّت

إلى لسع أحد؟ وهل تعاني من الندم مثل البشر لو مات أحدٌ بسبب لسعاتها؟ ولم ينسَ أن يقدّم في النهاية إحصائية هو مَن أحصاها، ولم تردْ في أي تقريرٍ رسمي، إحصائية عن لاحسي العسل الذين أصبحوا بفضله أفضلَ عمّال زراعيّين على الإطلاق، ولا يضارعهم في نشاطهم سوى النّحل نفسه. لم يبدُ المسئول الكبير مقتنعًا كثيرًا، لا بمنظر الجنوبي المتحمّس الواقف أمامه، ولا بتصوّراته عن إنتاج العسل وتسويقه، وإهداره في ألسنةِ وبطون الجنوبيّين حتى ينشطوا للعمل، ويوجد السوط المصنوع من جلد البقر لتحريك الدم في أي جسدٍ خامل، وتوجد النظرة الاستعلائية الشرسة التي ترتفع بالفوضى في دقائق معدودة إلى قمّة الانضباط، ويوجد في النهاية عنصر الجوع، ذلك المغناطيس السحري، الذي يجعل كلّ كلب جائع يتبعُ صاحبَه. لم يبدُ مقتنعًا حقيقة، لكنه وبرغم ذلك، طلب أن تقتلعَ ورقة تايلور من دفتره، وتحفظ في الإدارة لدراستها، وتقديم تصوّر متخصّص عنها، وأمر بأن تصرف له عدّة جنيهات، استلمها على عجلٍ وركض بها إلى السوق، وهناك اشترى كانونًا من الصفيح لإيقاد النار، ومظلّة من القماش لجلب الظلّ في ساعة الهجير، وحجب المطر إن سقط، وعدّة دلاء نحاسية متوسطة في طولها واتساعها، وحوالي العشرين كوبًا، حمل حصاده على ظهر حمارٍ مستأجر، وضعَه أمام رضيانة، وهو يصرخ:

- فلنبدأ يا ملكة الشاي.. نبدأ فورًا، وفي سوق المردةِ حيث ستلمعين بسرعة.. هيّا.. تسقط

بائعات الشاي التافهات.

وكانت المرّة الأولى التي يحصل فيها تايلور على عناقٍ باكٍ من امرأة عربية زهويّة، أخطأت ذاتَ يومٍ وتابت. المرّة الأولى التي شمّ فيها جسدًا ذابلًا وغيرَ نَضِر، يتبع ما علمته إيّاه صاحبته بدقّة ساعةَ أن سكنتْ مطرة جوبا، ومع ذلك تتحرّك في داخل تايلور رغبةٌ طارئة، ما لبث أنْ طردها، أن يستمرّ في شمّ ذلك الجسد إلى الأبد. الصديق الذي يهديك رغبتَه في الشبع ليظلّ جائعًا، ولأنّ رضيانة كانت ما تزال وجلةً، وخائفة من توابع الخطيئة، وأنّ ظهورها في سوقٍ شعبي ربما يفضحُها؛ قدّم لها تايلور ضماناتٍ كثيرة، بأنّ مرتادي سوق المردة، حتى لو كانوا من العرب، لا يملكون حرارةَ الدّم التي تدفعهم لذبح امرأة.

- لم يقصّر تايلور- تيلا.. لم يقصّر أبدًا.

تصرّ رضيانة على التكرار بمناسبة وغيرِ مناسبة، أن تصبح مقولتها تلك، ملكًا للجميع، توصلها إلى سكان مطرة جوبا كلّهم في تلك الأيام، وتنادي الطبيب الذي يراقب موتها البطيء الآنَ بعينيها، تودّ أن يلتصق بلسانها، ويسمع:

- تيلا لم يقصّر.. لم يقصّرْ أبدًا.

-٦-

ظهرت تابيتا جنيّة الليل عند رابح مديني مرّة أخرى، لم تشعله في صحراء (واوا) الجرداء الموصوفة بدقّة في كتاب رحّالة إنجليزي قديم، كما حدث في السابق، ولكن داخل مستشفى مداري، وفي كابوس رجل مريضٍ بالوهْم، كما شخّص الطبيب، مضت على رقدته المحْزِنة، ثلاثةُ أيّام كاملة، ولا يبدو قابلًا للشفاء بأيّ حالٍ من الأحوال.

آدم مطر، الذي أخذ يتردّد على المستشفى، أكثر من تردّده على بيته، أو مطعمِه المميّز، ويبيت أحيانًا بجانب صديقه، كان يضغط بشدّة على الدكتور إيزايا، يلوح بأطباء العاصمة جوبا، ونيروبي وكمبالا، وآخر الأرض، الذين يبجّلون المرضى بشكلٍ يحرجِ المرضى أنفسهم، يكتبون على أبوابهم: نحن في خدمتك دائمًا، ولا يستهترون حتى بلسعة النّملة، والشاي الساخن على اللسان، وذكَّر الطبيب الذي يكاد يعمل بلا أجر، مرارًا، بأنْ لا مكانَ له في البلدة، أو أي بلدة أخرى، لو مات تاجرُ الحدود بتشخيص الوهْم، واكتشفوا بعد ذلك أنه مات من مرض حقيقي، ولدرجة أنّ الدكتور إيزايا ابتدأ يراجع فحوصاتِه التي شخص بها مرضَ التاجر مرّة أخرى، وأعاد إجراءَ بعضها من جديد، وفكّر مرارًا في نفْض يده، وإرساله إلى مدينة جوبا ليعاينه اختصاصيّون هناك.

مِن ناحيتها، كانت سامتا المُمرضة المسنّة في غاية الرزانة، وسيدة طيبة بحقّ، ربما تذكّرت بأنها تدين لرابح مديني بثمن حنّاء القرود التي تستخدمها في صبغ شعرها منذ أنِ ابْيض، وتأخذها بشكلٍ روتيني، وبلا ثمن، من متجرِ لوازم، بناءً على تعليمات صادرة من تاجر الحدود، ألصقها على آذان عامليه في المتْجر. لم تذع سرَّ مرضه لأحد، ولأنّ لسانها تعوّد على كشف الأسرار بعد لحظاتٍ قليلة من اطّلاعها عليها، وعذّبها في إصرار قبيح على أن تسمح له بإذاعة الخبر، بدأت بالتوقّف كثيرًا أمام مرآتها في البيت، أو تلك المرايا المقشّرة في حمامات المستشفى القديم، تتحدّث لتلك المرايا عن ضعف تاجر الحدود، وسقوطه مريضًا بالوهْم.

في الدقائق أو الساعات القليلة التي يستطيع فيها عقار الديازبام المهدّئ، أنْ يعمل بكفاءة في جسد رابح، ويبقيه بعيدًا عن التأوّه من حلقه المرّ الجاف، أو الكفّ عن تحريك يديه، وتشتيتِهما على مواضع الخلل التي يعتقدها، هنا.. هناك، كان يسأل عن سير الأعمال في متجر لوازم، وهل وصلت شحنةُ البضائع الأخيرة، التي من المفترَض أنها غادرت كمبالا أمس؟ وسأل مرّة واحدة عن صاحب السيرك عمبابا، وهل ما يزال يقدّم عروضه ببرود، وثقلِ دمٍ، ولم يقتله أحد؟ هذا السؤال بالذات هو ما أرهقَ آدم مطر، أبقاه متحفّزًا، وحرّكه من أمام سرير صديقه، حتى خيمة السيرك، والعرض اليومي على وشك أن يبدأ. اتخذ مكانه وسطَ الحشد، يتأمّل الناس واحدًا واحدًا،

ويطيل التأمّل في وجه عمبابا الذي كان يتحرّك بآليةٍ مُطلقة، يرتدي القميص الإفريقي الملوّن، وسروالَ وبَرِ الخراف البني، ونظارة الخرز الأخضر، يعلن عن شروم الأصلع، وصبورة صاحبة الثديَين المتنفّسين، وفيلي التحايا العسكرية، والكلب التشوكي الأبرص، وفقرة اسمها رقصة الشمس يؤدّيها العاملون كلّهم وهُم متماسكون، ولا تثير الإعجابَ أو تحصد نقودًا جيدة في إناء ديمومة، ويرفع سيفَه في تلك الحركة الروتينية التي بطلتها الفتاة زيابا، وسط الإعجاب الكبير والتصفيقِ الحاد. وفي النهاية استمعَ إلى خاتمة العروض، نشيد آدم وحواء المنمّق، بالصوت الكبير المجروح، وخطرت له فكرةٌ أن يزيل تقاطيع وجهِه الصارمة، يبدو مرحًا وخفيفَ الظلّ حين يلتقي عمبابا، ويفاوضه في أمر رابح، لم يكن يعرف نوع تلك المفاوضة، وقد قال عمبابا مرارًا، إنّه لم يؤلّف فقرة الساحر حتى يفنّدها، ولا ذنب له لو أعلن ساحرٌ كبير متمكّن، ويعمل بطريقة مشروعة، وبترخيص من إدارات البلديات والسياحة في كلّ بقعة يطأها؛ موتَ أحدٍ في مداري.

- ليس أيّ أحدٍ يا صاحب السيرك، ولكنّه رابح مديني.

- لا فرق عند السحرة وقرّاء المستقبل، لا فرق بين زبال يعمل في الهجير بلا أجر، وبين بوكاسا، حاكم إفريقيا الوسطى.

- كيف لا فرق؟!

- قلتُ لا فرق.

تذكّر عمبابا من كثرة الأسئلة التي واجهها من جميع أهل البلدة تقريبًا، وتخلّص بصعوبة من قائد الشرطة المحلي، الذي كاد يفسد رزقه، ويغلق خيمةَ السيرك، ذلك حين استدعاه أمس بالذات إلى مكتبه، وطلب منه إعادة الساحر التركي فورًا، حتى يقرأ مستقبل عياله الذين يشكّ شخصيًّا في احتمال تحوّلهم إلى مجرمين خطرين، ويضطرّ هو إلى مطاردتهم. في داخله يحسّ آدم بالرغبة في سفك دمٍ ما، أي دم، دم حمامة، أو عنزة، أو خروف، وفي أسوأ الحالات، دم ذلك الرجل النحيل الذي لم يحبّه أبدًا، وكان رابح يحبّه مع الأسف. المرح وخفة الظلّ لم يكونا من طبعه، وعاش صموتًا وصارمًا، إلى حدٍّ ما، ولولا أنه ورثَ المطعم عن أبيه، وانخرط في تلك المهنة المُربحة، لربما كان من المتمرّدين الذين ماتوا في الحرب، أو عادوا يائسين ومحطّمين، في أعقاب المصالحة الوطنية، ولولا أنّ "رابح" في حياته المستهترة، كان بحاجةٍ إلى صديق مثله؛ لربّما لم يكن يعرفه حتى. كان الجمهور حاشدًا، لكن أقلّ كثيرًا من يوم الافتتاح، وثمّة عشرات من أهل البلدة، من رُعاة المخازي، كاللصوص، وقطاع الطرق، ومزارعي نبات البانجو المخدر، في مزارع سرية، لا يعرفها أحد، وأولئك الذين انتهكوا أعراضًا، أو اغتصبوا حقوقًا ليست لهم؛ كانوا يمدّون رؤوسهم إلى الخيمة، ويسحبونها، يحاولون التأكّد من عدم وجود الساحر، برغم إعلان عمبابا عن رحيله، بعد

تقديمه لفقرةِ يوم الافتتاح، وعدم وجود أي أثرٍ لحلقة المعدن المدلّاة من الأذن، وتصدر رنينًا عند احتكاكها بالأرض، أو ذلك الصوت العادي، المألوف الذي كأنه في جلسة سمر.

لم تكنْ مفاجأة لعمبابا حين واجهَ آدم مطر، وكان قد خرج من الخيمة الكبيرة، متّجهًا إلى مسكنه الذي كان واحدًا من تلك المساكن الخشبية المؤقّتة، ويدحرج أمامه الفتاة زيابا، مانعًا نظراتها من الالتقاء بنظرات جنديّ شابّ يرتدي زيَّه العسكري كاملًا، وشمّ عمبابا في تلك النظرات رائحةَ رغبةٍ جامحة. لكنّ نظرات مطر، وابتسامته الواسعة، وتقاطيع وجهه المنشرحة؛ هي ما أثار توجّس صاحب السيرك.

- سابقة خطيرة.. نعم خطيرة.

ردّد في نفسه، واستعدّ لمواجهة خطر ناعم، أحسّ به يتربّص.

- أنت وأعضاءُ السيرك الكرام، مدعوّون لتناول الغداء اليوم في مطعم بابايا.

قال آدم مطر، ومدّ يده، التقط بها اليد النحيلة لصاحب السيرك، ويتمنى في داخل نفسه، لو ضغطَ عليها بشدّة، وفتّتها.

- فكرة هائلة.

تراقصت الفتاة زيابا، من فوق حذائها العالي،

وبانَ من تحت قميصها الوردي، الذي لم تُحكِم إغلاق أزرته جيّدًا؛ شبحُ نهديْن بحجم ثمرتي برتقال يعلوان وينخفضان. كان ثمّة صفير قد ارتفع، واقترب الجندي الشابّ أكثر، تاركًا عينيه تتجوّلان في صدر الفتاة على راحتهما.

فكّر عمبابا قليلًا قبل أن يعلن موافقتَه أو رفضه. ليس آدم مطر مواطنًا عاديًّا بلا ضغينة، يبدي كرمًا مألوفًا، تعوّد عليه من كثيرين أثناء مرور السيرك العظيم بمُدُنهم، ولكنّه الصديق الأكثر قربًا من الرجل الذي حطّمته فقرة، ويصرّ على اتهامه هو عمبابا بتدبيرها. ربما يكون ثمة سمّ متخَفٍّ في الدّسم، أو يحترق المطعم فجأة وهو مكتظٌّ بموظفي السيرك العظيم. تأمّل مطر أكثر، وأيقن بتفاهةِ تفكيره، لا يعقل أن تحدثَ مصيبةٌ يضيع بعدها صاحبُ المطعم هو الآخر، حقيقة لا يعقل.

- حسنًا.. نحن شاكرون، ومقدّرون لدعوتكم، فلتجتمع العائلة إذًا في بطن بابايا.

قال عمبابا، بحركةٍ مسرحية، وهو ينزع نظارةَ الخرز عن وجهه، وينحني مُمسكًا بها، وقد سقطت عدّة خرزات من إطارها، وغاصت في الأرض.

كان أعضاءُ السيرك الآخرون، قد جاءوا كلّهم، بعد أن تأكّدوا من سكون الحيوانات في أقفاصها، وأنّها بدأت تلتهم وجباتها الروتينية التي تكلّف عمبابا أكثرَ من نصف حصاده، وأيضًا فضولًا، حين

سمعوا زيابا تصيح مُشتهية أصنافًا بعينها، لم تتذوّقها أبدًا في حياتها، وتعرفها مِن قوائم الطعام التي يسمح لها عمبابا بتصفّحها في فنادق كينيا، ومطاعمها السياحية، كلّما اشتهت طعامًا مختلفًا غير عدسِ الفقر، والفول، وسلطة الباذنجان المصلّصة.

- أريد حمامًا محشوًا بالفريك، لحمَ ظبي مطهوًّا بالبخار، سلطة كينية من الخضراوات والسلمون المدخن.. أريد.. أريد.

وختمت طلباتها بمكعّبين من حلوى حصان طروادة المصنوعة من العسل والسكر، ونخالة القمح، ولم تكن أبدًا من ضمن ما يقدّمه مطعم بابايا، ولا أي مطعمٍ آخر في العالم، ولكنّ اجتهادًا شخصيًّا من عمبابا، حشره في تذوّق تلك الفتاة منذ كانت طفلة، وبالرغم من ذلك كلّه، لم يقلْ آدم شيئًا، دوّن اسم الحلوى على الورقة التي يحملها، وفكّر في طاهٍ كيني يعمل في مطعمه، ربّما يعرف مكوّناتها.

- جنيّة الليل.. تابيتا..

أوّل شيء شاهدته الممرضة المسنّة سامتا وهي تركض بصعوبة، على صراخ رابح، هو منظر تاجر الحدود عاريًا تمامًا، يتلوّى في أرض الغرفة التي كانت خالية، وله وحده بعد أنْ أُخرج منها المريضان الآخران، وحُوِّلا إلى غرفةٍ أخرى بناءً على تعليمات الطبيب المُستقاة من نظرة غضبٍ وجّهها

له آدم مطر. كان يتلوّى، وقد احمرّت عورته بما يشبه ورمًا من الدم، وبدا لها سائلًا مخزيًا ملتصقًا بفتحة العورة الضامرة. ارتعدت المسنّة، وهرولتْ بنفس الصعوبة التي جاءت بها، إلى حيث عثرتْ على ممرّض من زملائها، كان منزويًا في أحدِ الأركان، يدخّن واحدة من سجائر البانجو المخدّرة. ولم يكن بالمستشفى أحدٌ غيره في تلك الساعة، حتى الدكتور إيزايا، كان في قيلولته ببيته. إنّه عزو، أحد مشوّهي الخدمة الصحيّة، والذي كان بقاؤه في الخدمة عارًا كبيرًا، وفصلُه منها مشكلة، ووراءه قبيلة الرزيقات القوية، التي ستعيده في نفس اليوم، وبتعليماتٍ ليست من جوبا عاصمة الإقليم، ولكن الخرطوم، عاصمة البلاد كلّها. تعاونا معًا على تغطية تاجر الحدود، ورفعه إلى أعلى بالرغم من توهان الممرض، وظنّه الأكيد في تلك اللحظة أنّه يساعد في تحريك جبل الرّجاف الجنوبي المشهور من مقرّه، كان ما يزال يصرخ بإصرار بأن جنيّة الليل زارته في وسط النهار، نزعت ثيابَه كلّها، وولعته حتى احترق، وفرّت.

لسان سامتا هذه المرّة كان يبكي ويتوسّل إليها، أن تطلقه من أسْره، وما هي إلّا دقائق حتى استجابت، سلّمت مناوبتها كاملةً للممرّض الأرعن، ذهبت مباشرة إلى متجرِ لوازم، حصلت على كيسٍ ممتلئ من حنّاء القرود، تحسبًا لأيّ جديد يستجِدّ، ودلقت في كلّ خطوة مشتها قصّةَ جنية الليل التي عاشرها رابح نهارًا في سرير المرض، لكنها لم تصفْ عورته سوى لعددٍ قليل، انتقتهم بعناية، وكانوا هُم الصمّ والبكم

الموجودين بالبلدة في ذلك الوقت. كانت قد لفتتْ نظرّها تلك الضجّة التي ترتفع من داخل مطعم بابايا، بعد أنْ عبرت أمامه، مدّت رأسها لتشاهد عمبابا وعمّال سيركه العظيم يعاركون الطعامَ بضراوة كأنّه عدوّ مسلح، استغربت، وتعرفُ جيّدًا أنّ آدم ما كان ليسمح لهؤلاء بدخول مطْعمه، حتى لو خرّت جيوبُهم ذهبًا، واستغربت أكثرَ حين شاهدته بنفسه يشارك في حمل الصّواني، وتعبئة الأقداح بالشوربة، وزيابا المستهترة تشدّ نادلًا عربيًّا من ثيابه وهي تضحك. وحين عادت إلى المستشفى وجدت الدكتور إيزايا بلا ربطةِ عنق، وبأساريرَ عابسة، يشدّ المُمرّض عزو من شعْرِه، وكان قد شاهده راقدًا على سريرٍ خالٍ بجوار رابح، ويغطّ في نوم عميق. قالت إنّها كانت بالحمّام، وكذّبها عشراتُ المواطنين الذين وفدوا خلفَها إلى المستشفى يسألون بهلع، لا عنْ أحوال تاجر الحدود المريض، ولكنْ عن جنّية الليل التي عاشرها، وإن كانت نفسها التي ظهرت في ذلك الزمان البعيد، أم واحدة جديدة؟

في ليل ذلك اليوم، كادتْ قامةُ الخوف ترتفعُ مرّة أخرى، تصبح ليالي السهر أقلّ امتدادًا، وخيالات الظّلال العادية على الحوائط جنيّات ليل، يحملنَ نارَ القُهر والشّهوة، لكنّ ذلك لم يحدث، وقد أعلن قائدُ الشرطة المحلية أنّ رجاله متوفّرون في كلّ مكانٍ يحرسون الساهرين لو سهروا، والمُعرْبدين لو عربدوا، وفيهم أشدّاء، حتى الجنّ نفسُه لا يقدر عليهم، وأبدى أحدُهم بالذات استعدادَه التّام لقنص الجنيّة إن ظهرت،

ومعاشرتها مجانًا بلا علاوة ولا زيادة في الرّاتب.

كان آدم مطر قد جلس أمام سرير صديقه يُحصي خسارته، والصديق استعادَ هدوءه، وحدّثه مطوّلًا عن تابيتا التي زارته مرّة أخرى، وأحرقته أيضًا. منذ الحادثة الأولى وآدم غيرُ مقتنع، والآن غيرُ مقتنع أيضًا، وهزّ رأسه مؤمنًا، مرارًا بدافع الشفقة والمواساة. خسارتُه في غداء سيرك الرجل الضئيل كانت كبيرة، ولو كان يعرف أنه سيستضيف الأرضةَ والدودَ والثعالب والذئاب التي التهمت تموينَ ستّة أيام كاملة؛ لمَا غيّر تقاطيع وجهه، ولسَفَك الدم الذي كان قد فكّر فيه. لم يقلْ عمبابا أي جديد يُذكر، انشغل بتناول عصيدةِ الدّخن المحلّاة بالفستق، وردّد كلماته نفسها: لست مَن ألّف فقرة (ندمان قل) حتى أفندها، وفي ردّه على سؤال آدم، إن كان سيذهب بنفسه، ويطمئنُ صديقَه القديم، لعلّه يكون موهومًا حقيقة ويشفى، قال في جفاء وهو يمسح لطعةً من العصيدة سقطت على صدر قميصه؛ بكمّ القميص نفسِه.

- سأزوره كصديقٍ قديم، أقدّم وردة، وأتمنى الشفاء العاجل، لكنْ لا أستطيع طمأنته، ماذا يفعل الطبيب هناك؟

سؤال آخر: كيف نعثر على التركي، ونسأله عن حقيقة ما قال؟

إنّه السؤال الكبير الذي أقام آدم من أجله وليمةَ

النمل والدود والثعالب، بلا شكّ، وقد أرخى أذنيه جيّدًا، حتى يستمع لردّ عمبابا.

- (ندمان قل) ساحر عالمي، لا يقيم في مكان محدّد، لقد عثرت عليه مصادفة، ولا أتوقّع العثور عليه مرّة أخرى على الإطلاق. ثمّ لا فائدة تُرجَى من سؤاله، حتى لو عثرت عليه، إنه يقول الحقيقة مرّة واحدة فقط.

كان الردّ الأكثر جفافًا، الردّ الناري الذي زحف في آمال آدم مطر، وأحرقها تمامًا.

***

-٧-

في البداية، ومن أجل تحديدِ نسبه بدقّة، وإراحة ضميرها الذي لم يتركْها بائعة شاي فقيرة في سوق المردة فقط، وأمًّا مربية لواحدٍ مثل الجريح، وُلدَ بشقاوة، وكبُرَ بشقاوة، كانت رضيانة تتابع ابنها بمشقّة، تشمّ رائحة المانجو المتخثرة في جلده الخشن، مهْما دعكت ذلك الجلد، مُستخدمة الليف الكيني ذا المخالب والأنياب، وصابونَ زيت الكتان الرخيص الذي يصنع محليًّا في جوبا. ولا تنكر أنّها استخدمت من أجل تلك الغاية، النشادر، وماء خميرة البيرة، المستخدَم أصلًا في تطرية العجين، وحتى أملاح الأندروس الفوّارة، التي تستخدم في حموضة المعِدة، وكانت قد ظهرت في جوبا حديثًا في ذلك الوقت. تتبعه حين يركض في أزقّة مطرة جوبا، وأزقّة أحياء أخرى مجاورة، يتحرّش بالكلاب ساعة نعاسها، ويزعج الطير في أعشاشه، وحين ينام على ذلك الحصير الخشن بجوارها تقرصُه بعنفٍ حتى يصرخ، ويبدو صوتُه الصارخ صوتَ ذئب مجروح يعوي، تمامًا كما في حلق عمبابا. كان يكبر أمامَها بسرعةٍ كبيرة، ولا تستطيع اللحاق بركبتيه اللتين ما عادتا ركبتي طفل، قليل الحيلة، ولكنْ ركبتي عداء قطّعت أنفاسها. وفي سنّ الثامنة تقريبًا، وكانت قد أصبحت من بائعات الشاي الأكثر شهرةً في سوق المردة، وابتدأت كثيرٌ من البيوت الكبيرة تستدعيها خصّيصًا لصناعة الشاي في أثناء وجود ضيوف مهمّين.. في تلك البيوت، فوجئت بالجريح

يمسك ورقة وقلمًا، ويكتب عليها جُملًا كاملة، وبخطّ ليس منسقًا تمامًا، ولكنّه خط، لم تستطع قراءة تلك الجُمل، بحُكْم أمّيّتها، وعرفت أنّ تايلور، الصديق الوفي، قد أعدّها مفاجأة لها، لقد علم الجريح بنفسه، وبمساعدة راهبة إنجليزية، كانت منقطعةً لتعليم الأطفال في مدينة جوبا بدافعٍ إنساني بحت. وكان يأخذه إليها في الأوقات التي تكون فيها أمّه مشغولة بخدمة الزبائن في سوق المردة، ولا تعرف ما يحدث في غيابها. تايلور لم يقصّر أبدًا، والعلم نورٌ بلا شك، وما فعله مع الجريح اليوم، هزّها بشدّة، احتلب الدموع من عينيها، وكانت المرّة الثانية التي يحصل فيها مساعد الزراعة على عناقٍ باكٍ من امرأة عربية زهوية، يشمّ فيها الجسد الذي يصادقه منذ سنوات، ولا يعرف تفاصيله الحميمة، وإن كانت تداهمه لحظات فوران، أم اعتادَ على ذلك الصّقيع الذي غرسته فيه صاحبته، يوم سكنت مطرة جوبا. وتتحرّك داخل تايلور رغبةٌ مطرودة مرّة أخرى: أن يظلّ يشمّ ويشمّ ويشمّ إلى الأبد.

كان تايلور في تلك الأيام بلا عمل، لقد درسوا مشروع لاحسي العسل، المشروع الخدعة الذي قدّمه من أجل أن تبدأ رضيانة صناعة الشاي، بعد ستّ سنوات من استلامه، وبعد أن تقاعد المسئول الإنجليزي الذي استلمه، وحلّ محلّه آخر أكثرَ جديّة وتفاعلًا ومزاعم. واكتشفوا بما لا يدع مجالًا للشكّ أنّه مشروع بلا أساس، بلا مقومات، ولا يعدو كوْنه احتيالًا مغلّفًا، حصل بموجبه مساعد مشرف مغمور على مبلغٍ طائل من مال

الحكومة، بلا وجه حقّ، ولا بدّ قد استثمره، وجنى من ورائه الكثير. استدعوه إلى الإدارة الزّراعية في جوبا على وجه السرعة، خضع لتحقيقٍ مرير، وطالبوه بردّ الجنيهات التي أخذها، بفوائدها طوالَ تلك السنوات، وما كانت عنده، لا الجنيهات ولا فوائدها، ولا أيّ شيء آخر. ولم يطالب رضيانة بشيء، وكان عندها شيء قليل لو طلب منها. الصديق الذي يهديك كلّ شيء، ويبقى بلا شيء. كانت عقوبتُه خشنة، عقوبة لا يستحقّها تيلا، لو تمّ تقييمه إنسانيًّا، ويستحقّها بذلك التقييم الذي أجرتْه محكمةٌ عنصرية يرأسها قاضٍ إنجليزي، ويعاونه اثنان من أبناء العرب المتعلّمين. السجن ستة أشهر، والطرد من الخدمة، وفي يوم اقتياده لأداء العقوبة في سجن جوبا الكبير، السجن الذي سيعمل فيه الجريح حارسًا، فيما بعد، استأذن من حرّاسه، أنْ يمرّ على سوق المردة دقائق فقط ليشرب كوب شاي، وأذنوا له بعد جهد. وهناك أخبر رضيانة بالعقوبة، ولم يخبرها عن التّهمة التي قادت للعقوبة. قال: صفعتُ أحدَ المسئولين على خدّه؛ لأنّه شدّني من شعري. ولم تنتبه إلى أنه كان في الفترة الأخيرة حليقًا، وبلا شعرةٍ واحدة في رأسه.

الصديق الذي يهديك حريّته، ويذهب إلى السجن.

منذ ذلك اليوم، وحتى انقضاء عقوبة تايلور، وظهوره إلى جانبها في حي مطرة جوبا، مرّة أخرى، لم تذقْ أمّ الجريح نومًا هانئًا، ولا متعةً

حقيقية، وهي تصنع شايها في السوق أو في تلك البيوت التي تعدّدت طلباتها، ولا تستطيع تلبيتها كلّها. كانت تعتمد كلية على تيلا، تعتقده يحرس نومَها، بينما يكون نائمًا في بيته، ترسله لجلب المنكّهات الضرورية لصناعة الشاي، مباشرةً من أماكن توزيعها الأولى في موقف الشاحنات التجارية القليلة التي بدأتْ تأتي بالبضائع من الخرطوم، أو عمق إفريقيا، وقبل أن توزّع في السوق ويزداد سعرُها. تعتمد عليه في اختراع النكات، إذا أرادت أن تضحك، ورواية قصص المآسي إذا أرادت أن تبكي، وفي نزهات الجريح الضرورية لتفتيح الأفق حين يربطه على ظهر جحشٍ أليف، ويجرّه في الطرق، أو يقوده في صعْلكةٍ طويلة، يشاهدان- بحرصٍ شديد- بيوتًا تشتعل بالنّعمة والكمال، وسباقات الخيول بفرسانها الإنجليز، والفتيات النظيفات وهنّ يشجعنَهم بأصوات الدّلع المنغّمة، وأصبحت تخاف لو أغلقت بابَها أو تركته مفتوحًا، وما كان ثمّة باب حقيقي بقُفل ومزلاج، ولكن لوحٌ من الخشب، تسدّ به الفتحة المطلّة على الطريق. سألها الجريح مرارًا: أين تالو؟ أين تالو يا أمي؟ ولو لمْ يكن صغيرًا وعاجزًا عن الفهْم لتنفّس الصعداء باختفاء جنوبي أعزب، يكاد يكون فستانًا ضيّقًا على جسد أمّه من شدّة التصاقه. وفي اليوم الذي عاد فيه، بعد أن قضي ثلاثة أشهر فقط، وأفرجوا عنه لأسباب كثيرة، منها اكتسابه ثقة مأمور السجن حين دلّه على أفضل طريقةٍ لضبط الخيانات الزوجيّة عند النّساء، وثقة نائب المأمور حين لفت نظرَه إلى بقعة دهن كثيفة

جدًّا في ثيابه، وكانت ثمّة زيارة مُرتقبَة في نفس اليوم للقائد العام للسجون، سيقوم بها لسجن حوبا، وقد أوشكتْ بالفعل قافلتُه القادمة من العاصمة، على الوصول. والأهمّ من ذلك كلّه، ظهور موهبته الفنية الكبيرة. لقد أصبح تايلور فجأة نحّاتًا وهو في السجن، وما كان يعرف عن النّحت شيئًا من قبل، ولا كان النحتُ من الأشياء التي سعى لمعرفتها أيّامَ كان يخترع طرقَه الملتوية في المعرفة. لقد صنعَ تمثالًا بطول مترين كاملين، يمثّل رجلًا وامرأة، يتبادلان سعير العواطف، وأهداه لمدير السجن، تمثال الرغبة كما يتصوّرها.

نحت تمثالًا لوحيد القرن في حجم دجاجةٍ منزلية، وقدّمه هدية للجريح، الذي انشغل به عدّة أيام وحطّمه، ولكن أعظم منحوتاتِه كانت ما سمّاه (حكّام عصرنا الأجلّاء)، وشيّد فيها إناءين فارغين، ويدين جافتين تمتدّان إليهما. لا بدّ أنّ تيلا أصبح عظيمًا، على الأقلّ في نظره الشخصي، ونظر رضيانة الخضر، وأولئك السيّاح الذين كانوا يتردّدون بشكل متقطّع على منزله في مطرة جوبا يشترون منحوتاته التي يُصيغها من الطين والصّخر الخشن، برخص التراب، ويأتي إلى بيت رضيانة، حاملًا أكلًا وشربًا، وملابس جديدة للجريح، وهو شخصيًّا بملابسه التي لم تتغيّر كثيرًا؛ أنيقًا في حدود إمكانياته، وكان يمكن أن يصبح أنيقًا في الحدود الجديدة للإمكانات الجديدة.

الصديق الذي يكسو طفلَك بالجديد، ويظلّ عاضًّا

على قديمه.

أفلت تايلور جسدَ رضيانة، وحاسّة الشمّ، وقال مخاطبًا الجريح:

- اكتبِ المزيد يا ولد، اكتب أسماءَ الحيوانات كلها.. أسد، نمر، ضبع، غزال، حمار وحش.. اكتب رضيانة الخضر، أعظم أمّ.

كتب الجريح، كتب الحيوانات ضارية وأليفة، رضيانة أعظم أمّ، وتالو أعظم أب، يعرف الجريح أنه ليس أباه وبرغم ذلك أعظم أب.

حين أصبح النّحت الكلاسيكي موضةً قديمة فجأة، وظهرتْ في جوبا في نهاية الأربعينيّات جماعات مهووسة تنادي بالفنّ من أجل الفن، وتعتبر ما ينتجه تايلور وغيره، تراثًا يستحقّ الرثاء أكثرَ من التقدير، وراجت المَنحوتات التي كان يصنعها أعضاؤها من لُحاء الأشجار، وروث البهائم، وحتى من لحم وجلود الذبائح، اختلّ توازن الفقر واللا فقر عند تايلور، وما عاد قادرًا على الإيفاء حتى بثمن خيطٍ وإبرة يرتقُ بها ملابسه، ولمّاع أحذية يدهنه على حذائه البالي. تلك الأيام أحسّت رضيانة بالصديق في لحظةِ ضيقه، ألغتْ وقتَ راحتها، وعملت وقتًا إضافيًّا من أجل إسناده، كانت تشتري له الطين الصّلد، والحجارة الملساء التي تجلَبُ من جبالٍ بعيدة، لا تنطق بكلمة الرّحيل أمامي أرجوك، لا تنطق بها. وكان الصديق قد حزم أغراضه القليلة، وحدّد وجهتَه التي سيذهب

إليها. إنّها اللاوجهة تقريبًا.

تلك الأثناء صار الجريح رجلًا، رجلًا حقيقيًّا لولا اعتياده التبوّل واقفًا في الطّرق، واعتماده على أمّه كثيرًا لإيقاظه صباحًا، ونسيانه لأمر الزواج بالرّغم من وجود كثيراتٍ في مطرة جوبا اشتهينه، واعترضنَ طريق تهرّبه مرارًا. عمل حمّالًا للأجولة في سوق المردة، عمل سقّا، وقاطفًا للفواكه في موسم نضجها في مزارع أخرى غير التي كانت تعمل فيها أمّه من قبل، أخبره تايلور بمنابعه، من دونِ أن يسأل، مردّدًا أمام رضيانة، أن معرفة الجذور جزءٌ من حقوق البشر، وهاج شوقًا لزيارة تلك المنابع، والموت فيها، اكتسب عادةَ البكاء عند قبرٍ وهمي، مدفون فيه لا أحد، وكادَ- في أيام كثيرة- يجرحُ أمّه بمحاولة جرّها عنوةً إلى حيث بدأت، وكانت قد نسيت مداري، وأوشكت على نسيان اسم أبيها وأمّها.

اكتشفت رضيانة أخيرًا، ما غاب عنها كلّ ذلك الوقت، وقت الفقراء الشبيه بابن الكلب، كما قال المسئول الحكومي، عرفت والد الجريح تمامًا مِن بين الرّجلين اللّذين تبادلاها وهي يافعة، وملكةٌ لصناعة الشاي في سوق البردعة القديم، وازنتْ بينَ قوّة الصّوت المجروح، ورائحة ثمرة المانجو المتخثرة، واختارتِ الأقوى، وعثرت على براهين أخرى في جسد الجريح وسلوكه، دعّمت اكتشافها، جعلته حقيقةً لا ترقى لأيّ شك. تكتّمت على معرفتها بشدّة، ولم تسمحْ لها أن تصبح أكثرَ من معرفة شخصية بحتة تخصّها

وحدها، تمامًا مثلما يخصّها فقرها الذي لم يتغيّر كثيرًا برغم رواج صنعتها، وتخصّها سرّتها، وعراقيبُ رجليها، ودورتها الشهرية المتقطّعة بفعل الهمّ الكبير. لن يفيد حارس السجون الذي سعتْ إلى توظيفه بإلحاحٍ كبير، ألحّت به لدى المسئولين؛ أنْ يعرف، وقد تجاوز مرحلة عطف الأبوة منذ زمن بعيد.. حين تموت، فليذهب حيث يشاء، وليبحث عن ذلك الأب، إذا ساورته أدنى فكرة، إنه ليس ابنَ سلمان الوهْمي، الذي علمته البكاء على قبره. لكنّه سيظلّ قربها هنا، في جوبا، ما دامتْ حيّة، وواحدة من أفضل بائعات الشاي في سوق المردة.

في أحد الأيام من عام ١٩٥٥، وقبل استقلال البلاد بعام، وخروج المستعمر الإنجليزي، وانتشار كلمة (السودنة) التي تعني استبدال من خرجوا بآخرين من أهل البلاد لدرجة الهوس، وكان الجريح في التاسعة عشرة، وخرج لتوّه من مهنة السقا، التي لم يحتملْ قسوتها، وينتظر أن يجدي إلحاحُ أمّه لتعيينه فردًا في شرطة السجون، طلب من تايلور أن ينفردا معًا في مكانٍ لا يسمعهما فيه أحد. لديْه مواضيع هامّة يودّ أن يطرحها لتايلور وحده، ولا يريد أن تعرفها أمّه في الوقت الحالي. كانا يتغدّيان في بيت رضيانة كالمعتاد، أمامهما طبقٌ من عصيدة الدّخن، وعظمان بلا لحم، يغوصان في مرقٍ فقير. وتايلور النّحات الكلاسيكي حاول جاهدًا، وبكلّ ما أوتي من شجاعة، ونكران ذات؛ أنْ يتقن فوضى الفنّ من أجل الفن، وينحت التفاهةَ على الجلود، ولحاء الشجر، ولم يستطعْ، وكان

يعتمد في الرزق على بعض زبائنه القدامى من السياح، حين يعاودهم الحنينُ فقط إلى جوبا، ويعودون بحثًا عنه، أو يسخر يديه اللتين ما تزالان قويتيْن في العمل في حفْر آبار الماء لصالح هيئة المياه الجوفية، بأجرٍ يوميّ متقطّع، ودائمًا حصاده في بيت رضيانة، الفستان الضيق، الملتصق بالجسد، وتيلا الذي لم يقصّر أبدًا.

خرجا إلى الطريق يبحثان عن جحرٍ يصلح مكانًا لدلق سرّ، واختار الجريح شجرة مسكيت بلا ظلّ تقريبًا ليجلسا تحتها. وبعد حكٍّ للرأس، ونحنحةٍ طويلة، وترطيب للسان والشفتين، قال الجريح:

- اسمع يا تالو، أريدك باسْم الأخلاق أن تعامل أمّي كامرأة.

كان ما يزال يناديه بلسان الصّغر، الذي انطبعت عليه تالو، وليس تايلور أو تيلا.

استغرب الجنوبي بشدّة، فكّر في كلمة الأخلاق، ووجدها كلمة فضفاضة، يمكن برغم معناها المتداول، أنْ تحتمل كثيرًا من التأويل. باسم الأخلاق، يتسلّط الحكامُ على رؤوس شعوبهم حتى يموتوا، باسْمها ينتشر الفقر في الأرض، وباسْمها أيضًا، ينتبذ العشرات ظلمًا تحت السراديب الموحشة. فكر في معاملة المرأة التي يتقنها جيّدًا، ووظّفها في خدمة رضيانة الزهوية لأكثر من عشرين عامًا، ولم يجدْ نقصًا حادًّا، ولا أي نقصٍ في تلك الأبجدية، فكّر في لهجة الجريح

ولم تبدُ له عدائية أبدًا، ولكنْ كأنّها يدُ نشّال خفيفة، دخلت الجيب، ولم تسرقْ منه شيئًا.

- نعمْ يا جريح، أنا أعامل أمّك كامرأةٍ نظيفة، ومكافحة منذ عرفتها، هل رأيت غير ذلك؟

تلعثمَ الجريح، تلعثم كثيرًا قبل أن يردّد:

- لا أقصد ذلك يا تالو، ولكنّ ما قصدته، هو أنْ تغيّر عقيدتك إلى عقيدتنا، وتتزوّجها.

انتبه تايلور- تيلا في تلك اللحظة فقط، إلى أنّه رجلٌ بلا عقيدة، ومقارنة العقائد ببعضها لاختيار ما يلائمه منها، تلك بالذات فاتَتْه، أيام كان يخترع طرقًا مُلتوية من أجل المعرفة. يعتقد الجريح أنّه مسيحي أو وثني بلا شكّ، والجريح أيضًا ذو دراية، وليس غشيمًا جدًّا، بالرغم من اتّسام بعض تصرّفاته بالغشامة، أكيد يعرف أنّ المسلمين يصلّون، وما كان هو يصلي، يعرف أنّ المسيحيّين يتجمهرون في الآحاد داخل كنيسة جوبا المزخرفة، ويلعلِعون خلف رجلٍ يرتدي الأسود من رأسه إلى قدميه، ولا بدّ أنه رأى وثنيًّا يعبد بقرةً أو حمار وحش، في بلدٍ متعدّد الأعراق والعقائد. لم يكن تايلور يودّ أن يصدم الجريح سوى أن كان يعتقده يحمل عقيدة أم لا، لو كان في داخله عقيدة، فهو لنْ يغيّرها، إمّا لأنّها تروق له، أو لأنه ورثها عن أبيه. قال مخاطبًا الجريح، وبصرُه ليس في عيني الولد، ولكن في اتّجاه سحابة مُثقلة بالمطر، لا بدّ ستدلق الخير قريبًا:

- لا أستطيع يا جريح.. أمّك بلا زواج مني أكثرُ إبداعًا ممّا لو تزوّجتني.. أعتقد أنّك تفهمني.

- لا.. لم أفهمْك.

نطق الولد، وقد بدا صوتُه أكثر تعقيدًا، صوتًا مجروحًا بحقّ، لا بذلك الجرح الذي تعتقده رضيانة منذ أنْ ولدته، بل بجرح الردّ القاطع الذي لم يكن يتوقعه. هناك أشياء كثيرة في الحياة لم يفهمْها بعد، امرأة عربية زهوية، مُمتلئة بالدّمامل، والآن تجاوزت سنّ الدّلال، وانتقلت إلى سنّ الحكمة في مواجهة رجلٍ من أهل الجنوب، حتى لو كان ذلك الرجل تيلا.. صديقها الوفي، والفستان الضيّق على جسدها، هنا لا يوجد مجالٌ للمناقشة، والردّ السليم على تصوّرات الولد، هو ذلك الردّ القاطع، المحرج، ولا توجد أي إضافةٍ أخرى. كان بإمكان تايلور أنْ يشرح له بدقّة، يحدّثه عن سوق النخاسة الذي سمع وصفه مرارًا من والده، وخاف أن يفتح عينَه على أمور أكبرَ من استيعابه.

- سنتناقش في الأمر لاحقًا.. أعدُك.

قال تايلور، وابتدأ يغنّي، لم تكن المرّة الأولى التي يستخدم فيها صوته الخَشن في الغناء، وكان يملك آلةَ ربابة قديمة، ينعش بها نفسه أحيانًا، ومع ذلك أحسّ الجريح بخللٍ ما في غنائه، كأنّه شوّه اللحن هنا في هذا المقطع، كأنه ردّد مرارًا كلمةَ الفراق، أدخلها في كلّ بيتٍ من

الأغنية.. وما وردت في الأصل سوى مرّةٍ واحدة. اصطحبه تايلور حتى البيت، ودّعه عند لوح الخشبِ المفترض أنّه باب، ومضى مبتعدًا.

منذُ ذلك اليوم، لم يعدْ تايلور- تيلا، متوفّرًا، لا في حي مطرة جوبا، ولا حي الملكية المجاور، ولا أي حيّ آخر، يمكن أن يتّسع صدره لإيواء نحّات كلاسيكي مُنهزم. هزيمة السجن، حوّلته من مساعد مشرف زراعي مغمور، إلى فنّان، لم يكسب في الواقع كثيرًا، ولكنْ يكفيه تمثال حكّام عصرنا الأجلّاء، الذي اشترته سائحةٌ بلغارية كانت في جوبا ذات يوم، وسافرت به إلى بلدٍ لا يعرف تايلور، مهْما وظّف شيطنته القديمة في المعرفة، أين تقع، ولن يخطرَ على باله أبدًا أنّ ذات التمثال نُسب إلى (جيمس أنسون)، أحد فنّاني القرن التاسع عشر المعروفين، وبيع في مزادٍ كبير هناك، والآن موضوعٌ في ممرّ طويل مزخرَف في بيت رجل أعمال كندي، يهوى جمعَ التّحف، ويطوف الدنيا باحثًا عنها. لم يعدْ تيلا موجودًا ليناديه الجريح بلسان الصغار، تالو، أبي تالو، أو تتيح له المرأةُ العربية الزهوية، فرصة أنْ يشمّ جسدها الذابل في عناقٍ باك، وبمناسبة قطعًا كانت ستحدث يومًا. على مدى ثمانية أشهر، تركت رضيانة مكانها في سوق المردة، وعدّةَ شايها، لفتاة جنوبية متدرّبة، توقّفت فترة عن الإلحاح لدى مسئولي شرطة السجون بشأن توظيف الجريح، وجرّتِ الولد المصدوم نفسه في شوارع لم يطأها من قبل، وأزقّة مهجورة تغصّ بالخوف والأشباح، وحتى في المواخير المظلمة، التي شاهد الجريح

نساءَها العاريات من كلّ شيء، واستغرب من تفاصيل الجسد الأنثوي، التي كان يتخيّلها في السابق أكثرَ روعة وجلالًا مِن كثرة ما وصفها تيلا في تلك الأيام الخوالي. ساقته رضيانة حتى حدود مدينة جوبا، حيث عربات قليلة تغادر إلى إفريقيا، راكبين حماريْن منهكين، هناك توجد فرصة للعثور على تيلا، ربما كان راقدًا تحت شجرة في انتظار أنْ تأتي عربة، ولا يحدث ذلك إلّا نادرًا.

كانتْ قد سألت الجريح:

- لماذا تركنا تيلا في رأيك؟

- لا أعرف.

- كيف لا تعرف؟

- قلتُ لا أعرف.

يعضّ الجريح على إجابته، وحقيقة كان لا يعرف، ولم تبدُ له مسألة توظيف الأخلاق في معاملة أمّه التي طلبها من تايلور؛ مسألةً كبيرة، لدرجة أن تجعله يتوارى. وبمغصٍ شديد أقرب إلى الرّثاء على نفسه، وعلى أمّه، يردّد في سرّه:

فليذهب إلى حيث يذهب، لسْنا في حاجة إليه.. أنا كبرت، وهي صانعة شاي شهيرة، ما حاجتنا إلى تالو؟

في حيّ المديرية، حيث يسكن كبارُ الموظّفين،

مُحاطين بالخدم وخفراء البيوت، انطبقت أوصافُ تيلا على خادم، التحق بالخدمة حديثًا في أحد البيوت، قيل لرضيانة، يوجد خادمٌ جديد، بشعر أكْرت، وساقين طويلتيْن، ويرتدي قميصًا أبيض، بجيبيْن في كتفيه، ونصف بنطلون كاكي، وشوهد مرارًا في حديقة البيت يعبثُ بالطين، ويحوّله إلى دمى. انشرحت أساريرها بغتة، شدّت الجريح من يده، واقتحمت حرمة البيت بلا إذن، لتكتشف وجهًا آخرَ غير وجْه تيلا الذي تعرفه، كما لو كان وجْهَ ابنها. في حي واديدي، حيث تربّى الخنازير، ويحتقن الهواء برائحتها النّتنة، عثرت على دفتره الأسود الكبير، الذي تفتّتت أوراقه بفعل الزمن، وقيل لها، هذا ليس دفتر المفقود، ولكنّه من دفاترنا التي نقيّد فيها حسابات العمل، وحين سلّمته للجريح، وقلّب أوراقه عثرَ على توافه، لم يكنْ ليكتبها تالو أبدًا. هذا ليس أسلوبَ تالو يا أمي.. ليس خطّه. خلال ذلك الطواف، الذي كان معظمه في بؤر موحلة، ووسط رجال يتذوّقون المرأة في كلّ حالاتها، وحتى لو كانت في لحظة المخاض، عانت رضيانة كثيرًا، كانت تعتمدُ على فتوّة الجريح في حمايتها، وقد غدا له شارب كثّ، وتستطيع نبرات صوته بقليل من الارتفاع، أن تخيف الضّبع والثعلب، وما كان الجريح حاميًا أبدًا، كان يشدّها للفرار بعيدًا. تربية امرأة، كانت تغمغم في خفوت، وتنقاد خلفه..

كان ما فكّرت فيه رضيانة أخيرًا، أنْ تلجأ إلى الحكومة، طالبة مساعدتها في البحث عن نحّات جنوبي مفقود، ولأنّ الشرطة التي على رأسها

ضابط إنجليزي، لا تهتمّ إلّا إذا فقد أحدُ رعايا دولته، أو كلبٌ من كلابه، أو قطة، فقد عادت صفرَ اليدين من بابٍ طرقتْه، وانفتح ليهشّها، لا ليدخلها عبْرَه.

- لنهدأ يا أمّي وننتظر عودته.. لنعدْ إلى البيت.

يترجّاها الجريح، وقد تعب، ركبتا العداء في جسده تعِبَتا، ومؤخّرته التهبت من ظهور الحمير الخشنة التي ما انقطع عن امتطائها منذ غاب تيلا. تستجيب بصعوبة، وتعود إلى صناعتها مرّة أخرى، إلى إلحاح ضباط شرطة السجون، ليوظفوا ابنَها حارسًا. الوظيفة التي تحلم بها، وتظنّها الدّرع الواقي الذي يحمي مستقبلَ ابنها.

وهي في عنبر الأعصاب، تحتضر من موت النخاع الشّوكي، تصرّ.. تنادي الأطباء بعينيها، وما تستطيع دحرجته من صوت، كلما اقتربوا، تنادي المُمرضات المتعاليات في الزيّ الأبيض، واللائي يلبّين النداء حينًا، ولا يلبّينه أحيانًا كثيرة، وعمال الصيانة الذين يأتون أول المساء، ليراجعوا لمبات الإضاءة، والفنيّين الذين يضبطون كفاءة ضخّ الأكسجين إلى رئتيها، تنادي حتى الطيور التي تحطّ على حوافّ النوافذ، والورق الأصفر الذي يتساقط عبْرَ النافذة من أشجار تموت أوراقُها من العطش:

- تيلا لم يقصّر إلّا في شيء واحد.. فهو لم يعاملني كامرأةٍ أبدًا.

***

-٨-

- فلنقفْ حضرات السّادة والسيدات الحضور، دقيقةً حدادًا على أخي رابح مديني، الذي وافاه الأجلُ المحتوم هذا الصباح.

هذا بالضبط ما ردّده صاحب السيرك عمبابا أزرق العبابيني، أمامَ جمهوره اليومي المعتاد، صباح اليوم الخامس، من ابتداء عروضه في مداري، ووعكة تاجر الحدود الكبير، بعد أنْ أعلن الساحر موتَه في فقرته التي قدّمها يوم الافتتاح، وغادر بعدها تاركًا تلك الفقرة، أقبح فقرة سيركيّة، يشاهدها سكّان مداري منذ قُدِم السيرك العظيم أوّل مرّة.. قالها بحركة مسرحية، وموسيقى خليعة من صوته الكبير المجروح، وكأنّه يقدّم صبورة التعسة لتتنفّس من ثدييها، أو الكلب التشوكي الأبرص ليرقص البانديرا والتش تش، وشجن الغرام، أو شروم الأصلع ليعربد في فقرة النّشل التي لا تترك جيبًا في الخيمة إلّا عبثت بمحتوياته. كأنّه يرفع سيفه الصدئ، ليشقّ الفتاة الراقصة، خضراء العينين. والأجل المحتوم كلمةٌ جليلة، وذات هيبة، ولها ظلالٌ كبيرة وممتدّة، إلى ما قبل، وما بعد، وربّما تدمع لها العيون بسخاء، لو قيلت بحسب قيمتها ووزنها، ووافاه نفسها، كلمة كبيرة أيضًا، لأنّها تعني إمحاء الجسد، وفرحة الروح المحلقة في دنياها الجديدة، أو عذابها.

لم يقف أحدٌ من المشاهدين تلك الدقيقةَ الحداد في الواقع، فليس رابح في نظر أهل البلدة ميتًا تكفيه الدقيقة اليتيمة، ولكن لا بدّ من غسله، وتجهيزه، والبكاء عليه، وتشييعه بما يليق. ميّت برتبة جنرال، لو كان عسكريًّا، ومات في الحرب، ورتبة صقر كبير الجناحين، لو كان طائرًا، ويرفرف في الفضاء، وبرتبة رئيس دولة، لو كانت مداري دولة، وهو رئيسها. حتمًا سيبكيه الجميع، لا عن حبّ، أو معزّة خاصّة، ولكن عن إحساس بفقدٍ كبير، وسيخرج آدم مطر، صاحب بابايا من صمته بوعورة، وربّما يذهب إلى الطبيب إيزايا في أيّ مكان يوجد فيه، ويرتكب واحدةً من تلك الحماقات المعروفة في المدن البعيدة حالما يعود بالجثمان من حدود يوغندا. وكان قد أخرج رابح عنوةً من المستشفى، غير عابئ بمناشدة الطبيب، الذي أحسّ بوجود مرضٍ ما، برغم نظافة التحاليل، وسافر به، ليموت في الحدود مثلما عاش غازيًا لها، وجالبًا إلى البلدة خيرها وشرّها، طوال تلك السنوات التي عاشها، بعد أنْ هجر تنظيف الدواب، وتقليم أظفارها في سوق البردعة القديم..

دقيقة حدادًا، ويبدو عمبابا بوميضٍ غريب في عينيه، وتلك الأناقة غير المعتادة في صوته المجروح، وقد غيّر إطار الخرز في نظارته إلى لون وردي في اليوم السابق، وبعد أن ردّد نشيد آدم وحواء المنقّق كفقرةٍ ختامية، لم ينحنِ مُحَيِّيًا الجمهور، وهو يحتضن موظفيه كما اعتاد في الأيام السابقة، اختتم النشيد، وأعلن بغتةً عن مسابقة لتسمية الفيلين اللّذين يؤدّيان التحية

العسكرية، جائزتها خمسون قرشًا، تسلَّم فورًا لمن يطلق أفضل اسمين عليهما، مع العلم أنّهما ذكر وأنثى، وكانا يحملان اسمين تافهين أطلقهما عليهما أحدُ حرّاس الحديقة الوطنية في كينيا حين كانا هناك. هلّل الجمهور، وصفّقت الأيدي، وبدا أنّ كلّ حلق من تلك الحلوق المحتشدة في الخيمة يتلاعب في قاعه اسمان فخمان، أو غير فخمين. كان عمبابا قد هبط من مسرحه، وتجوّل وسط المشاهدين، ها.. قلِ الاسمين.. ها.. قولي.. ها، وكانت حصيلته أسماء تافهة لا توحي بالفخامة، أسماء مثل سلسل والحلوة، فيلو وفيلة، دردر ودرديرة، إلى أنْ صاحت إحدى الفتيات، وكانت من بنات جوبا المتفتّحات، وقدِمَت إلى مداري لزيارة بعض المعارف: أنجل وطيلسانة.. أنجل الذكر، وطيلسانة الأنثى.

وقف عمبابا أمام الفتاة منشرحًا، وقد راق له الاسمان، سلّمها مكبّر الصوت الذي يعمل بالبطاريات.. انطقي، اسمعينا الاسمين مرّة أخرى، لو سمحت: أنجل وطيلسانة. يا لهما من اسمين رائعين، يليقان بفيلين شاخا في خدمة المتعة منذ كانا في حديقة كينيا الوطنية حتى انتقلا إلى ملكيّة عمبابا. سلم الفتاة مبلغ الخمسين قرشًا، ووعدها برحلةٍ لن تنساها على ظهر أنجل الذي يعشق حملَ النساء على ظهره العريض. بعد ذلك، شوهد عمبابا بشاحنته في السوق، يطالع دكاكين البقالة، ومحلّات بيع الخضراوات واللحوم، ومستلزمات البيوت الشعبية المنتشرة على الأرض، في كلّ شبر في السوق، ثمّ يتوقف

أمام متجر لوازم بالذات. كانت بصحبته الفتاة زيابا، وكانت في ملابس أشبه بملابس الغوّاصين، قميص ضيق من الجلد الأسود، يضغط على جسدها المقسّم، وشعر مُستعار له لونُ تربة مرويّة. كان الكلب التشوكي معهما، وهبط من الشاحنة قبل أن تتوقف ليرقص الباندير وشجن الغرام بمزاجٍ قوي، وأكثر حدّة من مزاجه الرّسمي في خيمة السيرك. دخل عمبابا إلى محل لوازم، يمشي على مَهل، تأمّل اللوحة التي تمثّل تابيتا، جنيّة الليل، التي ما تزال معلّقةً على الواجهة، وحكّ رأسه، التقط لفّة من البلاستيك الشفاف، تحتوي على المشمش المجفّف المسمّى قمر الدين، والمستخدم بكثافة في شهر رمضان، فضّها، وابتدأ يقضم مُحتوياتها. مشى إلى ركن الحلوى، دقّق كثيرًا في تلك الأصناف المتعدّدة، المصنعة محليًا، والتي يأتي بها رابح مديني من الخارج، من ضمن ما يأتي به في تجارته الرّاسخة، واختار حلوى المسمار، المصنوعة محليًا في مداري، وبأيدي نسوةٍ مدرّبات، وكانت مكوّناتها من السمسم، وسكر القصب، وتصنع على شكل مسامير حادّة. ناولها لزيابا وهو يقول:

- اعتبريها حصان طروادة، حتى إشعار آخر.

كان أحدُ عاملي المتجر، واسمه خوجال، من أقارب رابح مديني، عينه في المتجر منذ سنوات طويلة، وكان يأتمنه في كلّ شيء، وقد أدّى واجبه تمامًا أيام مرض رابح، ويؤدّيه دائمًا أثناء سفر تاجر الحدود في مهامّه المستمرة، ناداه

عمبابا، وكان قد لاحظه يتابع يديه، وفمه، ويسجّل على ورقة:

- ما اسمك أيّها المتصابي؟

لم يبدُ العامل منشرحًا لكلمة المتصابي، وحقيقة لا يعرف معناها، ولم يسمع بها أبدًا من قبل، ولا بدّ أنها انطلقت من لسان صاحبِ السيرك بناءً على دلائل عديدة استقاها وهو يتأمّل الرجل.

- خوجال.

لم يعجبْ اسم الرجل عمبابا، ولا أعجبه وجهُ التحفّز الذي كان يحمله، وخوجال، بالرغم من أنه مجرّد بائعٍ بسيط في تجارة رابح، إلّا أنّه كان يملك آراءه الخاصّة، ومعروف في مجتمعِه القبلي، مجتمع المسيرية كلّه، أنه من القلائل الذين لم يذهبوا أبدًا إلى ضفافِ نهر بابي، وينفقوا يومًا آخرَ، بحسب اعتقاده، في الاحتفال بذكرى الزعيم ماجوك، ويأتي سيرك عمبابا كلّ عام، منذ خمس سنوات، ويتقاطر الناس لحضوره، وحتى الذين يتولّون مهنًا تمنعهم من الذهاب كباعة المحلّات التجارية، يُهملون مهنهم ساعةً ويذهبون، لكن خوجال لم يذهبْ إلى السيرك أبدًا، ولا كانت النظرة التي يوجّهها الآن نحو زيابا في جلدها الضيق نظرة إعجاب أو اشتهاء، هي النظرة المسمّاة نظرة (حجُو)، كناية إلى حجو، أحد زعماء المسيرية التاريخيين، والذي كان ينظر للمرأة، وكأنّه ينظر إلى طبيخ بائت. خوجال يعرف أنّ

معلمه الكبير رابح، ما كان ليمرض، ويختفي عن زعامة السوق في ذلك المستشفى الفقير، لولا حضور هذا الضئيل المتغَطْرس، وتحدّث مرارًا مع آدم مطر، طالبًا رأيه في مسألة ارتكاب جريمة، ضحيّتها صاحب السيرك، والجاني هو خوجال المسيري، وكانت هي نفسُها فكرةَ آدم، أنْ يسفك دمًا ما. الأمور تؤخَذ بهدوء أكثر.. وخوجال لا يعرف الهدوء:

- اسمع أيها التيس..

أمسك خوجال بعمبابا من كتفيْه الضئيلتين، بينما ينتفخ خصره الأيمن بما يشبه مدْيَة في جراب، وقد كان الأمر كذلك، وباعة المحلات التجارية في مداري، ومدن الجنوب كافة، تعوّدوا على حمل الأسلحة تحت ثيابهم تحسّبًا لأي قدر مجهول، ربّما يصادفهم، عادة اكتسبوها من أيّام التمرّد حين كان يخرج الجوعى، والممزّقون من داخل الغابات، ويعتدون على السوق، ولم تنهزم تلك العادة حتى بعد أن انهزم التمرّد باتفاق الوحدة الوطنية:

- ادفعْ ثمن ما أخذته فورًا، وخذْ هذه القردة من أمامي.

كان بلا شكّ، قد طوّر نظرة حجو في تلك اللحظة، لم تكنْ زيابا طبيخًا بائتًا فقط، ولكن قردة.

لم يبدُ أنّ عمبابا كان قد وضع نفسه في خانةٍ

غير المرغوب بهم في البلدة حتى ذلك الحين، بالرغم من أنّه سمع كلامًا كثيرًا في حقّه، وهو أمام مسكنِه الخشبي، أو في المستشفى، حين ذهب لزيارة رابح يحمل وردةً بنفسجية، واليوم بالذات في السوق، من خوجال وآخرين، تجمّعوا حوله.. أو بالتحديد جمعتهم زيابا، ولم يكونوا قد رأوا جلدًا ملتصقًا بجلدٍ من قبل.

- دعْ هذه المرأة تحتشم من فضلك.

تحدّث أحدُ المسنّين، وكان في صوته عطش، وفي فمِه ريالة، تدلّت خيوطها حتى صدره، ويحاول مثلَ آخرين أن يقترب. هذه النقطة بالذات كانت حسّاسة جدًّا عند عمبابا، يريد زيابا مُحتشمة، حتى لا تجرجره إلى مصائبَ بلا حصر، وهي بتلك الرخاوة، وانكشاف المفاتن، ويريدها غير محتشمة، وفي ذهنه أموال عاهرةٍ، صمّاء، في مثل هذه المدن السخيفة، لا تخرجَ من جحورها إلّا على نداء المرأة العاري من كلّ ثوب. فرارها في العام الماضي على ظهرِ ناقة، وبصحبةِ عربيّ فقير من إحدى القرى، كاد يمزّق عفتها، هذا أمرٌ سلبيّ بلا شك، وتسكّعها الآن في زي الغواصين داخلَ سوق مزدحم بالتجارة والثروة، ربما يكون إيجابيًّا، لو لمْ يكن خوجال أمينًا جدًّا، وناقمًا جدًّا، ويملك نظرة الزعيم التاريخي حجو للمرأة، وبقية تجار السوق إمّا بخلاء يعضّون على ثرواتهم، أو كبروا وانقطع احتياجهم للمرأة. كان عمبابا يتصارع بداخله، وزيابا تعربدُ في القلوب المحرومة بلا رحمة، والكلب التشوكي الأبرص ضاعت هيبته،

ورقصاته وسط المتجمهرين الذين بدأت أقدامُ بعضهم تركله في محاولةِ الاقتراب أكثر، ولمس ذلك الجلد الذي يرتديه الجلد. كان النهار على وشك أنْ يتلاشى، وزيابا على وشكِ أنْ تصبح فاجرة، واضطرّ عمبابا إلى الرضوخ لمشيئة خوجال، دفع ثمن قمر الدين الذي لاكه، وثمن حلوى المسمار، وشدّ الفتاة إلى شاحنته، ناسيًا الكلبَ التشوكي الذي ركض بعد ذلك حتى مساكن الخشب، ووصل متقطّع الأنفاس. تلك الليلة، لم يذقْ عمبابا قطرة من عرق البنّ، ولم ينمْ نومًا عاديًّا يؤهّله للسطوع نشيطًا أمامَ جمهوره في الصباح، كان يجلس مستندًا على بابِ غرفة زيابا، يحرسُها من احتمال أن تكون ثمّة رغبة هاجتْ هنا أو هناك، وجاءت بصاحبها، وأوقف رجليْن مسلّحين بالعصيّ والخناجر على بُعد أمتار منه، يحرسون زيابا معه، ويحرسونه أيضًا لو غفا، وضاعت حراسته للفتاة التي لم يكنْ يعنيها أبدًا أنْ تسعى لتخفيف ذلك العبء الثقيل عن كاهله، وتظلّ مجرّد فقرةٍ عادية بلا توابل، مِن ضمن فقرات سيركه العظيم.

- لم تكنْ تينا ماترتينوس هكذا..

كان يردّد في سرّه، ويتذكّر الممرضة تينا، الملقّبة بإيزابيلا الحسناء، وسط مجتمعٍ عاشت فيه، ورحلت بسرطان الثدي، وتركتْ له الفتاة التي نظَمَ من أجلها نشيدَ آدم وحواء، ونقّحه بعد ذلك، حتى أصبح الآن نشيدًا مرموقًا، يسمع الناس يردّدونه خلفه، حين يختتم به فقراتِه.

كان ما حفّز آدم مطر، على عصيان رغبة الدكتور إيزايا، وتوقيعه على تلك الورقة التي قدّمها له، بأنه يتحمّل المسئولية كاملة، في استلامه لصديقه المريض، وترحيله بسرعة إلى يوغندا، هو ما وصفته له المُمرضة المسنّة سامتا، التي سهرت طوال الليلة الماضية بجانب تاجر الحدود في مناوبةٍ إضافية مدفوعة الأجر. قالت إنّ رابح كان ينادي أمّه التي ماتت منذ عهدٍ بعيد، ينادي أباه الذي مات من انتشار مرض الكوليرا في الجنوب في أوائل القرن العشرين، وطالب بصوتٍ واضح، امرأةً اسمُها الدّهمية، كانت معروفةً بإجادة غسل الموتى، وتطهيرهم، وماتت هي الأخرى؛ أنْ تأتي حالًا، أنْ تجلب العطور، والليفَ الخشن وتأتي. ارتعدَ آدم مطر بشدّة، ويعتقد الجميع في تلك البلاد المحدودة الثقافة، أن الموتى لا يظهرون بجلاءٍ إلّا لأحياء على وشك الموت، ولا يخاطب الحي ميتًا إلّا إذا كان سيلحق به قريبًا لا محالة. بناءً على تلك النظرية المتأصلة في الجذور، كان بإمكان آدم مطر أنْ يرضخ، أنْ يذهب إلى حفّاري القبور المعروفين في البلدة طالبًا تجهيز قبر، أنْ يذهب إلى محلّ لوازم، ويأخذ من خوجال كفنَ سيّده، ويذهب إلى أيّ خياط حتى يخيطه، لكنّه لم يفعل، ليس عن سعةِ أفق، ولكنْ عن رغبة في بذل آخر ما يستطيع من أجل الصديق. كان لرابح مديني أهلٌ بلا شكّ، أبناء عمومة، وخؤولة، ينتشرون في مداري وما جاورَها، لكنْ لم تكنْ ثمّة علاقة ودّ بينه وبينهم، وكانت إحدى زوجتيه السابقتين من بنات

العم، وأدّى طلاقُها إلى انهيار كلّ جسر يمكن أن يربط رابح بأهله. كان آدم الآن هو مَن يقرّر، ومَن ينفّذ، ومَن يقف بدموع كثيرة أمام جثمان صديقه الراقد على سريرٍ من الحبال، في ظهر عربة الجيب القوية، وقد اصطفّ حرّاس الحدود بلا سجائر قندول، ولا رشاوى، ولا كلام، يتأمّلونه، ولا يصدقون.

- هل هذا هو المعلم رابح؟

نعم.. هو المعلم رابح، الذي وافاه الأجلُ المحتوم، وليس أجل التركي (ندمان قل)، كان سيموت قطعًا، حتى لو لم يكن ثمّة ساحر يأتي من ضمن سيرك عمبابا، ويعلن موته. لكنّ الغريب في الأمر، هو صدق تكهّنات السّاحر حين نعى رجلًا جاء إلى الخيمة بقدميه، وليس مسنودًا على ساعد أحد، رجلًا لم يصَبْ حتى بالزكام، وملاريا المستنقعات من قبل، وشخص بعد ذلك بمرض الوهْم. هل يقتل الوهْم أحدًا؟ يفكّر آدم مطر بضراوة، ولا يطلب من حرّاس الحدود المتصلّبين أن يقفوا دقيقةً حدادًا، كانوا قد وقفوا بإرادتهم ساعةً كاملة ربّما تخلّلتها ذكريات كثيرة، نساء كنّ ألغازًا عصية، وحلّت بطريقة أو بأخرى، أسلحة، وخمور، ما كانت أيديهم المشلولة بفعل جلطات المال التي تحشر في جيوبهم، تعرفها، أو ربّما تعرفها وتتصنع عدمَ المعرفة، هل حللتَ لغزَ سوشيلا يا معلّم؟ نعمْ حللته، ويتناولون اليد التي تصافحهم والتي لا تصافحهم، ولا يعثرون على خاتم أو دبلة، أو أي شيء آخر يدلّ على امرأة،

والآن لا يعثرون على اليد نفسها.

عاد آدم مطر إلى مداري يحمل الموت، برفقته نفسُ الجنوبيّين الأشداء الذين رافقوا تاجرَ الحدود في نزواته، ومغامراته، يحرسون التجارة لسنوات طويلة، وناصروا عشقه أيامَ كان عاشقًا، وصل بهم إلى قرية كمايا في ريف الزاندي البعيد. اتّجهوا مباشرة إلى حي درب المأمور، الحي الاستعماري القديم؛ حيث يوجد بيتٌ كان خاويًا إلّا من سوارة، المرأة الجنوبية، من قبيلة الشّلك، التي ساندت عزوبيّة رابح في خدمة البيت حتى النهاية.

خرجتْ جنازة رابح من بيته، مَتبوعةً بالآلاف، رجال ونساء، وأطفال يافعين لا يعرفون عن الموت الشيءَ الكثير، وجرجرتهم إلى الجنازة، شهرتُها التي تناقلتها كلّ الألسنة في مداري، وما جاورها من القرى والأرياف، والأودية، والخيران الضّحلة، طافت بأحياء البلدة، الراسخة في السّكنى، والتي ما تزال مشاريع أحياء، لم تحفرْ أساساتها بعد، ورافقتها خروقٌ كثيرة في النّظم حين أصرّ قائدُ الجيش المحلي، أنْ يصطفّ عددٌ من جنوده الأشدّاء أمامَ النّعش، يعمِّرون البنادق، ويطلقون الرصاص في الهواء، في تلك الميزة التي لم تمنح من قبل أبدًا لمدني. خروق في عادة البهائم، والكلاب الضّالة، والإبل والحمير، حين كانت تفسح الطريق بلا عصي، ولا صياح في وجْهها، وخروق في العقائد أيضًا، حين تبعها المسيحيّون من أبناء الجنوب، والوثنيون الذين

يعبدون البقر والأشجار، وحمير الوحش، وشوهدَ الدكتور إيزايا بقميص أسود وربطة عنق سوداء، وما كان أحدٌ غيره في البلدة يرتدي رباطَ عنق، وعدد من رهبان الإرساليات الأوروبيّين، القطط الضالة، كما كان يسمّيهم رابح، وطاقم الإغاثة الإنساني الذي تعمل معه السيدة مرجريتا طوسون، والسيدة مرجريتا نفسها، برغم أنها خضعت حديثًا لعملية إزالة الزائدة الدودية في نفس يوم وعكةِ تاجر الحدود، وما زال خيطُ الحرير الأسود مضفورًا في بطنها لم تتمّ إزالته، وفي لحظة بلوغ المقابر في أحد أطراف البلدة، والاستعداد لموراراة الجثمان، مرّت سحابةٌ داكنة، وابتدأ رذاذٌ من المطر الخفيف يتساقط على رؤوس المشيّعين.

كان الرسام النمساوي الشهير، كرستوف أوجين الذي رسم تابيتا، جنية الليل، وغيرها من اللّوحات المبْهِرة المستوحاة من بيئة مداري، وعُلقت لوحة شقاء التربة التي أهداها خصيصًا للبلدة في واجهة المجلس المحلي؛ كان موجودًا في مداري تلك الأيام، كان قد كبر بشدّة؛ عظامه تقوست، وجلده تجعّد، وما عادت يداه المرتعشتان تتحملان عذاب التلوين، ولا أنفه، رائحة أصباغ التربنتين التي يستخدمها في العمل. وقد عاد بصحبة اثنين من المساعدين، لا ليرسم لوحاتٍ جديدةً مستوحاةً من البيئة، ولكن لاعتقاده، أنّ ثمّة خطأ ما في لوحة شقاء التربة تذكَّرَه فجأةً وهو في أوروبا، ولا بدّ من تعديله خوفًا على سمعته من بطش التاريخ الذي سيوثق حتمًا لتلك اللوحة، وعثرَ بالفعل على

وجه حيوان الكنجارو، الذي لم يُشاهد قطّ في تلك الأنحاء، يطلّ من أحد الأركان، ولا يدري كيف تسلل إلى لوحته. أزال الوجْه بعد أن جاءوا له بسلّم طويلٍ وضِعَ على حائط المجلس المحلي، تسلّقه بمساعدة معاونيه، ومشى في جنازة رابح حتى المقابر، ولا يتوقّف عن سؤال كلّ مَن يحتك به في تلك المعمعةِ عن مصير لوحة الجنية، وفي ذهنه حسابات جديدة، وسعر جديدٍ للوحة، بعد أنْ شاهدها على واجهة المحل، واكتشف أنّها واحدةٌ من أعظم اللوحات التي أنجزها في حياته، ولا يجب أن تضيع هكذا في بلدةٍ مغمورة، بلا ضجيج، ولا زوّار منبهرين يهتفون: يا الله.. ما أروعها!

كان عمبابا، صاحب السيرك، موجودًا في الجنازة أيضًا، والفتاة زيابا موجودة بعد أنْ ألزمها تغطيةَ الرأس، وارتداءَ فستان أسود طويل، اشتراه لها خصيصًا من السوق المرتبك، بفقدان تاجر الحدود، وقبل أن يغلق أبوابه، ويتبع تُجَّارُه الجنازة. كان يسير وقد ترك فراغًا أمامه، وفراغًا خلفه وعنْ يمينه ويساره، يداهمه إحساسٌ مرهق بأنّ مدْيَة رابضة في جيبٍ ما قد تنغرس في قلبه فجأة، ويتمتم بين حينٍ وآخر كلمات غير مفهومة، كان يردّد:

لم تكنْ فكرتي أبدًا، ولكنّها فكرة (ململة).. الشيطان (ململة).

أخيرًا دفنوا التاجر الكبير، دفنوه بجوار قبر، كان

رابح في حياته، يعتقد جازمًا بأنه قبرُ أبيه، مديني المسيري، وسعى مرارًا إلى تجديد تربته بالرّمل، وغرس شاهديْن يحملان اسم أبيه، وبالرغم من عدم وجود دلائل تشير إلى أنه قبرُ الأب، خاصّة أنّ من حصدتهم الكوليرا في الجنوب، في بداية القرن العشرين، دفنوا برعب، وبلا غسلٍ في حفر جماعية، خوفًا من انتقال العدوى للأصحّاء لو لمسوهم. دفنوه وذهبوا إلى بيته، ليقام العزاء الكبير، يتوقّعون أنْ تكون البلدة كلّها هناك، الريف المجاور كله، وقطعًا سيحضر مسئولون مهمّون من جوبا باعتبار أنّ موت واحد مثل رابح مديني يستحقّ عناء الرحلة، ويستوجب العزاءَ فيه.

-٩-

أول مرّة اكتشف فيها الجريح أنّ أمّه ليست على ما يرام، منذ عام ونصف العام، وبالتحديد في ذكرى استقلال البلادِ وجلاء المستعمر، التي كانت حتى ذلك الوقت، يومًا وطنيًا مبجّلًا تقام له الاحتفالات، بالرغم من تربّع العسكريّين المُنقلبين على حكومة الزعيم الأزهري، رافع علم البلاد يوم استقلالها، تربّعهم على السلطة، وتقديمهم ليوم ثورتهم، باعتباره اليوم الوطني الأول.

في ذلك اليوم، استدعوا رضيانة الخضر لتكون مِن ضمن صانعات الشاي الرّسميات، اللائي تمّ اختيارهنّ بعناية لتعديل مزاج المسئولين حين يصطفّون في مقصورة الدرجة الأولى بملعب جوبا الرياضي، ويتابعون عرضَ الجيش والشرطة، وتلاميذ المدارس المرتدين أزياء برّاقة، والمحاطين بعقود الورد، والمغنّين الذين سيصدحون بأغنيات الاستقلال، بمصاحبةِ الفرق الكورالية، خُصص لأولئك الفقيرات ركنٌ غير واضح لآلات التصوير، يوقدنَ فيه النار، يصنعن شايَهنّ، ويقدّمنه لعمال يلبسون الأبيض، ويحملونه في صوانٍ مذهّبة الأطراف ليقدّمونه للمسئولين. وقد أضيفت القهوة أيضًا، ولم تكنْ رضيانة متخصصة في صنعها، وحاولت إجادتها من اليوم الذي عرفت فيه بأنها ستكون صانعةً رسمية لها، بجانب شايها العريق. في ذلك اليوم، شاهدها الجريح ترتدي فستانها الأسود، النظيف دائمًا، الذي

تحتفظ به للمناسبات الجليلة، بمشقة، ترتدي ثوبها الخارجي الأخضر المسقّى الرسالة، وتحاول دلقه على جسدها بمشقّة أيضًا، وحين لبست صندلها بعد أنْ لمّعته بخرقة بالية، لاحظ أن قدميها تعومان فيه كما لو كانت طفلةً ترتدي صندل والدتها، وكان من قبْلُ ضيقًا، يعضّ على قدميها، وسبّب لها تسلّخات عديدة في أصبعيْها الكبيرين. لاحظ أنّها تعرج في المشي، وأسندها حتى باب الحافلة الصغيرة، التي جاءت لتقلّها برفقة زميلاتها الأخْريات، ومضى إلى الملعب الرياضي راكبًا دراجتَه الهوائية التي كانت من ضمن مخصّصات وظيفته، حصل عليها بعد أكثر من خمسة عشر عامًا في الخدمة، وبعد أن علّق شريطًا جديدًا في كتفِه. لقد كان ذلك اليوم في عطلة من حراسة السجون، ويسعى للاحتفال بيوم الاستقلال أسوةً بالذين عاصروا المستعمر ومرارته، وتذوّقوا حلاوة الوطن بعد جلائه، وكانت حلاوته من قبْلُ مِن نصيب أولئك الغزاة.

كانت الدوائر الحكومية كلّها وطنية، قيادات الجيش والشرطة كلها وطنية، وأُنشئت مصالح جديدة، كمصلحة الغابات والثروة السمكية، ومصلحة الجمارك لضبط تجارة الحدود الصعبة. كان الجريح يفكّر طوال وجوده في الاحتفال في الخللِ الذي شاهده على أمّه، وكانت من قبل نشيطة وقويّة، وذات قدمين تدكّان الأرض حين تمشيان، وحتى وقت قريب، كانت تستغني عن حمارها أحيانًا، وتقطع المسافة من مطرة جوبا إلى سوق المردة البعيد ماشيةً على قدميها، وقد أصبح

لها الآن كشكٌ رسمي من الخشب حصلت عليه من إدارة البلدية، بترخيص، وله قُفل كبيرٌ تغلق به البابَ على حاجياتها بعد أن ينتهي العمل، وتعود إلى بيتها.

بعد أن عاد حين انتهى المهرجان، وعادت أمّه تلهث، صارحها بملاحظاته، وأنكرت بشدّة أنها تحسّ بمرض، قالت: سقطت على قدمي، والْتَوت، وما كان تبريرًا قويًّا ليقبله الجريح، والتواء القدم لا يُحدث ضمورًا فيها كما يتصوّر، والضمور في قدمين وليس قدمًا واحدة، وهي تلهث، وتردّ على استفساره بصوتٍ متقطع. خاف الجريح بشدّة في ذلك اليوم، لم يكن يملكُ سندًا في الحياة غير أمّه، وقد امَّحى تايلور، السند القديم من الذاكرة بلا شك، ومضى على غيبته أكثرُ من اثنين وعشرين عامًا، ولا يظنّه الجريح- حتى لو عاد مرّة أخرى- سندًا، حتمًا سيكون عالةً من عالات الشيخوخة المُزعجة، ويكون عليه، هو الجريح، أن يسندَه هذه المرّة. أصرّ على أن أمّه مريضة، وأصرّت على أنها في تمام صحّتها، وتعاركا بالأصوات زمنًا طويلًا، استخدم الجريح صوتَ الذئب الذي يعوي، واستخدمت هي صوتًا حاولت أن تطغى به على العواء، ونام الولد جائعًا لأنّ أمّه لم تستطع أن تنهض من جلستها لتسلقَ له البيض، ولا يعرف كيف يسلقُ البيض، أو كيف تصنع عصيدة الفيتريت، وكان قد اقترب من سنّ الأربعين.

في الأعوام الأخيرة، كانت أمّه تلحّ عليه باستمرار

أن يتزوّج، تتذرع بلهفة الأمّ شوقًا لرؤية حفيد، وسعتْ بالفعل لدى جاراتها وزميلاتها في سوق المردة ليخترنَ له زوجة، وكانت الفتيات متوفّرات بشدّة، وأكثر من توافر الرجال، ويعترض بعضهنّ طريقه بالفعل، أملًا في نظرة من عريف بقوّات السجون، ذي وظيفة مرموقة جدًّا في ذلك الحين، ولو طاوع أمّه لربّما كان الآن أبًا لثلاثة أو أربعة أطفال، تحتضنهم رضيانة، وتموت حبًّا فيهم.

في أحد الأيام، اجتمعت الجارات والزميلات كلّهنّ في بيت رضيانة، وقد اتّسع قليلًا حيث مدَّته إلى الأرض المجاورة، وأضافت حجرتين من الطين، آملةً أن تكونا مقرًّا لأسرة ابنها ساعةَ أن تتكون. انتظرن الجريح حتى عاد مِن عمله، شددْنَه من زيّه العسكري، وأجلسنه وسطهن، وكانت لدى بعضهنّ بنات يقْبعن في البيوت، أو يتنزهنّ في الشوارع أملًا في الحصول على فرصة للزواج. كان امتحانًا عسيرًا ومذلًّا، خاضه الجريح تحت سمْع وبصر أمّه التي لم تتدخل أبدًا لنجدته، حتى بعد أن حاولت إحدى النساء المسنّات، تمزيق سراويله العسكرية، والتأكّد من أنه رجل. كانت تصرخ: لا يوجد رجل في هذه السنّ بلا امرأة.. ماذا ولدت يا رضيانة؟ والأمّ ساكنة، وفي قرارة نفسها، تتمنّى لو اكتملت مهمّة المرأة المسنّة، وتأكّد لهنّ جميعًا أنّه رجل حقيقي، رجل كأبيه الذي توصّلت إلى معرفته، وتكتّمت على تلك المعرفة باعتبارها شيئًا يخصّها وحدها، تمامًا مثل عراقيب رجليها، وشعرها الأبيض، ودورتها الشهرية التي توقّفت تمامًا في ذلك الحين. اضطرّ الجريح إلى

قهْر المرأة المعتدية على عورته، برقْيها بعيدًا، وإلى قهر الأخريات بطردهنّ من البيت، ومنع زيارتهن لأمّه مرّة أخرى، وأعلن بصراحة، ولأوّل مرّة في حياته، أنّ المرأة التي يبحث عنها لم تخلَق بعْد، وما كانت رضيانة تعرف، ولا أحدٌ غيرها يعرف، مواصفات تلك المرأة التي لم تخلَق، ما دامت امرأة ما الذي سيختلف فيها، ويميّزها عن الأخْريات؟! تسأل عن أوصافها.. شعرها، عينيها، طولها، عرضها، ابتسامتها، رصّة أسنانها في الفكين، وتلحّ لعلّها خلقت بالفعل، ولم يرها، وستعثر عليها، والجريح يصرّ، ليس بعناد الولد الصغير القديم، ولكنْ عناد الرجل حين يقترب من سنّ الحكمة، وعسكري السجون الذي تمرّس في الخدمة لأكثر من خمسة عشر عامًا، ونال ترقية. تعرف رضيانة جيّدًا أنّ الدنيا ممتلئة بأمراض شتى، وسمعت بالشذوذ الذي يلتوي بالرغبة، يضعها حيث لا يحبّ أن توضع، شذوذ الرجال حين يميلون إلى جنْسهم، والنساء حين يملْنَ إلى جنسهن، وخافت بشدّة أن يكون الولد ملعونًا، وكانت تبخّره بنبات (القرض)، طارد الشيطان، وسلَّطت عداء جنوبيًّا من عشّاق شايها على تتبّعه في لحظات خروجه العشوائي، التي يخيط فيها المدينة، راكبًا دراجتَه الهوائية، وأخبرها العداء بعد عدّة أيام، بما طمأنها وكسرَ خاطرها في نفس الوقت، طمأنها حين أخبرها أن الجريح لم يلتفت أبدًا إلى نداءات الصبية الليّنين الذين كانوا يتكسّرون أمامه، وكسر خاطرها حين قال: حتى النساء لم يكنْ يلتفت إليهن.

استغرق الجريح أيامًا طويلة حتى استطاع أن يقنع أمّه بضرورة رؤية طبيب، عدّد لها علامات المرض التي لم تعدْ سرًّا خافيًا، ولا تعبًا مؤقتًا، يمّحي براحة يوم أو يومين، وزارها كثيرًا في سوق المردة ليوثق منظر يديها المرتعشتين وهي تصبّ الشاي في الأكواب، وحركتها البطيئة جدًّا حين تقوم من جلستها، وحين تهمّ بالجلوس مرّة أخرى، ورافقها إلى البيوت التي كانت تطلبها لعمل الشاي المنزلي، وسمع بأذنيه صياحَ ربّات البيوت في وجهها، وتوبيخهنّ لها، بأنها لم تعدْ تصلح لاستئجار خبرتها بعد الآن، وما اقتنعت بالذهاب لرؤية طبيبٍ إلّا في ذلك اليوم الذي استجدى فيه أجازةً من رؤسائه، وجلس قبالتها في السوق، قرابة التسع ساعات، لم يرَ خلالها زبونًا واحدًا يأتي، وزميلاتها الأخريات مُزدحمات بالزبائن..

كان من حُسن حظّ رضيانة أنّ الطبيب الإنجليزي (رايلي جيمس) المتخصّص في مثل حالتها؛ كان من عشّاق جوبا، جاء في عهد الاستعمار من ضمْن بعثة طبية، ولكنه لم يكنْ مستعمرًا أبدًا، وحين حدث الاستقلال وتمّ الجلاء، استحلفه الوطنيّون الذين احتلّوا الوظائف الحكومية- بناء على هوس السودنة- أنْ يبقى. كان في السبعين، وعاش خمسة عشر عامًا قبل الاستقلال، قال عنها في أكثر من مناسبة: إنها أخصبُ أيام حياتي. وقالوا له: مدّ الخصوبة إلى آخر العمر، وهكذا بقي، وكان بحقّ بارعًا في مهنته، وإنسانًا كبيرًا، شارك في تذمّرات عديدة، وانتفاضات كان ينظمها الوطنيّون،

يهتفون بخروج المستعمر، ويهتف معهم.

أرقدها الدكتور رايلي على سرير الفحص، وعيناه تراقبان مشيها وجلوسها، وسرعة تلبيتها للأوامر التي كان يدلقها على أذنها بلسان عربي فصيح. قاس قوّة يديها وقدميها، قاسَ الإحساس في جسدها بدبوسٍ ذي حافّتين؛ حادة وناعمة، واستخدم مطرقة خاصة ذات نهاية مطاطية لقياس ردودِ أفعال العضلات ساعةَ طرقها، ولكلّ ردّ فعل دلالته، وربما يقود الذّهن إلى مرض معين. استخدم بطارية صغيرة غاص بضوئها في حلقها، وعثرَ على لسانٍ يابس وضامر يتحرّك بصعوبة في قاع الفم. كان المرض خطيرًا جدًّا، مرض بلا شفاء في الوقت الحالي، وربما مستقبلًا حتى تفلح الأبحاثُ الجارية هنا وهناك في اختراع دواء. مرض تليّف النخاع الشوكي، المرض الذي لم يصادفه الدكتور رايلي أبدًا في جسد عربي أو إفريقي من قبل، وعالج عربًا وأفارقة من أمراض شتى، وتقول الدراسات التي أعدّت في هذا الشأن، إنّه مرض أوروبي، أو أمريكي خالص، ويصيب المعمّرين خاصّة، وها هي الدراسات تكذب بشدّة، ويصيب تليف النخاع امرأةً عربية زهوية لم تبلغ الستين بعد، وتضاف إلى كوكبة المعمرين.

- ماذا بها؟!

كان الجريح يسأله، وقد قرأ في عينيه استغرابًا وهلعًا، والجريح ليس غبيًّا، ولم يأتِ للدكتور رايلي من فراغ، هو يعرف أنّ ثمّة خللًا في الأعصاب،

وهذا من تخصّص الطبيب الإنجليزي القديم.

ساقه الطبيبُ إلى خارج الحجرة، ووقفا في ممرٍّ ضيق، تتراصّ على جانبه الحجرات، وتفوحُ رائحة المطهّر قويّة، ومزعجة، استوثق أولًا من قوّة أعصابه، حين جعله يشاهد جثّةً مكشوفة الوجه لرجلٍ مات في الحجرة المقابلة، وينقلونه إلى الخارج وسط العويل، وكان قوي الأعصاب بحكم عمله سجّانًا، وفي تلك الأيام بالذات، جاءوا بعشرات الضباط العسكريين الذين حاولوا الانقلاب على السلطة في العاصمة، وشاهدهم الجريح يعذّبون بالكي، وخلع الأسنان، والسياط على الظهر، ويتركون أيامًا بلا أكلٍ ولا شرب من دون أن يرمش له جفن. قوي الأعصاب لكنه خائف، خائف جدًّا، وتمعّن في الوجه الميت بلا أي اهتزاز.

- ماذا بها؟

- مرض تليف النخاع الشوكي النادر.

- وكيف أصابها ما دام نادرًا؟! وما هي أسبابه؟

يتساءل الجريح، وتتساءل معه يداه اللّتان كان يحركهما في الهواء بلا معنى، وعيناه اللتان رعى فيهما الرّمد الصديدي في الصغر، وحوّلهما إلى عيني فأر، ولا بدّ أنه تذكّر أيامًا ماضية، توقّف عند أيام حاضرة، ومشى ذهنه بعيدًا إلى المستقبل حين يكون يابسًا بلا رضيانة. كان الطبيب محتارًا، وحيرتُه ليست بسبب المرض الذي شخصّه بمهارة،

ولكن بسبب تساؤل الجريح الذي لا يعرف كيف يردّ عليه: في الطبّ عمومًا توجد آلاف العلل التي لا تخضع لأي قانون، العلل التي تسبّب نفسها بنفسها، وتتمرّد على أي حل، وكانت الفيروسات التي تسبب أمراضًا شتى، ولا تستجيب لمحاولات طردها من الجسم، خير دليل على أنّ الطبّ ما يزال ضعيفًا جدًّا، ويحمل سمعةً أكبر كثيرًا من حجمه. هو رايلي جيمس نفسه، أصيبَ منذ عشرة أعوام بالتهاب الكبد الوبائي، وما زال الفيروس المسبّب يعيش في دمه، يتنقّل من عضوٍ إلى عضو، ويبطش بالكبد التي حتمًا ستتمزّق في يوم ما:

- حسنًا..

ردّ في صوت هادئ..

- توجد أمراض بلا مسبّبات، ولا علاج، ومرض أمّك من أحدها.

- هل ستموت؟

صرخ الجريح.. هل ستموت؟ لم تكنْ صرخته مميّزة، هي الصرخة المعتادة تقريبًا التي يمكن أن يصرخها أي شخص يحسّ بأنه سيفقد عزيزًا. ولم يكن لدى الجريح أعزّ من أمّه، ولا شكّ أنّ معزّته لها لن تنخفض، حتى لو عرف ماضيها، وأنّها تحتفظ بالسر الذي يخصّها وحدها، تمامًا كما يخصّها مرضها الخطير، وعجزها. العبرة هنا

بما قدمته له حتى نضج، والغفران لم يخلق إلّا لاستخدامه، وكان حتمًا سيستخدمه.

- ليس في هذه اللّحظة، ولكنّ موتًا بطيئًا ربما يستغرق عامين أو ثلاثة. أمّك بحاجة لعنايتك، فاعْتنِ بها جيّدًا، لا مانع من أخذها أحيانًا إلى السوق لترى حاجياتها وتخدم زبونًا أو زبونين، ولكن حين تصبح عاجزة تمامًا، أو يضيق تنفسها؛ أحْضرها إلينا.

بهذا التوضيح التّعس، اختتم الطبيب رايلي حوارَه مع الجريح، عاد معه إلى الحجرة حيث كانت رضيانة قد نهضت من رقدةِ الفحص، عدَّلت ثيابها، وجلست على مقعدٍ تنتظر. تأمّلها الجريح كأنه يتأمّل تحفةً غالية في يدِ طفلٍ يهمّ بتحطيمها، وكاد يسقط باكيًا لولا أنّه تذكر في اللحظة المناسبة أنّه حارس سجون، ولا ينبغي أن يبكي السجّان تحت أي ظرف. وصف لها الطبيب عدّةَ عقاقير، من تلك الأنواع التي لا تنفع ولا تضرّ، ويصفها الأطباء عادةً حين تكون المخرج الوحيد لنيْل الثقة، ولا يمكن أن يأتي المريض ويخر ج هكذا بلا دواء.

أسندها الجريح على كتفه حتى باب المستشفى، حيث أركبها عربة قديمة، كان قد استأجرها حين جاء بأمّه، وكانت تنتظر، وسائقها الجنوبي غارقًا في متعةِ سجائر القندول. وفي البيت، وحين سألته عن مرضها، أجاب محاولًا أن يكون خفيفَ الظل، وما كانت خفّة الظلّ من طبعه:

- إنّه مرض التفكير في الزواج، أنت تحتاجين زوجًا.

وكانت غلطته التي جعلت الأم برغم إرهاقها، وإحساسها بمصيبتها الكبيرة، تردّد غاضبة:

- أنا أم أنت في حاجة للزواج؟ اسكتْ من فضلك.

لم يكن ندمان قل، الذي نبش المخازي المدفونة في مداري، وأمات تاجرَ الحدود الكبير- بحسب اعتقاد الكثيرين-؛ تركيًّا، ولا ساحرًا، ولا اسمه (ندمان قل). إنّه عبد الغني با شاكر، أحد أفراد أسرة باشاكر المعروفة، من أصل حضرمي، والتي تقيم في حيّ الشجرة القديم في أطراف مدينة الخرطوم، وكان قد فرّ من البلاد أواسط عام ١٩٧٣ بعد اتّهامه باختلاس أموال طائلة أيّام تولّيه منصب مساعد مدير لأحد المصارف الكبيرة.

كان يوجد في قلب نيروبي، بالقرب من متحف السكة الحديد، مقهى اسمه (نوستالجي كافيه)، أيْ مقهى الحنين، أسّسه رجل أعمال كيني، واسع النشاط، لاصطياد المهاجرين إلى كينيا، خاصّة من دول الجوار؛ باعتبار أنّ الحنين هو السلطة الأقوى التي تحكم الناس حين يتركون بلادهم لأي ظرف، أقوى من سلطة العسكر والحكام، وأجهزة القمع كلّها، ويمكن أن يجرّ المهاجر صاغرًا إلى بلادِه مرّة أخرى في أي لحظة. في ذلك المقهى ذي الطابقين، والحوش الواسع المشجر بالنيم والسنديان، وزهور الرافليسيا؛ نُقشت لوحات من الجبس تمثّل الحياة كاملة في معظم دول الجوار، نقشت أنهار معروفة، وبيوت وعادات وتقاليد، وذكريات ذات طعم، ربما يشاهدها الغارقون في الحنين وتدمع أعينهم، وكان الجرسونات الذين يرتدون لباسًا إفريقيًّا زاهيًا، معظمُهم من

دول الجوار؛ فيهم عرب وزنوج، شباب وشابات، ويخدمون بابتسامةٍ هي أيضًا مُستقاة من علم الحنين، ابتسامة الأخ أو الأخت، أو الجار المتغلغل في قلب جاره.. ولأنّ الطعام يحتلّ صفحات متعدّدةً في كتاب الحنين، فقد خصّصت له قوائم طويلة وعريضة، لم تغفل أي وجبة شعبية، أو غير شعبية، يمكن أن يطلبها أحد.

كان عمبابا أزرق من رواد نوستالجي كافيه، عاصر تأسيسه في مطلع الستينيات، ورافق مسيرته منذ بدأ مغمورًا، وأصبح ذا شهرة كبيرة، تزداد زبائنه يومًا بعد يوم، كان يعثر فيه على ما يعيده إلى مداري، ما يذكره بعصائد الفيتريت الحارة، وشراب القضيم الحلو والمرّ، في نفس الوقت، وعشرات الحكايات والأغنيات التي افتقدها كثيرًا في مغتربه الطويل. وقد عمل في بداية قدومِه إلى كينيا بوّابًا لإحدى البنايات التجارية القديمة، ولم تظهرْ عليه في تلك الفترة التي قضاها في الوظيفة، وحتى تقاعد في سنّ السادسة والخمسين، أي علامات، تدلّ على أنه سيصبح ذات يوم، نصف ساحر، وصاحب سيرك فقير، يعود به إلى مداري وغيرها من مدن بلاده، ويسافر به أيضًا إلى يوغندا، وعدد من الدول الإفريقية الأخرى، جالبًا حصاد ديمومة، الحصاد الهزيل الذي لا يليق بشيخ، يفترض أن يتقاعد مسالمًا، وينفق ممّا ادّخره، وما كان قد ادّخر شيئًا أبدًا. هو بيتٌ من الطين في حي تعِس، يعيش فيه منذ أن جاء، وإلى الآن، ولمَّ منه ديمومة وصبورة، وغيرهما من العاملين في سيركه. هو شبح امرأة كينية،

تزوجها وعاش معها سنوات كلُّها مشاكل، حتى رحلت، ولا شيء تقريبًا عن ولدين، ولدهما من صلبه، وتركاه وهاجرا إلى أمريكا حالمًا امتلَكَا أفقًا يزيّن لهما سكّة الهجرة. كان يعجبه في نوستالجي كافيه، الذي لم يصطحب إليه الفتاة المعلقة في رقبته زيابا، قطّ، أن يلتقي بوجوهٍ من بلاده، أن يتعرّف على متغيرات الحياة هناك، ومداري لا بدّ أن تتغير، مثلها مثل أي بلدة في العالم، حتمًا يمّحي سوق قديم، ويولَد مكانه آخر، حتمًا يتغيّر شكل البيوت، والشوارع، تتلاشى الدواب شيئًا فشيئًا، وتحلّ مكانها العربات، وتظهر أجيال جديدة من السكّان لها أفكارها الخاصة. يحب عمبابا أن يسمع أخبارًا عن فتيات من جيله، كن زهرات، وشِحْن، ورجال قهروه ذاتَ يوم وقد رقدوا في التراب. ويفكّر باستمرار في العودة، لكن لا يريدُ أن يعود منهزمًا بعد تلك الهجرة الطويلة، وأخبروه مرارًا أنّ قبيلة العبابين التي ينحدر منها قد انقرضت تقريبًا، ولم يبقَ منها سوى عدة أفراد، هُم أيضًا في طريقهم للانقراض، واستوثق من ذلك بنفسه حين زار مداري أوّل مرّة بصحبة سيركه، ولم يجد أحدًا ذا أهمية من العبابين يستقبله، وعثرَ على بيت أسرته القديم أطلالًا لا توحي بأي شيء. وعلى مدى سنوات، التقى في ذلك المقهى الغريب بمهاجرين كثيرين، بعضهم استقرّ بالفعل في نيروبي أو ضواحيها، وأسّس حياة قد تستمرّ طويلًا في تلك البلاد، وبعضهم مجرّد أطياف عبرتْ بنيروبي، في طريقها إلى حيوات أخرى في بلاد أخرى، التقى بعسكريّين سطوا ذاتَ يومٍ على

أحلام شعوبهم، وتمرّدت تلك الشعوب عليهم وكنَسَتهم، نساء مارسْنَ عدم الطهر في بلادهن، وفرَرْن سعيًا وراء آثام مرْبِحة، راقصات عروض شبقيّة، وعمّال صرف صحي، وأطباء حنثوا بقسم أبُقْراط المقدس، وتركوا آثارَ حنثهم حيث غادروا.. وقبل عدّة أعوام، كان في نيروبي مهرجانٌ كبير للنحت الكلاسيكي، ضمّ نحّاتين من مختلف دول العالم، وحُوّلت الشوارع الخضراء المزدانة بالأعلام الملونة إلى صالات عرض كبيرة ممتدّة، التقى في ذات المقهى بالنحّات اليوغندي المعروف، تايلور تيلا، وكان قد قدمَ من بلاده ليشارك بمنحوتاته التي أنجزها مؤخرًا في ذلك المهرجان الكبير. لمحه عمبابا بلحيته الكثّة البيضاء، يرتدي قميصًا أبيض، بجيْبين في كمّيه، ونصف بنطلون كاكي، ويجلس على إحدى الموائد يدخّن النرجيلة وبجواره امرأةٌ شابّة تبدو فرنسية، مهجّنة بجينات من جزر موريشيس، أو أيّ مستعمرة فرنسية أخرى تعطي تلك الملامح. كان عمبابا لا يعرفه شخصيًّا، لكنّه التقى بصوَرِه التي تنشَر من حينٍ لآخر في الصحافة الكينية، واستغرب من وجوده في نوستالجي كافيه، وما كانت تلك الأيام القليلة التي سينفقها في كينيا ستحرّك فيه حنينًا إلى بلده يدفعه للجلوس على طاولة في مقهى الحنين. اقترب عمبابا من النحّات، حيّاه باحترام، مستخدمًا لغة فرنسيّة يُتقنها، وكذب بشدّة حين تحدّث عن ولعه الشديد بفنّ النحت، وأنه يعتبر تايلور تيلا رائدًا في هذا المضمار.

- رائد بالفعل.. لا أحد يقول غيرَ ذلك.

هتفتِ المرأة الهَجين، وهي ترفع خصلةً من شعرها الحريري، انزلقت على عينيها، وكان صوتها ناعمًا ومغردًا، بينما وضع النحّات خرطوم نرجيلته على الطاولة وواجه عمبابا، الذي كان يرتدي قميصًا أحمر بياقة خضراء، وسروالَ وبرِ الخراف البني الذي يحبّه، ولم يبدُ للنحات في أحسن الأحوال، أكثر مِن راعي إبلٍ صحراوي، ممتلئ بالفضول، أو واحد من عمال سحب براميل المراحيض، تلك المهنة المنتشرة بشدّة في إفريقيا ذلك الوقت، حيث لم يكنِ الصرف الصحي كاملًا، ومعمّمًا على كلّ الأحياء.

لم ينتظر عمبابا حتى يدعوه النحّات للجلوس، في الواقع كان يتوقّع ألّا يدعوه، سحب كرسيًّا خاليًا وجلس، يدفعه فضولٌ أخرق، أنْ يسأل النحات عن سبب وجوده في هذا المكان، وكان بإمكانه أن ينفردَ بصاحبته الهيفاء في مكان أكثر رقيًّا، ولا يعثر عليه فيه واحدٌ غير متناسق مثله.

- هل أنت كيني يا مسيو؟

كان النحّات يسأله.

- كيني غير أصلي.. أنا من جنوب السودان.. من بلدة مداري.

- مداري؟ تقول من مداري؟!!

بدا كأنّ تايلور تيلا قد فوجئ، وذلك أمرٌ لا

يفاجئ إلّا شخصًا يعرف السودان، ويعرف مداري، وفرّ منذ أكثر من اثنين وعشرين عامًا حتى لا يواجه أنثى، كانت من مداري، ويعاملها باسم الأخلاق كما طلب ابنُها منه. في تلك اللحظة فقط، تذكّر رضيانة الخضر، ملكة الشاي في سوق المردة، التي صنع هو بدايتها، تذكّر أنه كان فستانًا ضيقًا على جسدها، وتمزّق، وأنه كان أبًا غير مُطابق المواصفات، اضطلع بأبوّة ولدٍ صغير حتى كبر، ولم يغيّر لغة الصّغار في مخاطبته.. تالو.. أبي تالو.. شاهده عمبابا، يبتلّ بالعرق، يحرّك يديْه في عصبيّة، وكانت فرصة ليتأمّلهما، ويستغرب من أظفارهما التي تشبه الحجارة، وتحتها أوساخٌ لا تشبه أوساخ الأظفار العادية، أوساخ ملوّنة. شاهده ينهض وكانت ساقاه طويلتيْن، ويرتدي حذاءً فاخرًا، لا يحلم أمثال عمبابا بارتدائه أبدًا.

- هلّا عذرتنا قليلًا يا كريستي؟

كان يخاطب المرأةَ الهجين التي بدتْ عيناها مستغربتين، لكنها لم تقلْ شيئًا بينما سحب عمبابا من يده، وذهب به إلى طاولةٍ منعزلة في أحد الأركان، عليها شمعةٌ مُضاءة، ومزهريّة بها ورد طازج. الآن يحدثه بعربية، ليست سلسةً تمامًا، إنها لغة أهل جوبا التي يتحدّثها الجنوبيّون كافّة، وتمثّل جسرًا رائعًا للتفاهم بينهم وبين العرب الذين يقطنون مدنهم وقراهم.

- ماذا تشرب يا أخي؟

وكانت فرصةً لا تعوّض للفقير المتشرّد أنْ يطلب أغلى شرابٍ من مشروبات الحنين، شراب القضيم الذي ما تذوّقه منذ ترك مداري إلّا حين عاد برفقة سيركه العظيم.

- حسنًا.. أنا من جوبا.. من مطرة جوبا.

- ألست يوغنديًّا سيدي؟

هتف عمبابا مستغربًا حقيقة، وفي ذلك الحوار الإذاعي الذي استمع إليه بالصدفة من راديو صغيرٍ يملكه، ويديره أحيانًا. تحدّث النحّات عن جزءٍ كبير مِن سيرته، قال الكثيرَ عن طفولته الفقيرة في حيّ شعبي، بيوته من الطين والصفيح، وتعلمه النّحت في السجن حين اعتُقل ذاتَ يوم عن طريق الخطأ، ولم يذكرْ أبدًا أنه ليس يوغنديَّ الأصل، وإنما مهاجر من مكان آخر.. لقد فهم عمبابا معنى وجوده في نوستالجي، الحنين.. الحنين بلا شكّ. في تلك الجلسة التي استمرّت قرابة الساعة، نسيَ فيها النّحاتُ رفيقته الهجين، وتفرّغ تمامًا لفضول عمبابا، حكى له تاريخًا مطوّلًا عن جوبا أيام الاستعمار، عن حي المطرة الذي تركه زبالة، ولا بدّ قد طالته يدُ الإصلاح، حي الملكية الذي كان أفضلَ حالًا، وتحدّث- بحبٍّ- عن شخصين طالما أحبّهما، وتألّم بشدّة حين اضطرّ للهجرة وتركهما وراءه، بائعة شاي ملكة، وابن لها: لا تسألني عن الاسْمين أرجوك؛ لأنّني لا أتذكّرهما الآن، فقط أتذكّر أنّ المرأة كانت تناديني تيلا، وأضفته إلى اسمي ليصبح تايلور تيلا، أنا أصلًا

تايلور تريفور. وحقيقة أنّ عمبابا لم يسأله عن أيّ اسم، ولا بدا يهمّ بالسؤال، والنحات لم ينس اسم رضيانة ولا ولدها الجريح، فقط هي غطرسةُ الفنان الكبير حين يتذكّر ماضيًا. ولا يعلم تيلا أنّ تلك المرأة ما نسيَتْه قط، تمزّق الفستان عن جسدها، لكن رائحته ما تزال عالقةً بالجسد.. لم يقصّر.. لم يقصّر أبدًا. ورضيانة نفسها لا تعلم أنّ تايلور كان موجودًا في جوبا أيّام تمزّقت قدماها في البحث عنه، والتهب ظهرُ الجريح بالدمامل مِن كثرة امتطائه لظهور الحمير؛ موجودًا، ويتابع البحث عنه بدقّة، وما غاص في عمق إفريقيا راكبًا عربات المهرّبين المتهالكة إلّا بعد أن تأكّد تمامًا من يأسها، وأنّها عادت إلى سوق المردة، لتصنع شايها العريق. وفي رحلته نحو النجوميّة التي لم تكن سهلة، كانت تأتيه أيامٌ يتمنّى فيها لو أصغى لنداء الجريح وأمسك بحبل الأخلاق، نزع عنه اللاعقيدة، وارتدى عقيدتها، لربّما وافقت على الزواج منه، وفي أسوأ الفروض، ألا توافق، ويعودان إلى نقطة البداية.. امرأة عربية زهوية، ممتلئة بالدمامل والجروح، ورجل جنوبي لاصق حتى بالهواء الذي تتنفسه، لم يكن ثمّة فرقٌ كبير.

سأله عمبابا إنْ كان ينوي العودةَ إلى مدينته مرّة أخرى، أو على الأقلّ زيارتها من حينٍ لآخر، ودعمها بالمال، بعد أنْ غدا غنيًّا ومشهورًا، وأخبره أنّه- شخصيًّا- عاد إلى مداري، ووجدها قد تغيّرت تمامًا، وأنه عمبابا أزرق العبابيني، صاحب السيرك العظيم، الذي يعرفه كلّ فنان محبّ للمتعة. لم

يبدُ النحات مستبعدًا احتمالَ عودته، أو زيارته المؤقتة لمدينة جوبا، فقط لم يعنِ له اسم عمبابا ولا سيركه العظيم شيئًا، ردّد:

- أنا لست محبًّا للمتعة.. ولم أسمع بذلك السيرك.. عذرًا أخي.

كانت نهايةً بائسة لجلسة عمبابا مع النحات، لكنّه برغم ذلك لم ييتئس، طلب ورقةً وقلمًا من إحدى النادلات، كتب اسمه، واسم سيركه، ومكان خيمته، ومواعيد العروض التي غالبًا ما تكون في وقت الظهر، سلّمها للنحات الذي وضعَها في جيبه، وغادر إلى حيث صاحبته الهجين، وكانت قلقةً ومتذمّرة، وأصرّت على الرحيل فورًا، وهكذا خرجا من مقهى نوستالجي، وعمبابا ما يزال في جلسته يتجرّع شراب القضيم ببطء شديد، ويفكّر بلا انقطاع في النجاح الذي حقّقه جنوبي فقير من مطرة جوبا، بينما هو ما يزال متشردًا، وصاحب صنعة لا تدرّ المال بقدر إدْرارها للمشاكل. كان في الواقع يتمنّى لو أنّه كان النحات، والنحاتُ كان صاحبَ سيرك، ونصف ساحر، وأحسّ بالندم أنه أفلته هكذا بسرعة، ولا يعرف إن كان سيراه مرّة أخرى أم لا؟

اليوم الذي صادف فيه عمبابا، عبد الغني با شاكر، كان يومًا آخر من أيام عصفِ الحنين، ذلك العصف الذي يهري القلب، ويجرّ القدمين مباشرة إلى نوستالجي كافيه. كان ذلك في العام قبل الماضي، وبعد عدّة أشهر من عودته من الجولة

السنوية في مدن جنوب السودان، العام الذي طرح فيه مسألة الشراكة التجارية مع صديقه رابح مديني، وتفّهَه تاجر الحدود. في أحد الأركان المنعزلة للمقهى، شاهدَ رجلًا أبيض، ومتأنقًا إلى حدٍّ ما، بقميص أزرق، وبنطلون كحلي، ورباط عنق متداخل الألوان، كان يجلس صامتًا، يحدق في نقوش الحوائط المختلفة، وساقي نادلة لامعتين، تركتهما بعيدًا عن حماية ثوبها القصير. لم يكن المكان مزدحمًا في تلك الساعة، وكانت أمسية خريفية مبهجة، وتصدح أغنية إفريقية ملائمة لكل عطشى الحنين، بصوت المغني العظيم علي فرتكاري، من جهاز أسطوانات كبيرٍ، موضوع على أحد الرفوف. انشغل عمبابا بالغريب الصامت، ولا يدري لماذا انشغل به، شبّهه أولًا على مواطني بلاد الشرق الأوسط، مثل مصر، ولبنان، ودولة إسرائيل اليهودية، ثمّ ألغى التشبيه، وفكّر في الأتراك الذين شاهدهم مرارًا في كينيا، وصادق مرّة واحدًا منهم، وعَدَه بجلب كثيرٍ من الحيل الخادعة الجديدة من تركيا حالما يذهب ويعود، لكنه ذهب ولم يعدْ مرّة أخرى أبدًا. كان عمبابا يفكّر، وقد برد شاي الزنجبيل الذي طلبه، ولم يأخذ منه رشفةً بعد: فمه تركي، أذناه تركيّتان بلا شك، أنفه تركي، القميص الأزرق الذي يرتديه، مصنوع في تركيا، حذاؤه غير معروف الأصل. طال تفكير عمبابا، ولم يحسّ أنه انهزم في تخمينه، فقط أراد أن يستوثق بنفسه، نادى النادلة ذات الساقين المكشوفتين، وكان قد رآها تحادث الغريب وهي تخدمه، والغريب يبتسم، سألها عنه، وكان الردّ المفاجأة: إنه من السودان.

صحيح أنّ عمبابا كان عربيًّا، ومن قبيلة العبابين العربية التي سطَتْ- مع غيرها من القبائل العربية الأخرى- على جزءٍ كبير مِن همّ الجنوب وثروته، ثمّ لتنقرض بعد ذلك، هو عربي داكن البشرة، وفي بلاده عربٌ بيض، وبعضهم يقترب حتى مِن لون الأوروبيّين، ومع ذلك تفاجأ، أنْ يكون الغريب من بلاده، ذلك شيء لم يتوقّعه. همّ في البداية أن ينهض ويقتحمَ عزلته كما فعل مع كثيرين مِن قبْل، لكنّه تريّث قليلًا، ستأتي فرصة قطعًا، وفي مثل تلك المقاهي، وتحت ضغط الحنين، وبين مخالبه، تحدث أشياء بعيدة عن التوقّع، وشاهد من قبل نجّارًا مهاجرًا من إفريقيا الوسطى يخرج منشارًا حادًّا من حقيبة يحملها، ويهمّ بنشر ساقي نادل مسكين لأنهما تشبهان ساقي بوكاسا إمبراطور إفريقيا الوسطى، واضطر عمبابا إلى التدخّل شخصيًّا، واستخدام واحدةً من الحيل القليلة التي تعلمها، بأن رفعَه بغتةً عن الأرض ليحزّ منشاره الهواء قبل أن يسقط. الفرصة جاءت بسرعة، وقد ارتفع صوت الغريب فجأة في وجْه النادلة التي كانت تخدمه، كان قد طلب الحساب على شاي النعناع الذي شربه، وفوجئ بسعر إرواء الحنين الباهظ، وردّد إنها سرقة.. سرقة.. وفي تلك اللحظة، كان عمبابا يسحب كرسيًّا ويجلس أمامه، ويشير إلى النادلة أنْ تمضي.

- اهدأ يا أخ.. لا سرقة ولا أي شيء.. أنت تشرب دواء الحنين هنا وليس شاي النعناع.

أجفل الغريب كما لو كان قد لُدغ، تراجع في كرسيه مذعورًا، ولم يكن منظر عمبابا في ذلك اليوم بالذات غريبًا أو مزعجًا. كان يرتدي ملابس عادية جدًّا، بعيدةً تمامًا عن تقاليع نصف السّحرة التي يمارسها. كان الغريب يردّد، بينما يتلفت في المكان.

- إنتربول.. أليس كذلك؟ أنتَ من الإنتربول.

ارتفعت معنوياتُ عمبابا بشدّة؛ أولًا، فقد عثر على رفقة استثنائية، ربما تفيده مستقبلًا بجلوسه على مائدة رجلٍ يطارده البوليس الدولي، وثانيًا لأنّ الرجل ارتقى بهيكله الضئيل الذي لا يفيد الشرطة في شيء، ولا يمكن أن توظفه في سلكها، حتى لو جاء أمرُ توظيفه بمرسومٍ جمهوري.

- اهدأ.. اهدأ.. أنا عمبابا أزرق.

- علي بابا؟

كان الغريب ما يزال متوجسًا، وأساء إلى صاحب السيرك بشدّة حين حرّف اسمًا عبابينيًّا عريقًا، لم يسع عمبابا أبدًا إلى تغييره، ويعتبره ميْزة، وعلامة تجارية فخمة، لا تتوافر كثيرًا لأحد.

- عمبابا أزرق العبابيني.. صاحب السيرك العظيم.

أيضًا، وكما حدث في حالة النّحات تيلا، لم يعنِ ذلك للغريب شيئًا، ولم يصدر منه أي تعبير ينمّ عن

المعرفة. كان قد استعاد جزءًا من الثبات، تأمّل به صاحب السيرك، وهدأ تمامًا. الرجل الذي فرّ من بلاده بعد أن اختلس أموالًا مصرفية، وُصفت بأنها طائلة، وتشرذم في بلاد عربية وأوروبية بلا حصر، ضاع فيها كلّ ما اختلسه تقريبًا، كان سريع التوجّس بلا شك، ويمكن أن تقتله ذبابة تافهة لو سقطت في كوبِ شايه فجأة، لم يكنْ ذا خبرة طويلة في مواصفات رجال الشرطة، وفرّ سريعًا، وقبل أن يرى وجهًا شرطيًّا يطالعه، أو يخضع لواحدٍ من تلك التحقيقات المزرية التي تتسلل حتى المثانة، وتحتلب السوائل. هدأ، وطلب تفسيرًا لجلوس صاحب السيرك على مائدته.

- اعتبرني صديقًا.. من أصدقاء الغربة.. وشايك على حسابي.

لا يعرف عمبابا، لماذا تورّط في تلك الجلسة أصلًا، ولماذا سيدفع ثمنَ إرواء الحنين عن رجلٍ يطارده الإنتربول، ويبدو- مظهريًّا- أكثرَ ثراء من قبيلة العبابين كلّها، ولا يعتقد عمبابا أنّ في جيبه ما يمكن أن يفي بتلك الدعوة، وقد غدَا سيركُه العظيم بعد عروضه اليومية لسنوات طويلة، حين يكون مستقرًّا في نيروبي؛ بلا حصاد تقريبًا، تتجوّل ديمومة بين الناس القليلين، وتعود بإناء شبهِ فارغ، وجرّب أن يصنع تذاكر مُسبقة الدفع وفشلت التجربة، حتى بعد أن جعل التذاكر برخص التراب. كانت ثمّة عدّة مخارج فكّر فيها كثيرًا، ولم يصلْ إلى حلّ، فكّر أن يعيد شروم الأصلع لصًّا من جديد، يعربد في جيوب السياح

الوافدين إلى نيروبي بغرض رحلات السفاري، والمتسوقين في المحال التجارية، والراكعين في الصلوات في المساجد؛ حتى يعيش الآخرون، خاصّة زيابا، ذات التطلّعات الغريبة، في بيئة بلا مستقبل. وتلك الحيوانات الهَرِمة التي تعشق الأكلَ أكثرَ من عشقها لأي ترفٍ حيواني آخر. فكّر أنْ يلغي السيرك تمامًا، ويعمل في وظيفة متسول، وعثر بالفعل على ركن ضاج، بالقرب من مصرف كينيا المركزي، لا يشغله متسولٌ آخر في الوقت الحالي، جرّبه يومًا واحدًا، وكانت حصيلة لا بأس بها. وحين زار مداري في المرة الأخيرة، واستضافه تاجر الحدود، صديق سوق البردعة القديم، وشريك إغواء ملكة الشاي، كما يفعل في كلّ مرة؛ راودته فكرة أنْ يستفيد بثروة صديقه، أن يصلح بها حالَ السيرك، ويدخل بها نشاطات استثمارية أخرى، ولم يخطرْ بباله قط، أنْ يركله رابح، أن يرفض معاونته، ويعيده مرّة أخرى إلى كينيا وقد امتلأ بالغلّ، بالرغم من أنه تصنّع عكسَ ذلك، وعاد في اليوم التالي من عراكه اللفظي مع تاجر الحدود إلى الابتسام في وجهه، وتكملة الضيافة حتى رحل. لقد بات يمقتُ "رابح" منذ ذلك اليوم، يراه أعزب وأخرق، وغارقًا في النعمة حتى أنفه، وتجري تجارته سلسةً بلا عوائق، كلاهما نظّف الدواب في سوق البردعة وقلّم أظفارها، كلاهما كان ضائعًا وجائعًا، وابتسمت الدنيا لرابح، بينما ما تزال تكشّر بضراوة في وجهه، وقد بلغ سنًّا كان على الدنيا فيه أن تنظر إليه بشيء من الاحترام. صحيح أنّ في مداري بعض الميسورين الذين يدعمون سيركه،

يوفّرون له الأكل والشرب، ومئونة حيواناته الجائعة دائمًا، لكنْ كان ذلك شيئًا مؤقتًا ينتهي بانتهاء عروضه هناك، ويعود من رحلاته مخمورًا بالنجاح، ويكتشف حين يصحو في ذلك الحي القذر الذي يسكنه، وعلى صوت الفتاة زيابا، تطالبه بتوفير متطلّبات المرأة لها؛ أنّه مجرّد متشرّد، عاش هكذا، وغالبًا ما سيموت هكذا. تورّط بالفعل في تطفّله على الرجل المطارد دوليًّا، ولا يعرف حتى الآن جرمَه، ولا يبدو له قاتلًا؛ لأنّ القتلة يملكون عيونًا مشوّهة، وأيادٍ ثابتة، والرّجل ذو عينين ناعمتين، ويدين ترتعشان. لا يبدو مناضلًا تحرّريًّا، ولا عسكريًّا مُنقلبًا على حاكمه؛ لأنّ هؤلاء لا يطاردون رسميًّا بواسطة البوليس الدولي، وإنما تطاردهم ميليشيات خاصّة، مدرّبة، تنفّذ فيهم أحكام الإعدام رميًا بالرصاص في أيّ جحر يلِجُونه، سيسعى لمعرفة قصته ما دام قد وصل لهذه النقطة.. يفكر عمبابا، ويهمس في أذن الغريب.

- ما دمنا قد تصادقنا، فأخبرني بقصتك، لعلّ يوجد لديّ حل.

تلك اللحظة بكى باشاكر بعنف، أخرج من جيبه منديلًا أبيض ملوثًا بدموع ليالٍ وأيام كثيرة، أضاف إليها دموعَ اليوم التي يذرفها في نوستالجي كافيه، اندلق بسهولة شديدة أمام عمبابا، وحكى له كلّ شيء؛ اسمه، واسم الدلع الذي ينادَى به في البيت، أسرة باشاكر التي ينتمي إليها، عنوانه القديم في حي الشجرة بالخرطوم، كيف أغواه

الشيطان، واختلس مال المصرف الذي يعمل فيه، وحوّله إلى حساب سريّ في أوروبا، كيف فرّ بعد أن اشتمّ رؤساؤه رائحةَ جرمه، وسعوْا للإيقاع به، وكيف ترك امرأة حاملًا لا يعرف مصيرها ولا مصير الطفل الذي كان في بطنها. كان قد أنفق المال كلّه في تغطية نفقات فِراره من بلدٍ إلى بلد، جوازات سفر متعدّدة، شراء ذممٍ بلا حصر، إدمان الكحول نوعًا من السلوى، والآن في نيروبي المحطة الأكثر أمانًا التي وجدها، ودلّه عليها أحدُ الأفارقة، وكان قد تعرّف عليه في لوكسمبورج. لكن المشكلة الحقيقية، في كونه بلا مال ولا صنعة، ويقيم برفقة تسعين عاملًا من عمّال الشحن البري في مستنقع يخلو من كلّ أثرٍ للإنسانية، وهذه الأناقة التي تبدو عليه هي آخرُ قميص وبنطلون وربطة عنقٍ تبقّت لديه يغسلها ويكويها كلّ يومين، وقد فكّر كثيرًا في العودة إلى الخرطوم، وتسليم نفسه للسلطات هناك، ووجدها فكرةً جدباء ومُرّة وحنظلًا، الأفضل أن يقضي حياته متشردًا، مِن أن يمضي ليلة واحدة في السجن.

الكرةُ الآن في ملعب عمبابا أزرق العبابيني، وقد بدأت أفكار مريبة تتحاوم في رأسه. أسهلُ شيء في الدنيا أن يقوم من تلك الجلسةِ ويمضي إلى طاولته، أو بيته، تاركًا باشاكر، غارقًا في معضلته وحده، كأنّه لم يره قط، أو يحادثه. أنذلُ شيء وأخسّه أنْ يذهب من فوره إلى فرع منظمة الإنتربول في كينيا، ويبلغ عن لصٍّ كبير فارٍّ من بلاده، يبكي على إحدى الطاولات في نوستالجي

كافيه ويعود يكمل شاي الزنجبيل الذي بدأه. لكنّ عمبابا لن يفعل هذا ولا ذاك، سيعتبر الغريب المختلس هديةً من القدر وضعَها في طريقه، ويوظّفها في أي شيء يخطر بباله فيما بعد. وحتى لو غيّر له أناقته، وكساه بثوب ممزّق، متّسخ، ووضعه في الركن الضاج بالقرب من مصرف كينيا المركزي.

- أريدك أن تثق بي أولًا، ونفكّر في حلّ لمشكلتك فيما بعد.

كان يخاطب الرجل، وينظر في عينيه مليًّا، محاولًا تجربة تنويمِه مغناطيسيًّا بدافع التسلية، الحيلة التي درسها، وتدرّب عليها مئات المرّات عند الساحر الكيني، ولم يستطع إجادتها أبدًا. هي الحيل الثلاث المعروفة.. شقّ الفتاة بالسيف، تعليق أحدٍ ما في الهواء، وربّما تحويل أرنب مذعور، أو حمامة مسكينة إلى لوحٍ من الخشب.. لم يستجبْ باشاكر لتنويم عمبابا بالطبع، والحيلة دائمًا فاشلة.

- أثقُ بك طبعًا، وحدّثتك عن كلّ شيء.

ردّ الرجل، وكان صوته عاديًّا هذه المرّة، ومألوفًا، كأنه يتحدّث في جلسة سمر.

تحدّث عمبابا بعد ذلك إلى كبير الندل في نوستالجي كافيه، طلب منه أن يمنحه فرصةً حتى يعود بنقودٍ في يوم آخر، يسدّد بها حساب

حنينه، وحنين اللّص المفلس، وكان الرجل يعرفه، ووافقَ بلا تعقيد، وخرجا معًا لا ليفترقا عند الباب، ولكن ليسيرا مسافةً طويلة جدًّا على أقدامهما، ويصلا إلى الحي التّعس الذي يقيم فيه عمبابا، ويقيم جيش سيركه، ولم يكن عمبابا يستخدم شاحنته في نيروبي، ذلك ببساطة شديدة، أنّها لم تكن ملكه، وكان يستأجرها بمقطورتها فقط حين يذهب في رحلاته الخارجية. لم يذهب بالرجل إلى بيته، حيث زيابا وحياتها الرّخوة، وآواه في جحر من الطينِ معروشٍ بالصفيح، يبتعد قليلًا عن بيته، ويقيم فيه عاملٌ مراحيض شابٌ من قبيلة العبابين، هاجر إلى كينيا منذ عدّة سنوات، وتعوّد عمبابا على ممارسة بعض النزوات في بيته بعيدًا عن عيني الفتاة زيابا، ليست نزوات الخطيئة مع النساء التي كانت لديها أماكنها الخاصة، ولكنْ تلك التي تختصّ باحتمال اصطياد مالٍ ما من سائح، أو عابر سبيل، أعجبه السيرك العظيم، طلب من الغريب أن يبقى مختبئًا في ذلك الجحر، يشارك عامل المراحيض في أكله وشربه، وتدخين سجائره، إن كان يدخن، ولا يخبره عن أي شيء من ماضيه، ولا يخرج، وينتظر حتى يأتيه.. سيفكّر له في حلّ.. سيفكر.

***

-11-

كانت مفاجأة حقيقيّة للقليلين الذين تنفضوا من عزاء رابح مديني، في اليوم الثاني لوفاته، وذهبوا إلى السيرك العظيم لمشاهدة العرض الأخير، والتحقّق من تلك الإشاعة التي انتشرت بسرعةٍ رهيبة عن مسابقة جديدة، جائزتها خمسون قرشًا أيضًا لتسمية الكلب التشوكي الأبرص، إنّه لم يكن هناك ثمة عرض ختامي، ولا مسابقات جديدة، والكلب التشوكي الأبرص، تمّت تسميته من قبْل عشرات المرّات، وفي بلاد متعدّدة، رقص فيها الباندير‌ا، والتش تش، وشجن الغرام، لكنّه كان يرفض التّسمية بإصرار، يتمرّد على كلّ اسم فخم أو غيرِ فخم ينادَى به، ويفضّل أن يظلّ هكذا، كائنًا شبحيًّا بلا اسم.

وقف عمبابا مُمسكًا بمكبّر الصوت، الذي يعمل بالبطاريات، يقرأ نشيد آدم وحواء المنمّق، وقد التفّ حوله موظفوه كلّهم، يردّدون النشيد خلفه، والجمهور القليل يردّد خلف الموظفين ليرتقي النشيد الطويل المملّ ارتقاءً كبيرًا في ذلك اليوم، يصبح فقرةً وحيدة ومحبوبة، برغم ما يثيره من سخط النساء، ويكون البدايةَ والنهاية لسيرك عمبابا العظيم، الذي كان يواصل عروضه في إفريقيا لأكثرَ من سبع سنوات، وعرفته مداري وسائر مدن الجنوب منذ خمس سنوات، وأصبح نجومه، خاصة خضراء العينين، الفتاة زيابا؛ أسماء معروفة في تلك المجتمعات المغلقة، وضيقة

الأفق. انتهى النشيد بخيْره وشرّه بتعديد مساوئ المرأة والمحبطات التي ترافق الحياة معها أو تحت ظلّها بتلك الفقرات المشرقة، عن دم الحيض، وآلام المخاض المهلكة، والتجرّد من الذات في لحظة الرضاعة، وآدم، ذلك المخذول بشدّة أمام سطوة حواء، المنهزم دائمًا، حتى لو كان حاكمًا ديكتاتوريًا، أو آكلًا للحوم البشر في غابات واق الواق، لو كان نابليون بونابرت. انتهى النشيد ووقف الناس، ولم تحمْ ديمومة بإنائها الفخاري لتجميع شيء، والنشيد كان مجانيًّا، وصرخ عمبابا بصوتٍ جرحه حتى نزف:

- حضرات السادة والسيدات الحضور، شكرًا لقدومكم اليوم، ووقوفكم معنا طوال تلك السنوات التي جئنا لكم فيها بالمتعة، حضرات السيدات والسادة، بنهاية حديثي هذا، يكون السيرك العظيم قد انتهى، لا أقصدُ النهاية المؤقتة مثل كلّ عام، ولكنِ النهاية التي تعني النهاية، لن يكون ثمّة سيرك عظيم بعد اليوم يقدّم عروضًا في أي مكان، سنتصرّف في معداتنا وحيواناتنا، وغالبًا ما نستقرّ معكم في مداري، ليس كأصحاب سيرك، ولكنْ كمواطنين عاديين، نشارككم وتشاركوننا كلّ شيء. مرحبًا بكم دائمًا، ونلتقيكم في هذه البلدة الجميلة.

كان الجمهور قد ارتبك بشدّة، وهو يسمع ذلك الخطاب الصارخ، الذي قام بحذفِ واحدة من أهمّ وسائل الترفيه في بلدةٍ بلا ترفيه. السيرك الذي ينتظره الجميع كلّ عام لينفقوا سبعةَ أيّام

ضاجّة بالدهشة، بالرغم من أنهم يعرفون تفاصيل الفقرات كلّها، وبعضهم كان يعود إلى بيته في كلّ مرّة يشاهدها، محاولًا تقليدها، كأنْ يرفع أحدهم سكينة حادّة ويحاول شقّ زوجته، لتتلملم بعد ذلك وتمنحه قبلة، وتنجرح الزوجة في تلك المحاولة كأنْ تحاول امرأة مسنّة إدخالَ ثدييها الضامرين في مغامرة التنفّس من الحلمتين، التي تجيدها صبورة، وتخرج بدلًا من ذلك غازات مِن تحتها، كأن يجبر أحدهم واحدًا من كلاب الشوارع الضّالة على رقص البانديرا وشجن الغرام، محاكاة للكلب التشوكي الأبرض، ويعضّه الكلب الضال، وكأن يذهب ولدٌ متشرّد إلى السوق يدخل يده في جيوب المتسوقين، ويضبَط، ويدخل السجن.. صحيح أنّ عروض هذا العام كانت خشنةً بعض الشيء، حين قدم ساحر تركي لأول مرة، أيقظ أمام الجميع ما كانوا يحرصون على إبقائه غافيًا على وسادة النسيان، وساهم في حرمان أصحاب المخازي الغافية من حضور فعاليات السيرك لبقية الأيام، حتى بعد أنْ ذهب الساحر. صحيح أنّ تاجرًا كبيرًا تعرفُه البلدة كلّها، وما جاورها من القرى والأرياف والأودية، والخيران الضحلة، قد توفي متأثرًا بخشونة اللّدغة، لكن لا يستطيع أحدٌ أن يتصوّر مداري بلا سيرك موسمي. ولا وسيلة لتغيير الملل فيها، سوى ذكرى الزعيم ماجوك، وكانت يومًا واحدًا في السنة. لم يكن الجمهور يعرف ماذا يدور في ذهن عمبابا أزرق العبابيني، ولماذا حذف أسبوعَ الترفيه ذلك، ليس في بلدتهم فقط، ولكنْ في أي مكان، وخمّنوا أنها بلا شكّ صدمة شديدة أصابته من جرّاء وفاة

صديقه القديم رابح مديني، وبسبب ساحرٍ أحضره هو، ويدقّقون في وجه عمبابا، وصوته، وسلوكه بعد موت الصديق، ولا يعثرون على آثار تلك الصدمة. رابح لم يمِتْه الساحر.. يردّد العقلاء في مداري، وافاه الأجل المحتوم، وكان ميتًا بالفعل، حتى قبل أنْ يأتي الساحر. لم يكونوا يدْرون ما يحدث في ذهن عمبابا، ولو استطاعوا دخول ذلك الذهن لاكتشفوا مستعمرات تفكير خبيثٍ مشيّدة هناك. انتهى رابح مديني.. هذه نقطة إيجابية في مهمّة إشفاء الغليل، التي اخترعها في كينيا، واستمرّ الإعداد لها أكثر من عام حتى نفّذت، والآن ينظر عمبابا إلى ما بعدها.. ينظر إلى سوق مداري الذي قرّر غزْوَه، وتعديل تجارته بأنشطةٍ جديدة لا تخطر على بال سكان البلدة، وقطعًا ستبهرُهم. ماذا سيحدث للنساء القانعات بالكحل، وزيوت الكركار رديئة الرائحة التي تلوّث الشعر، حين يفتتح صالونَ تجميلٍ تديره الفاتنة زيابا، بمواصفات جديدة، وماذا يحدث للرجال حين يتذوقون النساء المنقّقات بيد خبيرةِ تجميل سيأتي بها خصيصًا من كينيا. كان قد فكّر في تجارة الدراجات الهوائية، وافتتاح محلّ لإصلاحها، وما كان ذلك نشاطًا معروفًا أيضًا، وسيقوم به شروم الأصلع بوصفه أكثر موظّفي السيرك العظيم شبابًا، وأسرعهم في التعلّم. صبورة صاحبة الثديين المتنفسين لا يحتاجها في الوقت الحاضر، وعليها أن تعود إلى بلادها للتنفس في أيّ زريبة أخرى، وديمومة لا يحتاجها كذلك، ولتحمل إناءها الفخاري المنكود إلى الجحيم. لم يكن عمبابا يملك قرشًا واحدًا في جيبه يفيض عن

حاجة الأكل والشرب، وما استفاد من موت تاجر الحدود سوى في إشفاء الغليل، لكنّه سيبيع أنجل وطيلسانة، الفيلين الهرمين اللّذين يعشقان الأكل والشرب أكثرَ من أيّ ترف حيواني آخر، سيبيعهما لواحدٍ من هواة جمع التذكارات، سيعتبرهما تذكارين حتى يموتا. والكلب الأبرص ما زال رشيقًا برغم شيخوخته، وقد اتفق على بيعه بالفعل لرجلٍ كيني مسنّ، يعتقد أنه سيسلّيه في وحدته. كان قد رسم في ذهنه مرارًا، وجه خوجال الذي يدير محلّ تاجر الحدود الميت، ولا يعرف إنْ كان سيديره في الأيام القادمة أم لا، وقطعًا سيظهر ورثة لرابح من أي شقّ، وقد يطردونه، ويوزّعون الغنائم. فكّر في نقاط ضعف ربما تتوافر في خوجال، ولم يتوصل لشيء محدّد بعد. آدم مطر، صاحب بابايا، لم يكن يهمّه كثيرًا، وليس في نظره أكثر من صديق واجمٍ للتاجر الميت، حاول أن يلعب دورًا في أيامه الأخيرة ولم ينجح، وأكثر ما سيفعله أنْ يشتاط غضبًا حين يتغيّر السوق، وتحتكره الأنشطة الجديدة، وربما يأتي بخنجر أو سكينٍ ويذبحه. ساعتها تكون مشاكله قد حلّت نفسَها بنفسها.

حين ترك باشاكر في بيت قريبه، عامل تنظيف المراحيض العبابيني، وذهب إلى بيته، كان ساخنًا بالأفكار إلى درجة الحمى، حمّى خبيثة اجتاحت ذهنه، ومنعته من تفقّد زيابا في حجرتها، والتأكّد من أنها نائمة، أو تتسلّى بحلوى حصان طروادة، التي كوّمها لها قبل أن يخرج، ويذهب إلى نوستالجي كافيه، وكان ذلك اليوم إجازة رسمية لعروض السيرك. خلف المنزل مباشرة،

كان الفيلان اللذان سمّيا مؤخرًا، أنجل وطيلسانة، غافيَين في حظيرتهما، والكلب الأبرص لا يحبّ الحظائر، ولا الأقفاص الخانقة، يتجوّل أحيانًا بمزاجه في الشوارع، يأكل من أيّ مستنقع يجدُ فيه أكلًا، ويعود للنوم في صالة البيت الوسخة، العارية من أيّ نكهة معروفة لصالات البيوت. أكثر ما كان يرهق عمبابا في حياته، بجانب فقره الأكيد، ورفض الحياة أن تعامله باحترام بعد أن شاخ؛ تلك الفتاة زيابا، يحسّ أحيانًا بالندم أنه وقّع على وثيقة تبنّيها أمام محامٍ كيني، وبحضور امرأة مريضة بسرطان الثدي في مراحله الأخيرة، لكن لم يكن ثمّة مناص من قبول تلك الوصاية، والمرأة المحتضرة اختارتْه هو مِن دون أي أحدٍ آخر من معارفها لتولّي تلك المهمة، قالت إنّ إحساسها هو ما دفعها إلى ذلك، وشتمَ عمبابا إحساسها مرارًا، خاصّة حين كان يضطر إلى حذف إحدى وجبتيه اليوميّتين حتى يحضر بثمنها مساحيقَ تجميل، أو دهانات شعر، أو غيرها؛ لتحسّ الفتاة أنها فتاة مثل الأخريات. لا يملك عمبابا ملامح الأوصياء، ولا قدرتهم على الصمود، ولا كانت مهنته تليق بوصي، تعلّق في رقبته فتاة طائشة، وأجبرته زيابا على مطاردة عرْيها، ومحاولة ستر القليل منه، وكان يدقّق كثيرًا في وجوه رجال صادفهم، يتحاومون حول الفتاة، يتمنّى لو عثر في واحدٍ من تلك الوجوه على رغبةٍ نظيفة لا تحملها إلى فراش محرّم، ولكنْ إلى فراش صحي، موثّق بشهود، وحفل عرس، حتى يزوّجها ويرتاح، ويبحث عن فتاة غيرها، يتدرّب على خدعة شقّها بالسكين. وكان لا يعثر أبدًا،

والفتاة نفسها لم تكن تساعد في تحويل رغبات الراغبين إلى مسار صحيح. تحبّ قمصان السّتان القصيرة، تحبّ تنانير الجينز المرقعة عند السائحات اللائي تشاهدهن في السيرك، أو في الشوارع، وتأتي لتعدل تنّورة صامتة من تنانيرها، تحوّلها إلى واحدةٍ ذات صوت صارخ. وكان أكثر ما يخشاه عمبابا أنْ يأتي ذات يوم، ولا يجدها، يخاف أن تفرّ، وهذا ما حدث بالفعل بعد ذلك، حين تعلّقت بقروي تافه من ضواحي مداري، وفرَّتْ معه على ظهْر ناقة، وعادت لتجده قد اخترع نشيدًا كاملًا عن خصائص المرأة، ونقّقه بعد ذلك ليصبح فقرةً ختامية في سيركه. وكان الأرقُ الأكبر بعد ذلك، هو احتمالَ أنْ تكون قد فقدت ما يميّز الفتاة عن المرأة، ولم يسترح حتى أحضرَ قابلة مسنّة يعرفها، اطّلعت على مخابئ عفّتها، وهي نائمة، وطمأنته.

جلس عمبابا على سريره الخشبي المتهالك في حجرته، واستجاب لحمّى الأفكار، في الواقع كان مستمتعًا بها جدًّا، ويتمنّى ألّا تنقطع أبدًا، وأشرق وجهُه فجأةً حين عثر على (ململة).. ولم يكن (ململة) ذلك سوى الشيطان الذي انبثق من الحمّى وتجسّد أمامه، يحاوره بصبر، ويصبح بعد ذلك رفيقَه الأثير في كلّ لحظات انفرادِه بنفسه. لم يكن يدري لماذا سمّاه (ململة)، واقتنع تمامًا أنّه الاسم المناسب للشيطان المناسب.. لم يسمع بكائن بشري اسمه (ململة).

في البداية، وضع ململة مزيدًا من الحطب على

صدره المشتعل ضغينةً تجاه رابح مديني.. امقته.. احقدْ عليه أكثر.. دكّه، ساوِهِ بتراب الأرض.. لا ترحمْه.

- هل توجد طريقة أخرى يا (ململة)؟

- لا توجد طريقة أخرى، ولن تحصل منه على شيء.. دكّه،، ساوِهِ بتراب الأرض.

- كيف يا (ململة)؟

- هاك مهمّة إشفاء الغليل.. ولن تخيب أبدًا.

- وما الفائدة لو خسر رابح، أو مات حتى، ماذا أستفيد أنا يا (ململة)؟

- تروي غليلك.. أليست هذه فائدة؟

- الرجل صديق قديم يا (ململة) من أعزّ أصدقائي.. كنّا نتقاسم الجوع والشبع، وفراش ملكة الشاي، ويوجد ولدٌ مفقود يحتمل أن يكون ابني أو ابنه.

- لو كان صديقًا حقًّا لساعدك وأنت في هذا الضيق. الصديق يساعد صديقه.

- قد يكون معذورًا يا (ململة).

- لا يوجد عذر.. لديه ثروةٌ تكفيه وتكفيك، وتكفي مداري كلها، لا يوجد عذر.. لا يوجد.. لا

يوجد.. لا يوجد.

استمرّ حوار الحمّى طوال الليل، طاردًا أي رغبة في النوم تطلّ برأسها، وفي اليوم التالي، وقف عمبابا خائرَ القوى يقدّم فقراته الروتينية، وفي رأسه يتمطّى (ململة) بين لحظةٍ وأخرى، دافقًا في الذهن فكرةً جديدة، وملقيًا بمزيد من الحطب على النار.. دكّه.. ساوِهِ بالأرض. وحين بلغت حصيلةُ الأفكار عددًا بدا ثقيلًا على الذهن؛ نادى شروم الأصلع، كلّفه بتقديم بقية الفقرات، وانسلّ من الخيمة لينحشر في إحدى حافلات النقل العام المكتظّة بالبشر، يذهب إلى جحر عامل المراحيض العبابيني؛ حيث ترك المختلس المطارد باشاكر. ولم ينسَ حين نزل في الحي التّعس، أن يعرج على محلٍّ صغير، يبيع شطائرَ الجبن والعسل، اشترى شطيرتيْن من أجل الرّجل، ويتوقّع أن يكون قد نام ليلته بلا عشاء، وعامل المراحيض لن يكون حريصًا على تغذيته، ولا يهمّه الأمر في شيء. وحده عمبابا، ورفيقه المتحرّك في الذهن (ململة) مَن سيهتمّان من الآن فصاعدًا بتهيئة الغريب، وتسخيره بطلًا لمهمّة إشفاء الغليل الصعبة، غيرِ مضمونة النتائج. كان ما توقّعه عمبابا صحيحًا، فقد عثر على عبد الغني باشاكر راقدًا على حصير من السعف الجاف في الغرفة العارية إلّا من ذلك الحصير، وعدّة وسائد يتناثر من أحشائها قطن أسود، يتلوى من الجوع، وبيده صورةُ امرأة شابة، بعينين باسمتين، وبطن بارز، لا بدّ أنها زوجته التي تركها حاملًا، ولا يعرف مصيرها، أو مصير ما كانت تحمله. كان يتأمّل الصورة بشرَهٍ، كأنّها

قدح ممتلئ بالطعام، يسد بمحتوياته ذلك الجوع الكافر. هبّ الرجل واقفًا حالمًا لمحَ كيس الورق المحتوي على الشطيرتين، هجم عليه، ومزّقه، و(ململة) في داخل ذهن عمبابا يضحك.. يردّد من بين ضحكاته:

أحسنت حين عالجت الجوع.. أحسنت.

الذي دار بين عبد الغني باشاكر وبين عمبابا بإيحاءٍ من (ململة)، كان حوارًا طويلًا، ومتشعّبًا، وسخيفًا في بعض الأحيان، حين يقطعه المختلس بادعاءاته، أنه ابنُ أكابرٍ وليس محتالًا، وما كان في موقف ابن أكابر على الإطلاق، بل في واحدٍ مِن أغبى مواقف المحتالين، لم يستفدْ بما اختلسه، ويوجد محتالون كثيرون يختلسون أضعافَ ما اختلسه، ولا يتشرّدون في الدنيا تحت رحمة الظّروف، وعيون الشرطة الدولية، ولا يَلِجون مقاهي الحنين ليسقطوا تحت قدمي صاحب سيرك في قلبه ضغينة، يظلّون في بلادهم، ويتحوّلون بما سلبوه إلى وجهاء مجتمعيّين، وقد لا يحفلوا بنسائهم الحوامل، ولكنْ يتطلّعون إلى غيرهنّ من الفتيات.. لست ابنَ أكابر يا أخ، اسكت. ويسكت باشاكر مرغمًا، و(ململة) ما يزال نشيطًا، وعامرًا بالأفكار، وكانت المحصّلة أنْ يقبل الرجل القيامَ بالمهمّة، لقاءَ أن يأكل ويشرب، ويقيم بصفةٍ دائمة عند عامل المراحيض، ويحصل على نصيبٍ من أي مال ربما يدخل جيب عمبابا من وراء تلك المهمّة، أو غيرها.

كانت فكرةُ (ململة) غايةً في الوضوح، أنْ يستغل عمبابا ضعفَ تاجر الحدود أمامَ السّحرة وقرّاء المستقبل، وإيمانه العميق بالخرافات، تلك الأشياء التي يعرفها عمبابا عنه جيّدًا، وسخِرَ منها أيّام سوق البردعة القديم، وقبل أن يتحوّل إلى صاحب سيرك يتكسّب من الخداع، سيتحوّل الموظف المصرفي الهارب بملامحه التركية كما قدر عمبابا، أو (ململة) الذي بداخله؛ إلى كابوس يزلزل تاجرَ الحدود، وربّما يشلّه، ويبعثر تجارته إلى الأبد، وأضاف ململة فقرةً أشبه بالأمنيات، وهي أنْ يأتي رابح إلى عمبابا بعد أن يتشرّد وتضيع مدخراته، ويستجدي تشغيله في السيرك جامعًا للفُتات في إناء الفخّار الأسود، وساعتها لن يقصّر عمبابا، سيطرد ديمومة المسنّة بطيب خاطرٍ، ويمنحه الوظيفة.

- لن تنفّذ المهمّة في الموسم القادم.

كان (ململة) يتحدّث داخل عمبابا:

- تحتاج إلى معلومات كثيرة، ويحتاج رجلُك إلى تدريب، وأهمّ من ذلك أن تظهر في مداري، حين تذهب، ظهورًا عاديًا، لا يوحي بمهمة إشفاء الغليل التي تُحاك.. لا تظهر عداءك لرابح.. مفهوم؟

- حسنًا يا (ململة)، لا بأس.. سأسمع كلامك.

خرج جمهورُ السيرك من داخل الخيمة، ما يزال

غيرَ مصدّق، وخرج عمبابا يمسك بساعد الفتاةِ خضراء العينين يمنعُها من التحدّث إلى عشرات الرجال الذين كانوا يسألونها بمغص، إنْ كانت ثمّة فرصة لرؤيتها مرّة أخرى في مداري مِن ضمن سيركٍ جديد، وكانت مثلهم متفاجئة، وتسمع بتفكيك السيرك، معهم، وفي نفس الوقت الذي أعلن فيه عمبابا ذلك، ولا تدري بماذا تجيب، واستسلمت ليدِ الرجل الضئيل وهي تشدّها.. كانت ثمّة مظاهرة أخرى نظّمها العاملون في السيرك، ولحقوا بعمبابا يتساءلون.. ما مصيرُنا يا ريس؟ أين نذهب يا ريس؟ هل سنبقى هنا في مداري حقًّا، أم نعودُ إلى كينيا.. وصبورة، صاحبة التنفس الغريب بالذات كانت تولْول، وتعرف تمامًا، أنّها لن تحصل على أيّ وظيفة مرّة أخرى، وقد غدا التنفّس من الحلمات خدعة كلاسيكية قديمة، ما عادت وسائل الترفيه الجديدة تعترف بها. وديمومة التي ما تزال ترتدي القميص الذي يشبه جلدَ الثعابين، لم تعلّق، واكتفت بأن ضمّت إليها إناءَ الفخّار الأسود في قوة.

- ماذا بشأن أنجل وطيلسانة، والكلب التشوكي؟

كان برباري عبدو، الكيني مروّض الفيلين، وصديقهما الحميم الذي درّبهما على أداء التحية العسكرية، وهُما في سنّ الشيخوخة؛ كان هو مَن سأل، ومِن حقّه أن يسأل، أصالةً عن نفسه، ونيابةً عن صديقيه الحميمين اللّذين كان يعتني بهما جيّدًا، وينام معهما في حظيرةٍ واحدة، ولولا اختلاف تغذية البشر عن تغذية الحيوان؛ لاقتسَمَ

معهما اللقمة.

- احرمني من الماء وقصبِ السّكر الذي أحبّه، ولا تحرمني من أنجل وطيلسانة.

لم يجبْه عمبابا على الفور، اقتاد موظّفيه إلى غرفته الخشبية بعيدًا عن جمهور زيابا الذي يحسّ بالحسرة، طالبهم بالجلوس على مراتب الإسفنج المشتتة في الغرفة بلا نظام، وجلس هو قُبالتهم، وبصوتِه الكبير المجروح، تحدّث عن الأزمة الكبرى التي يمرّ بها السيرك، ويعرفون الكثيرَ من تفاصيلها:

"ليست أزمة أكل وشرب، وعلاج، وأشياء حياتية تافهة، سهلة الحل، ولكنّها أزمة معنويّات. أنا بلا معنويات تساعدني على المضي قُدمًا والتطلع للمستقبل، أنتم بلا معنويات، الفيلان والكلب الأبرص معنوياتهم في الأرض، وحتى الجمهور الذي كنّا نتولّى إمتاعه، كلّ تلك السنوات بلا ثمنٍ نزيه، ما عادَ يملك معنوياتٍ يتابعنا بها.. نحنُ في الأرض يا رفاق.. في باطنها الممتلئ بالحمم، وليس ظاهرها الرحيم.. آملُ أن تفهموني".

- وماذا سيحدث لنا؟

تساءل الجميع في صوتٍ واحد.. ماذا سيحدث؟

- نغيّر النشاط تمامًا، نقتحمُ التّجارة هنا في مداري، ونرى إن كنا سننجح فيها أمْ لا، ليس

كلّنا بالطبع في الوقت الحاضر، فقط مَن يملك موهبة.. زيابا تملك مواهبَ بلا حصر.. شروم يملك مواهبَ أيضًا، وأنا عمبابا أزرق مَن سيستثمر تلك المواهب، ويوجّهها التوجيه الصحيح.. لقد بعثُ الكلبَ العجوز لرجلٍ مسنّ في نيروبي، دفع فيه مبلغًا سيفيدنا في البداية، وغدًا أدقّ جرسًا نحاسيًّا في الخيمة، وأفتتح المزاد على أنجل وطيلسانة لعلّ شاريًا مغفّلًا يشتري، وإن لم يحدث ذلك سأدقّ جرسًا آخرَ في نيروبي. عودي إلى بلادك يا صبورة، وتنفّسي من حلقِك كالبشر، عودي أنت أيضًا يا ديمومة، وابدئي مِن جديد، ولن أنساكما إذا ما نجحتْ خطّتي، سأحتاج قطعًا لامرأتين مسنّتين تباركان ذلك النجاح.. أمّا البقية من المساعدين والحمّالين، فلن أحتاجهم بعد اليوم، توجد عمالةٌ رخيصة هنا، إنِ احتجتُ إلى عمالة.

كان خطابًا مُفعمًا بالغطرسة، غطرسته هو، وليست مِن إيحاء (ململة)، وعمبابا- حتى في أكثر مواقفه انحطاطًا- لا ينسى غطرسة الفقراء، نصف السحرة التي أجاد تعلّمها أكثر من إجادته تعلم السّحر نفسه. كانت ثمّة آلام كثيرة قدِ اشتعلت في تلك الغرفة الخشبية، أخفها تهيّج القولون العصبي عند ديمومة، وأشدّها ضيق في الصدر شبيهٌ بالأزمة القلبية، أصيبت به المتنفّسة من الثدييْن، صبورة. لا يبدو عمبابا راغبًا في التراجع، وجهُه يقول ذلك، ويكاد الجميع أنْ يقسموا أنّ ذلك له علاقة بموت تاجر الحدود الثري، وذلك السّاحر التركي (ندمان قل)، الذي لم يعمل معهم

أبدًا في السيرك مِن قبْل، وفوجئوا به فقرة معلنًا عنها بالخطوطِ العريضة، ساعةَ قدومهم إلى مداري، وطوالَ الرحلة التي استغرقت يومين على ظهر الشاحنة، لم يكلّمهم بحرفٍ واحد، ولا بدا راغبًا بالتعرّف على زملاء العمل. وقال عمبابا حين سألوه في شأنه، إنّه ساحر عالميٌّ معروف، عثرَ عليه مصادفة، يمارس إرواءَ الحنين، في نوستالجي كافيه، وسيقدّم فقرته الوحيدة في مداري ويرحل مباشرة، بعد أنْ نال أجره مقدّمًا. ولا يعلم أحدٌ منهم أنّ ذلك الساحر كان مختلسًا مطاردًا، تمّ تصنيعه خصيصًا في بيت عامل مراحيض عبابيني لا يبعد كثيرًا عن بيوتهم في ذلك الحي التّعس.

في الصباح الباكر، وقبل أن تستيقظ البلدةُ جيّدًا مِن رقادها، ويبدأ ضجيجُها، طاف عمبابا بشاحنتِه المستأجرة في شوارع وأحياء مداري كلّها، ودخل حي درب المأمور حيث العزاءُ في رابح مديني ما زال منصوبًا في يومِه الثالث، وما يزال الناس يأتون بكثافةٍ معزّين، وآدم مطر مرتديًا حزنه الحقيقي، وجالسًا في وسطِ الناس يتقبّل العزاء، وظهرت عشراتُ المسيرين من أبناء عمومة رابح، وأخواله، وأقاربه، الذين لم يودهم حيًّا، ولم يودّونه، ظهروا وقد ارتدوا ملامحَ الفقد المقلّدة، ولا شكّ تتلاعب في مخيّلاتهم تلك الثروة التي ما تركها ميّتٌ من قبل، ولا وريثٌ لها غيرهم، وكان بعضهم يقترب من خوجال يسأله بلا حياءٍ عن أحوال تجارة رابح، وكم تركَ بالضبط، ويغتاظ خوجال لدرجة أن يمدّ يدَه، يتفقّد سلاحه

المربوط في الخصر. كان عمبابا يحمل مكبّر صوته، ويعلن عن مزادٍ كبير لفيلي السيرك اللّذين تمّت تسميتهما أنجل وطيلسانة بالأمس فقط، يعدّد محاسنهما، وإمكان استثمارهما كنواة لحديقة حيوانٍ مصغّرة في أي بيتٍ من بيوت الأثرياء، يتمتع بها الأطفال، يبالغ في تعديد المحاسن حين يخفي عادةَ الشّره للأكل، ويردّد: يتحمّلان الجوع والمرض، يتحمّلان السّباب والقذف بالحجارة، يرقصان أحيانًا إن وضعا في حفلِ عرس، وفي الثامنة تمامًا، وفي ذات خيمته التي شهدتْ ما شهدت في هذه السّنة، ووسط خلقٍ كثيرين جاءوا فضولًا لمشاهدة المزاد أكثرَ من رغبتهم في الشراء، وقف يدقّ جرسًا نحاسيًّا لا يعرف أحدٌ مِن أين جاء به، يصيح بأعلى نبرةٍ استطاع أن يضخّها صوته المجروح:

- مَن يشتري؟ مَن يدفع أكثر؟ مَن يزيد على هذا السعر؟

وبدا أنّ رجلًا متحمّسًا يعمل في تجارة الأغنام، ويزايد على السعر بضراوة، هو مَن سيرسى عليه المزاد، وهذا ما حدث.. لقد رسا المزادُ عليه.

- مبروك.

صافحه عمبابا، واستلم منه المال.

حين ذهب برباري عبده المروّض صاغرًا وباكيًا لإخراج الفيلين مِن حظيرتهما، والمساعدة في

إدخالهما إلى شاحنةِ تاجر الأغنام، كانت مفاجأة تنتظره.. كانا مكوّميْن فوق بعضهما وقد فارقا الحياة، ويقسم برباري أنه مسح بيديه دموعًا وجدها تنزّ من عينيهما.

-١٢-

أولُ شيء فعله الجريح سالمان، بعد أن دفنَ والدته في قبرٍ فقيرٍ بجانب والده الوهمي، وأقام لها عزاءً لائقًا في بيته بحي مطرة جوبا، وتنفض من بعض الحزن، وعاد إلى عمله؛ هو أنْ نظّم طابورًا طويلًا في ساحة السجن العامة، جمَّعه من حوالي ستين سجينًا حُوكموا بجرائمَ مختلفة، ابتداءً من سرقة عصا من شيخ يتوكّأ عليها إلى القتل العمد مع سبق الإصرار والترصّد. كان قد فطنَ إلى غرابةِ اسمه، الآن فقط، ومتأخّرًا جدًّا، وما كان كلّ تلك السنوات قد انتبَه إلى أنّه يحمل اسمًا لم يسمعْه على أحدٍ غيره، لا مِن جيله، ولا أيّ جيل قديم أو حديث. وكأنّ أمّه الراحلة كانت تحمل عندها مفاتيحَ فطنته، وتصدع القفل بعد أنْ ماتت، وحتى تايلور تيلا، الصديق الوفي، الفستان الضيق، وبالرغم من إضاءته للكثيرِ من النقاط المعْتِمة في ذهن الجريح، وأنّه هو مَن دلّه على منابعه مُعتبرًا ذلك حقًّا من حقوقه، إلّا أنّه لم يتحدث عن غرابة ذلك الاسم مطلقًا، كان يستخدمُه بطريقةٍ عادية وسهلة، كما يستخدم أي اسم مألوف، مفاتيح فطنته عند أمّه، ولكن عند مَن كانت مفاتيحُ فطنة تيلا؟ أراد في ذلك الطابور الإجرامي، غير المألوف، أنْ يستوثق مِن وقْع الاسم عند الآخرين حتى لو كانوا نشازًا، وإن كان صالحًا ليسافر به إلى مداري، وكان قد عقدَ العزم على الذهاب، وقدّم طلبًا بالفعل إلى رؤسائه لنقله بمخصّصات وظيفته إلى هناك، وينتظر

الموافقة على أحرَّ من الجمر. تقدّم من السجناء بخطى صارمة، يحمل ورقةً وقلمًا، ويطرح نفسَ السؤال على كلّ سجين متصلّب أمام سلاحه، وشريطه الذي يشير إلى رتبةِ العريف:

- قلْ لي بصراحة، ودونَ خوف.. ماذا تفعل لو كان اسمك الجريح؟

كانت الإجاباتُ التي حصل عليها عند نهاية المسح، ومِن سجناء مُستغربين، ولا يعرفون سببًا لذلك السؤال مُتباينة بشدّة، حصل على إجابات مثل: أفرح.. أحزن .. أنتحر.. أقتل أبي وأمّي.. أتباهى بالتميز، أنطلق في الطريق عاريًا، صرف السجناء إلى عنابرهم، وجلس في إحدى الزنازين الخالية يُحصي حصادَه، وكانت صدمةً كبيرة له حين وجد كلمةَ أحزن تتكرّر أكثرَ من غيرها في إجاباتِ السجناء. لم يكن ينقصه حزنٌ جديد، وأمّه ما تزال دافئة في قبْرها، وكان يمكن أن يغتاظ منها بشدّة لولا أنّ الأمر كان متأخرًا.. متأخّرًا جدًّا. في ساعة الإفطار التي كانت مقدّسة، تتوقّف فيها الحياة تقريبًا في السّجن، ويقضيها الحرّاس في الثرثرة، ولحْسِ عصائد الفيتريت التي تعدّها نساؤهم، ويجلبونها مِن بيوتهم، صارح الجريح أحدَ زملائه باكتشافه، أنّه يحمل اسمًا مزْريًا، سيدخل به سنّ الأربعين قريبًا.. ولا يدري ماذا يفعل. ولأنّ الأمر مصارحة، لا تحتمل التكتّم أكثرَ من ذلك، أخبره الزميل بأنّهم طالما ضحكوا من اسمِه وهو غائب، وكانوا يتساءلون مرارًا- بدافع التهكّم- عن مكانِ الجرح في جسده، وسمع كثيرًا من الضباط

يردّدون أغنية (اجرحني يا جريح) في لحظات الاسترخاء في مكاتبهم، وهي أغنية ركيكة ألّفها شاعرٌ مسجون، ويعرفها الزملاء جميعًا منذ أكثر من خمسة عشر عامًا، أكثرَ من ذلك، أسمعه الزميل مقاطعَ الأغنية كاملة، وكانت ذا لحنٍ خفيف، يصلح لترقيص العرائس في ليالي العمر.

دار رأسُ الجريح عند سماعه تلك المعلومات السخيّة في لحظةِ الشفافية من زميله، هاجَ في المكان وقلّب أقداح الفيتريت الحارة على رؤوس أصحابها، واختصّ الزميل الذي صارحه بلكمةٍ قاسية لوثُ فكّه. خرج من السجن دائرَ الرأس ما يزال، ركب دراجته الهوائية، خاط بها شوارع جوبا بلا هدف، وتوقّف أخيرًا أمامَ مصلحة المواليد والوفيّات، وكانت مبنى صغيرًا في وسط المدينة تابعًا للبلدية. ربطَ دراجته إلى إحدى الأشجار بجنزير الحديد، الذي يستخدمُه لهذا الغرض، ودخل. كان ثمّة أناس قليلون جاءوا لتسجيل مواليد جدد، أو استخراج شهاداتِ وفاةٍ لأقارب رحلوا حديثًا، والجريح نفسُه جاء إلى هذا المكان منذُ ثلاثة أيام، واستخرج شهادةَ وفاة أمّه. وقفَ أمام الموظف، الذي كان من العرب، ويعمل في ذلك المكان منذُ خرج المستعمر تاركًا هوسَ السّوْدنة في كلّ الوظائف التي يستطيع الوطنيّون شغلها، لقد سودنَ الموظف الإنجليزي الذي كان يعمل هنا من قبل، وبلا مقدّمات سأله:

- ما اسمك يا عم؟

كان بالطبع مدخلًا غيرَ مألوف لدى موظّف مهنته السؤال، وليس الإجابة، واعتاد على المداخل المعروفة مثل السلام عليكم، أو مرحّبًا، أو أي مدخل آخر يأتيه من لسان جنوبي يتحدّث بلغةِ جوبا المكسرة. وبرغم ذلك ابتسم، ولم يذهب عقلُه لأيّ تهمٍ نفسيّة يدلقها على الجريح، وهو يرى عريفًا من قوات السّجون في زيّه الرسمي، ويتدلّى سلاحٌ ناري من خصره. ربما اعتبرها مزْحَة، وربّما لم يعتبرها أي شيء.

- اسمي عبد الرءوف.

- اسمٌ لائق وجميل بلا شكّ، لكن قل لي ماذا كنت تفعل، لو كان اسمك الجريح؟

- مَن؟

كان الموظّف يتساءل.

- الجريح.

- اسم مَن هذا؟

يتساءل الموظّف مرّة أخرى، وقد عبرت بشفتيه ابتسامةٌ كان يمكن أن تظلّ أطولَ من ذلك لولا الزيّ العسكري لحرّاس السجون، والسلاح المدلى من الخصر.

- إنّه اسمي.. قل لي بصراحة، وبلا حرج، ماذا كنت تفعلُ لو كان هذا اسمك؟

- بصراحة، وبلا حرج؟

ابتلع الموظف ريقَه.

- نعم.

- أنتحر أو أقتل مَن سمّاني به.

في الواقع، لا يستطيع الجريح أن ينتحر، على الأقلّ في هذه المرحلة التي كان توّاقًا فيها لرؤيةِ منابعه، وتتبّع جذوره، وقد ظلّ كلّ تلك السنوات حالمًا، ومكبّلًا بعناد أمّه التي كانت تتصنّع المرض وغيبوبة الموت حين تأتي سيرة مداري على لسانه، ولا يستطيع أن يقتل مَن سمّاه به لأنه مات، سواء كان ذلك أمّه أو أباه. وقف عدّة دقائق بعد أن ابتعد عن شباك الموظف، يدير حوارًا قلقًا وبشعًا مع نفسه، وبلغ حدًّا من عدم الرحمة أنْ فكّر في عدم البكاء على قبر أبيه أو أمّه مرّة أخرى، وعدم إحياء ذكرى الأربعين لوفاة أمه، بتقديم الشاي والزّلابية للناس، كما هو معروف في تلك المجتمعات، فكر في التخلّص من عدّة الشاي التي جلبها من سوق المردة، بعد أن باع كشك أمّه، وكان قد قرّر الاحتفاظ بها كذكرى، وأفاق على صوتِ عِراك ساخن، نشبَ فجأة أمامه بين ولدٍ جاء لتغيير اسمه الذي لا يعجبه، كما يبدو، وأبيه الذي تبعه يحمل عصا، ويصرّ على أن يحتفظ الولد بالاسم، يصرخ.

- سمّيتك مخطوطًا على اسمِ أبي الراحل، وستظلّ بهذا الاسم ما حييت.

- سأغيّره.

- لن تغيّره.

- قلت سأغيّره.

- وأنا أحلف طلاقًا من أمّك، أنّك لن تغيّره.

وانتهى العراكُ بأن استسلم الولدُ لمشيئة أبيه، أعاد إليه عصاه التي كان قد سلبَها منْه، وأمسك بيده وخرجا. تلك اللحظة، تراجع الدّوار في رأس الجريح، أيقن بما لا يدعُ مجالًا للشك، أنّ ثمّة حكمة مِن تسميته بذلك الاسم، حكمة لم يعرفها، وفاته أن يسأل عنها، أيّام حياة أمّه، والذي حدث قد حدث، وكان حادثًا منذ قرابة الأربعين عامًا، ولن يغيّره تبديل الاسم لو بدّله، سخر الزملاء منه سنين وانْتهوا، أُلفت أغنية اسمها اجرحني يا جريح، راجتْ من دون علمه، ولا بدّ أنّ الأطفال الذين عرفهم في صغره، والجيران والجارات في مطرة جوبا، قد أنْفقوا في السخرية من اسمه ليالي بلا حصر، وانتهت، أشرق ذهنُه بشدّة، عاد مرّة أخرى لاحترام أمّه وأبيه، وقرّر إحياء ذكرى الأربعين في موْعدها بمواصفاتها كاملة سيعودُ إلى عمله، يطالب الزّملاء ترديد الأغنية أمامه، سيسأل في مطرة جوبا، إنْ كانت ثمّة أغنية مشابهة، وسيذهب إلى مداري شامخًا، وربما

تكمنُ الحكمة هناك، ويكون ثمّة جريحون كثيرون في تلك البلدة التي كانت- وما تزال- حلمًا بعيدَ المَنال. لم يلتفتْ إلى نداء الموظف حين أخبره بوجودِ قائمة أسماء طويلة يُمكنه الاختيار منها لو أراد، وفي طريقه إلى السجن على دراجته الهوائية، ارتقى باسمه كثيرًا، اعتبره واحدًا من أمْيَز الأسماء، ماركة مسجّلة له وحده، تمامًا مثل تلك الماركات من الملابس والحليّ التي شاهدها تغزو سوقَ جوبا مؤخّرًا، ويقتنيها الأثرياء فقط.. هو ثري باسمه.

بعد عدّة أيام، تمّ استدعاء الجريح إلى مكتب القائد العام لسجن جوبا، ووجد ثلاثةً من الضبّاط جالسين هناك، سألوه عن الغرض من إصراره أنْ ينقل إلى مداري، وهو ابن جوبا، وعاش فيها عمرَه كلّه، ولا بدّ سيواجه صعوبات كثيرة في مكانٍ جديد عليه، وردّد القائد ضاحكًا:

- لا بدّ أنّك عثرت على فتاةٍ من مداري، وقرّرت الذهاب خلفها.. ماذا تعرف عن مداري أيّها العريف؟

- لا شيء حتى الآنَ يا سيدي.

ردّ الجريح، وهو في وقفته العسكرية المتصلّبة، ويخاف بشدّة ألّا يوافقوا على طلب نقْله، لكنْ لا يهمّ، في تلك الحالة سيتقدّم باستقالته، ويذهب ليجرّب حظّه في مهنةٍ أخرى هناك. المهمّ هو الذهاب، وبعد ذلك تتبدّل الأمور.

- كيف لا تعرف وأنت بهذا الإصرار؟

- سيدي أنا أصلًا مِن هناك، وجاء بي أهلي رضيعًا، وطوال تلك السنين لم تسنحِ الفرصة لي لأزورَ بلدي. والآن ليس لديّ أحدٌ هنا بعد وفاة أمّي، أطلب من سعادتكم أنْ تساعدوني.

لقد ساعده القائدُ بالفعل، وقَّع على طلبه، وأخبره بأنّهم سيرسلون برقية إلى مداري، يخبرون قائدَ السجن هناك بقدومه لتسلّم وظيفته.. وكانت لحظات فرح حقيقي أنْسَته الحزن على أمّه. أخيرًا سيذهب، سينتظر حتى ذكرى الأربعين، يحييها ويذهب، ولن ينسى أنْ يأتي من حينٍ لآخر لزيارة قبريْ والديه، والبكاء عندهما. وفي اللّحظة التي التفت فيها للخروج من مكتب قائد السجن سمعَ أحدَ الضبّاط الثلاثة يسأله:

- قل لي يا عرّيف، لماذا لم تتزوّج حتى الآن؟

استدار نحو الضبّاط مرّة أخرى، تصلّب وأدّى التحية العسكرية، ثمّ قال:

- الفتاة التي سأتزوّجها، لم تخلَقْ حتى الآن يا سيدي.

***

-١٣-

(ململة) الذي يعربد في رأس عمبابا منذ أن عثرَ على عبد الغني باشاكر في نوستالجي كافيه، وتزوّد بتفاصيل خطّة إشفاء الغليل، قاده- وبخطى شيطانية سريعة- إلى مكتبةِ كينيا الوطنية. المكتبة الضّخمة التي تحتلّ طابقين واسعين في وسط نيروبي، وتحوي كتبًا ومخطوطاتٍ وموسوعاتٍ بلا حصر، يرجع تاريخُ بعضها إلى عهد اكتشاف الورق. لم تكنِ المرّة الأولى التي يزور فيها عمبابا تلك المكتبة، وأثناء وجوده الطويل في كينيا، ومن أجل تحسين سيرته الذّاتية لدى مسئولية السابقين، في البناية التجارية التي عمل فيها بوابًا، ولدى أستاذه الساحر الكيني أيّام تلقّيه علم السحر، كان يمرّ على تلك المكتبة يتوقف طويلًا عند المذكّرات الشخصية لعظماء العالم في ترجمتها الفرنسية، يقلّبها في ولَهٍ، ولطالما تخيّل كتابًا بقلمه تحوي مذكراته موضوعًا في تلك المكتبة، وقطعًا لن تكون فيه صفحاتٌ تشير إلى سوق البردعة القديم في مداري، ولا أيّام حراسة التفاهات في البناية التجارية. سيكون رجل السيرك العظيم، الذي بدأ نجمًا منذ نعومة أظفاره. قاده ململة مباشرةً إلى الجناح الذي يحوي كتبَ السحر.. ركّز على الأتراك.. ركّز على السحرة الحقيقيين..

وكان من حُسن حظّه أنْ عثر- بلا عناء- على موسوعة ضخمة، مُغلّفة بالجلد، كانت كلّها عن

سحراء لأتراك، وتتطرّق إلى حيلهم ومكْرهم، وألغازهم العصيّة التي لم يستطعْ أحدٌ غيرهم أن يحلّها. لفت نظره أنّ ثمّة بعض الأسر تتوارث مهنةَ الساحر منذ قرون، وهناك أجيالٌ جديدة منها، موجودة الآن، مُشتعلة بذلك النشاط الخطير.. (ندمان قل) الكبير.. الذي بعده، وبعده.. وبعده.. آخ وصل عمبابا إلى (ندمان قل) الحالي، الذي يعيش في ضاحيةٍ راقية بمدينة جنيف، ويتنقّل في دول كثيرة عارضًا مهارته، ومن حُسن الحظّ أنه لم يعرج أبدًا على أيّ دولةٍ من دول العالم الثالث، وصرّح في أكثر من مرّة بأنّه لن يفعل، وعلى مواطني تلك الدول، الذين يرغبون في لثْم يدِه أنْ يتكبّدوا مشاقّ السفر حتى عنده.

- هل عثرت على التركي المناسب؟

يسأله (ململة)، ويكاد يسمع ضحكاتِه ترتجّ في الذهن. ويحسّ بثقله في مقدمة الرأس..

- نعمْ يا (ململة)، عثرت عليه كما أعتقد.

- إذًا استخدمه.. وكنْ حذِرًا.

انكبّ عمبابا على دراسة السّاحر التركي (ندمان قل) لساعاتٍ طويلة، غير عابئ بنظرات الاستغراب التي ارتسمت على وجوه دارسين آخرين، انتبهوا إلى حواره الهامس مع (ململة)، درس لحيته، شاربه، حلقة المعدن الطويلة التي تتدلّى من أذنه، متى ينام، متى يستيقظ، متى يقضي

حاجته، أي نوع من النساء يعجبه، وأيّ نوع لا يعجبه، وخلصَ إلى نتيجة أرضتْ (ململة) بشدّة، إنّ عبد الغني باشاكر هو (ندمان قل) في كلّ تفاصيل جسده، فقط تنقصه حلقة المعدن التي تتدلّى من الأذن، وبعض التدريب على العزم وقوّة الشكيمة، وتزويده بمعلوماتٍ هامّة عن مداري وحوادثها القديمة، تساعده في أداء المهمّة.. مهمة إشفاء الغليل. المخطط لها ليس هذا الموسم، ولكنّ الذي يليه.

لم يكنْ من السهل على موظفٍ كبير سابق، ومِن أسرة عدّها أكابر، ولا يعرف عمبابا إنْ كانت كذلك، أم لا؟ أنْ يوافق بسهولة على ثقب أذنه، وتعليق معدنٍ سخيف عليها، وقد طلبَ من صاحب السيرك، أنْ يدرّبه فقط على اللّعبة، وينسى حلقةَ المعدن تلك، وكانت تلك الحلقة بالذات تعني الكثير، يعتبرها عمبابا مفتاح الإيحاء الكبير، وجالبة الرّعب للذين ستمسّهم سياط السّاحر، وما فائدة أنْ يدخل ساحرٌ عظيم جاء يقدّم فقرةً واحدة، ويرحل لارتباطه بعروض عالمية إلى خشبة المسرح مثل دخول أي شخص عادي، بلا أسطورة تميّزه؟ حلقة المعدن هي أسطورة (ندمان قل) الحقيقي، وستكون أسطورة باشاكر.

اضغطْ عليه.. اضغط.

يتحدّث (ململة) في ذهن عمبابا ويعمل صاحب السيرك الضئيل بتوصيته، ويضطرّ الهارب المختلس أنْ يقبل- خاصّة بعد أن أخبره عمبابا-

بأنّ ذلك لن يحدثَ قريبًا، ولكنْ بعد عودته من مداري، في موسمه الجديد، وقبل فترة قليلة من التنفيذ حتى يتدرّب على ثقل الحلقة في أذنه. كان (ململة) مبتهجًا للغاية، وأوعزَ لصاحب السيرك أن يسمحَ للرجل بالخروج من جحر عامل المراحيض العبابيني، ساعةً يروّح فيها عن نفسه، ويتنشق هواءَ نيروبي المشبع برائحة المطر، ويتناول شطيرةً مُشبعة من لحم الثيران المشوي على الجمر في واحدٍ من المطاعم العامة التي تنتشر في الشوارع، وحذّره ململة من السماح له بالذهاب إلى نوستالجي كافيه مرّة أخرى، أولًا بسبب ارتفاع تكلفة إرواء الحنين فيه، وسببٌ آخر هو أنه قد يعثر هناك على فضوليّين أرفع شأنًا من عمبابا، وينساقُ خلفهم، خاصّة أنه محتال، وتوجد الكثير من عصابات الاحتيال الخطرة في إفريقيا، وعصابات تجارة الجنس والمخدرات، التي تبحث عن الغرباء المشرّدين، وتجنّدهم لحسابها. أيضًا أوعز إليه مصادرةَ صورة زوجته التي تبدو فيها حاملًا وبعينيْن باسمتين، وإتلافها بغرض تقوية العزيمة، ولن تقوى ما دامت توجد مثل تلك العوائق العاطفية.

قبل أن يرحلَ عمبابا بسيركه إلى مداري في العام الماضي، اجتمع بالهارب الذي استكان تمامًا، وقطع شوطًا طويلًا في التدرّب على غطرسة السحرة، وإخراج الوميض من عينيه على الجُمل التي يجب أن يضغط عليها بعنف حين ينطقها، والتي يمرّرها تافهة من طرف لسانه، صنع من أخشابٍ مهمَلَة وجدها في الطريق قريبًا

من البيت نماذجَ لآدميين كان يخاطبهم، ويحسّ بأنه نفذَ عميقًا إلى دواخلهم في كلّ محاولة جديدة. كانت المعضلة في بقائه مدّة طويلةً بلا رقابة، وخوف عمبابا من أنْ يهرب في أي لحظة، ويبدأ سكّة تشرّدٍ جديدة تاركًا إشفاء الغليل مهمّةً معلّقة بلا إنجاز. وشيء آخر، هو ضرورة توفير أكله وشربه، ومعجون أسنانه، وصابون استحمامه، وغسيل قميصه وبنطلونه، وربما خيوط وإبر لترتيق سراويله الداخلية، وجوربه الوحيد، الذي كان عامرًا بالثقوب، ولا يستطيع الاعتماد على عامل المراحيض، خاصة أنه التقاه منذ يومين، وأخبره صراحةً بأنه احتمل سطوة الغريب على أفضل وسادة عنده، احتمل شخيرَه أثناء الليل، ومخاطبته لألواح الخشب، لكنّه غير مسئول عن طعامه، وتوفير تحاميل الجلسرين التي يستخدمها بكثافة لعلاج إمساكِه المُزمن.

صارحه عمبابا بكلّ تلك المخاوف، وعَدَه باستدانة بعض المال مِن أيّ شخص يمكن أن يسلفه، وطلب منه أن يحسب بدقّة، كم فرنكًا كينيًا يحتاج حتى يعود مِن رحلته؟ كان الرجل مصرفيًا كما هو معروف، مساعد مدير مصرف سابق، أغواه الشيطان، كما هو معروف، ولم يكن بحاجة إلى ورقةٍ أو قلم ليحسب. أمدّ عمبابا في ثوانٍ معدودة بمصاريفه كاملة، بما في ذلك ثمن تحاميل الجلسرين، ومجلة الإثارة (هومز تراب) التي شاهد إحدى صفحاتها مصادفةً عند رجلٍ كان يقلبها في مطار نيروبي ساعةَ أنْ قدم، وبخصوص فراره المحتمل أقسمَ بصورةِ زوجته التي مزّقت

أمامه بأنّه لن يفرّ، وأضاف نقطةً مهمّة جدًّا غابت عن (ململة)، وهي أنه بلا فرنك واحد يمكّنه حتى من شراء تذكرةٍ لدخول واحدةٍ من دورات المياه العامة، ناهيك عن تذكرة طائرة. وتلك النقود التي سيتركها له عمبابا، بالكاد تدحرج حياته.
أنا يائس.. ردّد المختلس أمام عمبابا تلك الجُملة ثلاثَ مرّات، وأصابه بالهلع، ماذا لو انتحر في غيابه؟ استشار (ململة) في ذهنه، وطمأنه الأخير بأنّ الذين ينتحرون لا يصبرون عامًا ونصفَ العام، ولا يسمحون حتى لبوليس الأحياء الفقيرة أن يطاردهم، ناهيك عن الشرطة الدولية، هي قطرة سمّ يرشفونها ساعة أنْ يُكتشف جرمُهم، أو طلقة من مسدس موجّهة للرأس، وينتهي الأمر..
لن ينتحر باشاكر.. اطمئن.

بعد عدّة أيّام سلّمه ما يسدّ الرمق فقط، غاضًّا الطرف عن طلباته الأخرى، وأبهجه بعددٍ تاريخي من مجلّة هومز تراب، كان موجودًا عنده، وانطلق في رحلته إلى جنوب السودان التي يبدؤها في العادة من مداري. وكانت تلك الحركة البارعة التي رسمها (ململة) حين عرج مباشرةً على السوق، وقبل أنْ يذهب إلى مكان خيمتِه المنصوبة، توقّف أمام محلّ لوازم، أطلق النفير العالي، تحيةً لرابح مديني، وأقام عنده في بيته، تلك الإقامة المرفّهة، أن يمدّد قدميه ويلقّهما متى أراد، أن يتذوّق فواكه الطقس المداري كلّها، أن يشرب عرق البن حتى يرتوي ويسقط، وينام على سرير وثير، تحت رأسه وسادة من ريش النّعام، ولم يتطرّق طوال تلك الأيام التي قضاها، وحتى

اضطرّ لقطع عروضه، ومطاردة الهاربة زيابا إلى موضوع الشراكة التجارية، مع تاجر الحدود مرّة أخرى.

بالطبع كانت مفاجأة شديدة لعمبابا وهو يستلم نقودَ الفيلين، أنجل وطيلسانة من تاجر الأغنام، حين أخبره المروّض برباري عبده- من بين دموعه- أنّهما ميّتان. اهتزّ قليلًا ثمّ استعاد ثباته بسرعة، وتذكّر أنهما كانا في سنّ لا يستبعد فيها الموت أبدًا، وما اشتراهما برخْص التراب من حديقة الحيوان الوطنية في كينيا منذ سبع سنوات إلّا بناءً على إحساس المشرفين على الحديقة بدنوّ أجَلِهما، ويكفي أنهما خيّبا ظنّ مشرفي الحديقة وخدما في سيركٍ متجوّل طوال تلك الفترة. كان (ململة) قد غدا كسولًا في ذهنه بعد أن أثمرت مهمة إشفاء الغليل التي لم تشلّ رابح، أو تعيده غاسلًا للدّواب، ومقلّمًا لأظفارها، بل أماتته، وكاد يحسّ بالندم لموته، ولم يحسّ، ولم يستجب (ململة) في تلك اللحظة التي كان فيها تاجرُ الأغنام غاضبًا، يريد استرداد نقوده، والناس المتجمْهرون بدافع الفضول يصرخون في وجه عمبابا، ويتّهمونه بمحاولة بيع حيوانات فانية، وصبورة، وديمومة واقفتان، تنتظران أن ينتهي ذلك اللغط، لتطالبا بمكافأةِ نهايةِ خدمتهما حتى ترحّلا، وزيابا كعادتها لا تهتمّ بإحكام أزرّة قميصها، وتسمح للرجرجة وصعاليك الشوارع أنْ يتأمّلوا نهْدَين في حجم ثمرتي برتقال:

- حسنًا يا أخي، سنخصمُ منك أجرة المزايدة،

ونعيد إليك باقي نقودك.

لم يفهمِ التاجر معنى أجرةِ المزايدة، ومثل ذلك المزاد نادرٌ تمامًا في مداري، لم يحدث إلّا في فتراتٍ قليلة ومتباعدة، هزّ رأسه دليلًا على الموافقة، واستلم باقي نقوده، ومضى.

الآن ماذا أفعل يا (ململة)؟

و(ململة) لا يستجيب.

ماذا أفعل أيها الرجيم؟

و(ململة) خامد، بلا أي ثقل أو ارتجاج في الرأس.

ولم ييأس عمبابا؛ خدّر المرأتين بكلمتين ناعمتين عن قُرب انفراج الأزمة، وأنه سيسعى شخصيًّا لإيجاد عمليْن لهما في كينيا، ممّا اعتبراه تراجعًا عن غطرسِة الأمس، وقرّر أن يغزو السوق بالفعل، مستعينًا بثمن الكلب الأبرص، وأجرة المزايدة على الفيلين الميّتين، ويصبر قليلًا حتى يتجمّع المال وينجز المشاريع الكبيرة، سيبدأ بتوظيف شعبية زيابا.. نعم زيابا هي الحلّ المتاح في الوقت الحالي.

***

وصل الجريح سالمان إلى بلدة مداري، في أواسط شهر ديسمبر، من عام ١٩٧٥ بعد خمسة وأربعين يومًا من وفاة أمّه رضيانة الخضر، ملكة الشاي في سوق المردة، متأثّرة بمرض تليف النخاع الشوكي، وحوالي الشهرين، من وفاة المعلم رابح مديني، تاجر الحدود الذي بكاه طوبُ الأرض في تلك النواحي، ولم يسمعْ به الجريح أبدًا، بالرغم من أنه يمكن أنْ يكون والدُه من بين رجلين أغويا أمّه، أو أغْوَتهما في سوق قديم، امّحى بفعل الزمن في عالم حافل بالمتغيرات. وصل راكبًا على ظهر عربة مجروس ضخمة، روسية الصنع، برفقة سريّة صغيرة من سرايا الجيش، كانت متّجهة إلى مداري في مهمّة خاصة، وطوال الطريق الذي استغرق يومين ونصف اليوم، وهو يشاهد سحرَ الجنوب وخضرته، وتلك القرى المُقامة على حواف الخيران بمساكن القصب، والبوص، وطين المستنقعات، كان يشهق: يا الله، يا الله.. يبتسم في وجوه القرويّين، الذين كانوا يصطفّون بلا تناسقٍ لتحية الجيش الوطني، مرتدين الخِرق الملوّنة في وسطهم، وعقود السكسك والقصدير على صدورهم، والتيجان المصنوعة من قرون البقر على رؤوسهم، يا الله.. يا الله، وبدتْ له الحياة المدينيّة في جوبا تافهة جدًّا، وما كان يجبُ أن يعيشها حتى يقترب من سنّ الأربعين. لكنّها رضيانة أمّه، هي مَن انقطعت عن الجذور،

وأوشكت على نسيان اسم العائلة، حتى هي مَن فرّت بسرٍّ دفنته هناك، ولا تريد العودة حتى لا يتمرّد السرّ على تربته، ويمشي في البلدة مطلقَ السراح. في حقيبته القماشية الرخيصة، كان يحمل زي السجانين، وسلاحهم، وملابس، وضروريات أخرى، وخصّص نصف الحقيبة لعدّة الشاي التي كانت تستخدمها أمّه طوالَ حياتها في سوق المردة، تلك التي بدأت بها واستُهلكت، والتي غيّرتها عدّة مرّات لتواكب متغيّرات الشكل والصناعة التي طالت عدّة الشاي، كما طالت غيرها. ولا يدري لماذا تذكر فجأة ذلك الجنوبي تايلور، صديقه وصديق أمّه، الذي صنع لهما حياة ما كانت لتصنع لولاه، وتركهما فجأة من دون أي إنذار، وظلّت أمّه وفيةً لذكراه، حتى قبل أن تسلمَ الروحَ وتمضي، كانت تردّد بلسان الروح المهاجرة: لم يقصّرْ تيلا.

كان زملاء السفر من سرية الجيش، وأغلبهم جنوبيون؛ مُبتهجين بصورةٍ كبيرة، يواجهون القرويّين بمعنويات أعلى كثيرًا من معنوياته، ويمازحون النساء بلهجات الجنوب، أو لغة جوبا المكسرة، أو يتحيّنون الفرص حين تبطئ العربة أمامَ حفرة أو جدول ليمدّوا أيديهم، ويلمسون جسدًا من تلك الأجساد الترابية التي تحييهم، متى نصل إلى مداري؟ لا يستطيع سؤال سائق العربة لأنّه محشور في ظهرها، والسائق في مكان قيادته، ويسأل زملاء السفر، ويقولون قريبًا.. قريبًا جدًا، ويبدو له ذلك القريب الذي يشيرون إليه، أبعدَ ممّا يُحتمل، وفي الاستراحات

المشيّدة من القصب، التي يستريحون فيها قليلًا، ويستمتع فيها المسافرون بلذّة قضاء الحاجة وسط حقول القصب، والذّرة المجاورة، كان ينتهز الفرصة ويرسم مداري في خياله، ليست مداري العشرينيّات والثلاثينيّات التي وصفها له السجين الراحل شامي أيام سذاجته، وحداثة سنّه، ولكن مداري الجديدة التي لا بدّ قد حدثتْ فيها تطوّرات كبيرة، وأبلغ دليلٍ على ذلك هو أنهم يسافرون إليها الآنَ على ظهر عربة، وليس على ظهر حمار. قبل سفره سألَ عن أماكنَ سكنى متوافرة هناك، ريثما يعثر على أهله، أو يعثرون هم عليه، وأخبره زملاء العمل كافّة أنّهم لا يعرفون شيئًا عن مداري، وعليه أن يعتمد على نفسه، ومن المحتمل أن تكون إدارة السجن هناك توفّر سكنًا جماعيًّا للعازبين أمثاله. لا يهمّ.. يفكر الجريح في أخلاق المدن البعيدة، ولطالما سمع بالبيوت التي تؤوي الغرباء بلا أي دافع، سوى أنهم غرباء..

كانت مداري في تلك الأيام ملتهبةً بشدّة، التهابًا كاد بسببه يموتُ آدم مطر، صاحب بابايا، وخوجال المسيري، العامل الصلد في تجارة رابح، وبسببه عاد (ململة) نشيطًا، وعامرًا بالأفكار إلى ذهن صاحب السيرك عمبابا.

كان آدم مطر، وبعد أن طوي الحزن الجارح تمامًا على رابح مديني، وأصبح اسمه يُردّد مسبوقًا بلقب المرحوم في كلّ مناسبة يردّ فيها ذلك الاسم، قد اجتمع بأهله وأقاربه الذين لم يكن يودّهم، ولم يكونوا يودّونه وهو حي.. وكان خوجال

المسيري حاضرًا، ومتحفّزًا، ولا يدري ماذا سيفعل لو طلب منه الورثةُ الرسميون إخلاءَ مكانه الذي شغله سنوات طويلة، كان فيه خيرَ معينٍ لتاجر الحدود الميّت، ولا يتصوّر أنْ تموت تلك التجارة فجأة لأنّ رابح مات، خاصّة أنّ تحرشاتهم كثرت، ولا يستطيعون الانتظار أكثر.. في ذهنه تصور بدا له معقولًا، لا يريد أن يُقسَّم لوازم، أهمّ متجر في المنطقة، إلى مائة لازمة، وتضيع تلك الشاحنات الكبيرة التي طالما عربدت في عمق إفريقيا، بأن يُدقّ لها جرس شبيه بالذي دقّه عمبابا يوم أراد أن يبيع أنجل وطيلسانة، بيت رابح العريق في درب المأمور، مهدّد ببيعه أيضًا، ولا يعرف أحدٌ غيرُه أنّ ثمّة مزرعة كبيرة تنتج الخضراوات والفواكه في إحدى القرى المجاورة، اشتراها رابح مؤخّرًا، ولولا أنه خوجال، وليس أحدٌ غيره، لتكتّم على السر واحتفظ بخيرها لنفسه، وخوجال لن يفعل ذلك. حدّث مطر بتصوّره، وأيّده الأخير حرصًا على علامة رابح المميزة التي اجتهد في رسمها، ويجب أن تظلّ باقية حتى بعد رحيله، وساعتها تمنّى لو كان ثمّة ولد من صلب صديقه حتى يرثَ ذلك الصرح، ويحافظ عليه صرحًا. المسيريون أبناء العمومة والخؤولة مُستندون على قوانين الشرع في شأن الميراث، ويحملون العصي والسكاكين، كان لهم رأيٌ آخر. لم يعثر آدم مطر في جمعهم على صديقٍ واحد، أو كبير يستميله، بالرغم من أنّه مِن قبيلتهم، وربما يوجد دمٌ منسي يربطه بهم، عضّوا على مسألة التقسيم حتى نزفت، وما رضوا أن يتقاسموا الحصادَ الذي سيوفّره لهم خوجال نهاية كلّ عام، ولا حتى أن يوزّع جزءٌ من التركة

على فقراء يحتاجونه، أو ينشأ مسجدٌ صغير باسم رجل كان كثير الأخطاء في حياته، ويحتاج إلى صدقةٍ جارية، وكان نصيب خوجال المتحفّز طعنةً في كتفه، ونصيبُ صاحب مطعم بابايا، مثلَها..

- حسنًا..

قال آدم مطر، وهو يضغط على كتفه النازفة..

- افعلوا ما شئتم.

وكان ذلك اليوم هو آخرَ يومٍ من عمر صداقة جمعتْ بين رابح مديني وآدم مطر لأكثر من خمسةٍ وثلاثين عامًا، وليس آخر يوم يقضيه خوجال المجروح في كتفه، وأمانته، داخل تجارة الرجل الميت، بالرغم من أنه سلّمهم المتْجر والشاحنات، وسيارة الجيب القوية، والمزرعة التي لم يكونوا يعرفونها، وبيت رابح بمحتوياته، ومنحوه لوحة تابيتا جنية الليل، لأنّها لا تمثّل أي ذكرى لديهم، وما عادت ثمّة ضرورة لبقائها معلّقة على واجهة المتجر، ولم يكونوا يعلمون أنّها أسخى مكافأةٍ يحصل عليها عامل في متْجر ليس في بلدة معقدة، وبعيدة فقط، ولكنْ في العالم كله. وقد جاء إلى مداري في تلك الأيام بالذات عن طريق كينيا وفدٌ من خبراء الفن التشكيلي الأوروبيّين، كانوا يبحثون عن لوحة مهمّة للفنان النمساوي الشهير، كرستوف أوجين، ستوضع في واحدٍ من أهمّ متاحف أوروبا، وأخبرهم شخصيًّا بوجودها في تلك البلدة معلّقة على واجهةِ

متجر، وشاهدوا صورًا فوتوغرافية لها، التقطها الفنانُ بنفسه من آلة تصويره الياشيكا في زيارته الأخيرة. كانوا لا يعرفون اسمَ المتجر لأنّ الرّسام نسيه، ووصلوا بصعوبة إلى خوجال، وبعد عدة ساعات من الدوران بعربة جيب استأجروها من نيروبي.

- ها هي.

أخرجها خوجال من تحت خرقٍ ممزّقة في بيته، كانت امرأته على وشْك لمّها، وإلقائها في الشارع بوصفها قاذورات، أمسكوا بها وتفحّصوها بأيادٍ وأعين ترتجف، ولم يصدقوا.. لا يمكن، يتردّد انبهارهم، حتى يظنّهم خوجال مجانين أوروبيّين، جاءوا لتعكير مزاجه المعكّر أصلًا بعد أن طُرِد. هبّوا فجأة لاحتضانه، وسلّموه حقيبة ممتلئة بمالٍ أخضر وهّاج، دارتْ له رؤوسهم قبل رأس خوجال، وهُم يعدونه، استلم خوجال المسيري المالَ بشجاعةٍ نادرة، ورباطة جأش، وذهب إلى أهل رابح، وهُم يتخبّطون في متجرِ لوازم، لا يعرفون سعرَ الصّلصة من سعر لحم الدجاج المقدّد، ولا يميّزون بين دهان الكركار، وعسل النحل، ولا يستطيعون التوصل إلى أيّ اتفاق فيما بينهم، اشترى منهم آثار رابح كاملة؛ المحل والبيت، والشاحنات، والمزرعة، وعاد يجلس داخل لوازم جلسته القديمة، سلاحه الأبيض على خصره، ينظر إلى المرأة نظرة الزعيم التاريخي حجو، يلبي حاجةَ امرأة مسنّة تسأل عن حنّاء القرود المستعملة بكثافة في صبغ الشعر، أو طفل يسأل عن نبلة

لصيدِ العصافير، ويفكّر بجدّيّة في ارتداء ملامح رابح وغرابته، والسفر إلى البلاد التي كان يجلبُ منها الخير والشّر.

كانت ثمّة مشكلة كبيرة تواجه عمبابا بعد أنْ قرّر الاستقرارَ وغزوَ السوق في مداري، وكان منذ خمس سنوات، وحين قدم إلى مداري لأوّل مرّة بعد فراق طويل قد أعجب بشروم الأصلع حين نشل حافظةَ نقوده من دون أن يحسّ به، وردّها إليه طائعًا بعد أن وجدَها شبه خاوية. وكان شروم في ذلك الوقت مسجّلًا رسميًّا لدى دوائر الشرطة، ومرجعًا للسرقات الخفيفة التي تتمّ في الأسواق والأماكن المزدحمة، وذكرى الزعيم ماجوك السنوية، حين ينشغل الناسُ بحمّى الرقص، وينسون جيوبهم بلا رقابة أو تحسّس لها بين حينٍ وآخر. كانت الشرطة تلجأ إليه كثيرًا، ويساعدها في نشل النشالين أنفسِهم، وحين أراد عمبابا تهريبه إلى كينيا وتدريبَه على حرفة النشل بأصولها العلمية، وإعادته فقرةً ممتعة في سيركه، كان لا بدّ من استئذان الشرطة، وهو ما لجأ إليه، وكتب ذلك التعهّد الذي يحمّله المسئولية كاملة، إذا ما مارس شروم الأصلع نشاطَه القديم مرّة أخرى أثناء وجود السيرك في مداري، وعُمّمت نسخ من ذلك التعهّد على سائر مدن الجنوب التي يغشاها السيرك. فوجئ عمبابا بقائد الشرطة المحلية يستدعيه إلى مكتبه على وجه السرعة، وخاف أن يكون القائد قد عادَ إلى إلحاحه بشأن جلبِ التركي (ندمان قل) مرّة أخرى ليقرأ مستقبل أولاده الذين يشكّ في

احتمال تحوّلهم إلى زعماء عصابات، يضطر إلى مطاردتهم، وكان قد تخلّص منه بصعوبةٍ في المرّة الأولى. تعلّل عمبابا بإصابته بالتهاب في البروستاتا حتى لا يذهب، ولم يكن العسكري الذي جاء لاصطحابه قد سمع بمخلوق اسمه البروستاتا، قال في خشونة: حتى لو كنت مصابًا بأب البروستاتا وأمّها، يجب أن تذهب.

أمسكه من يدِه، وجرَّه عبْر دروب مداري الملتوية إلى مركز الشرطة الهزيل، الذي يزعم العاملون فيه أنه أعظمُ مركزِ شرطة في المنطقة، وطوال الطريق كان عمبابا يفكّر في حيلة يتخلّص بها من طلب القائد أن يحضر له (ندمان قل). لكنَّ (ململة) مرارًا، ولم يستجب، حتى بعد أن حلفَ عليه أنه سيقتله ويمحو سيرته إلى الأبد. لقد كان (ململة) مفيدًا في مهمّة إشفاء الغليل، وزوّده بأشياء لم يكن هو وحده يستطيع الوصول إليها، كان (ململة) هو مَن تذكّر قصّة عفراء مطر التي دفنوها منذ سنوات طويلة جدًّا من مجرّد شكٍّ في ورمها الليفي، وضاعت القصة في بئر الحياة العميقة، هو مَن نكشَ قصّة شريك النجار، الذي كان في شبابه ساديًّا خشنًا يتلذّذ بتعذيب النساء، وعذَّب واحدةً اسمها حواء حتى رحلت، حوادث كانت معروفة قديمًا ومنسيّة حديثًا، ويمكن أن يتذكّرها الكثيرون ولا يحسّوا بتأثيرها لو قيلت في جلسة سمرٍ عادية على دكّة طينية أمام أحد البيوت.. لكنّ نكشها، في ذلك الجوّ المشحون، وبواسطة ساحرٍ تركي غريب يعلّق أسطورته على أذنه، ويخرج من عينيه الوميض

قطعًا سيكون لها أثرٌ أقلّ ما يمكن وصفه به هو أنّه أثرٌ خطيرٌ ومدمّر. الأشياء التافهة الأخرى كانت وليدة الصدفة، ولم يكن من الصعب معرفة مَن تزوّج وسيرته الذاتية حين شاهدوا حفل عرسٍ أثناء عبورهم لإحدى القرى قادمين إلى مداري لينادي الساحر على نسيبة لادو ويصيبها بالإغماء، ومسألة الفتاة الحامل وغيرها، أشياء عادية يمكن ملاحظتها وحتى من قِبَل العميّ وفاقدي الفطنة. لم يستجبْ (ململة)، ودخل عمبابا إلى غرفة القائد، وذهنُه خالٍ من أيّ حيلة، تخرجه من ورطة الساحر (ندمان قل)، عبد الغني باشاكر الذي عاد إلى جحر عامل المراحيض العبابيني مُنتظرًا عمبابا حتى يحضر كما نصّ الاتفاق، وقد ذهب عمبابا بالفعل بعد ثلاثة أيام من موت الفيلين، اصطحب زيابا، والمرأتين المسنتين، صبورة وديمومة، والكلب التشوكي الأبرص حتى يسلمه للرجل الذي اشتراه. عثر بصعوبةٍ لصبورة على وظيفة دمية بشريّة في منزل أحد الأثرياء تتنفّس لكلّ طفل أو زائر يأتي إلى ذلك البيت، لقاءَ أن تأكل وتشرب وتنام، أرهقته ديمومة أكثر في محاولة توظيفها، ولا يرغب أحدٌ في احترام امرأة في الخامسة والستين ترتدي ملابس شبيهة بجلد الثعابين، وتحتضن إناء فخاريًّا أسود، وتركها أخيرًا جائعةً على أحد الأرصفةِ ومضى، وفوجئ حين ذهب إلى جحر عامل المراحيض العبابيني لتفقّد باشاكر، وتقديم بعض الأكل النّظيف له، وعدد جديد من مجلة هومز تراب عرفانًا له لإجادته المهمّة على أكمل وجه، أنّه لم يكن موجودًا، لا هو ولا العامل العبابيني، وعثر على

شهودٍ غير متأكّدين تمامًا، أخبروه أنّ رجلًا أبيض بملامح الأتراك قد وُجِدَ معلّقًا بحبلٍ من رقبته في هذا البيت. أصيب عمبابا بالهلع، وجفّ ريقه، ليس بسبب موت مختلسٍ مشرّد، قد لا يحتاجه مستقبلًا، ولكنْ من خوفه أن يكونَ قد أفشى سرّ اللّدغة المميتة للعامل، وكان قد أفهمه حين أتى بباشاكر إلى بيته أنّه صديق قديمٌ يحتاج إلى جحر بعيدٍ عن إزعاج عائلته ليتدرّب على دورٍ سيؤدّيه في شريط سينمائي تسجيلي عن عادات الشعوب. أكثر من ذلك خاف أن يذكرَ العامل اسمه، وأنّه مَن أحضر الرجل، وتتشعّب القضية حين يلتقطها الإنتربول، وربما تشمّ الأنوف المدرّبة على شمّ الخطايا رائحةً مهمّة قذرة أنجزت في بلدة اسمها مداري، وفي حقّ تاجر كان معروفًا حتى لتراب الأرض. استعان في تلك اللحظة بذبذبات (ململة) في رأسه، وكان اللئيم غافيًا، أو خجلًا، لأنّه لم يصدّق في شأن إمكانية انتحار الرجل. انطلق بلا وعي إلى مركز شرطةِ نيروبي الكبير، حيث يتوقّع أن يجد العامل العبابيني هناك يخضع لتحقيقٍ مُزْرٍ عن سبب وجود ذلك المنتحر في بيته، وقد كان بالفعل ما توقّعه، لقد عثر على العبابيني وعرف منه أقواله التي أدلى بها للمحقّقين.. لم يكن ثمّة خوف، والعبابيني أصرّ بشهامةٍ وبأخلاقٍ قبلية لم ينسها حتى بعد أنْ هاجر، على أنّه لم يرَ ذلك الرجل أبدًا من قبل، وأنه عاد إلى بيته ليجدَه قد اقتحم البيت، سهل الاقتحام، مزّق ملاءة نومه، وأغطيته وعلّق بها نفسه. وبسؤاله عن ألواح الخشب المنجورة في هيئة آدميين، وأغلفة تحاميل الجلسرين الفارغة، والعدد التاريخي من

مجلة هومز تراب؛ نسبها إلى نفسه، التحاميل تخصّه، يستخدمها لفكّ إمساك البطن، والمجلة هدية من صديق، وألواح الخشب أهدافٌ يتعلّم فيها الرماية مستخدمًا الحصى. وحتى الجيران ممّن سئلوا، أنكروا أنهم شاهدوه مِن قبل، إمّا لأن ذلك حقيقة بسبب التزام الرجل بعدم الخروج إلّا نادرًا، أم تواطؤ معروف في الأحياء الفقيرة لا يحتاج إلى تلقين من أحد. لم يشرْ عامل المراحيض إلى أي مهمّة قذرة نفّذت، وتنفس عمبابا ساعتها بعمق، وشبّ بقدميه حتى رأس عامل المراحيض العالي، وقبله. ليس ثمّة خوف، والقضية ستطوى حتمًا، وربما لا يعرف الإنتربول- قط- أنّهم لن يطاردوا عبد الغني باشاكر بعد اليوم، ويستمرّوا في ملاحقته إلى الأبد. وعلى مدى يومين قضاهما في نيروبي، أغفل رعاية زيابا التي كانت تتجوّل بمفردها، تتصفّح قوائم الطعام في المطاعم الراقية، أو تجمّل عينيها بموضات الأزياء الجديدة التي تشاهدها على أجساد السائحات الأوروبيّات، دخل عدة دوائر قضائية، وأقسام شرطة، وتحقّق من خلوّ أذهان العاملين في نوستالجي كافيه مِن أي جلسة ربطته بغريبٍ كان يبكي ذات يوم على إحدى الموائد.

كان قائد شرطة مداري جالسًا على مكتبٍ متواضع من الخشب، ويدخّن واحدة من سجائر القندول سيئ الرائحة، أسوةً بغيره من العسكريّين في تلك المناطق، الذين يعتبرون تلك السجائر فاكهة، ولطالما جلبها تاجر الحدود الميّت في نشاطه التجاري، ومن أجل غضّ البصر عن شرّ

كثير، كان يحتويه ذلك النشاط.

- لا تجلس من فضلك، وكنْ واقفًا.

ردّد القائد بصوت صارم، في اللحظة التي سحب فيها عمبابا مقعدًا من البلاستيك، وهمّ بالجلوس.

- هل تعرف سببَ استدعائك إلى أفضل قسم شرطة في المنطقة؟

- لا يا سيدي.

يقول عمبابا، ويلكز (ململة) في ذهنه بقوة.. استيقظ.. استيقظ أرجوك، وكان لحسن الحظّ أنّ الشيطان استجاب هذه المرّة، زوّده بالحقيقة كما حدثت بالفعل، وأوعزَ إليه أنْ يرويها أمام القائد مع بعض التعديل، (ندمان قل)، الساحر التركي العظيم انتحرَ بسبب الحبّ، علّق نفسه بأحد حبال السّتائر أثناء وجوده في فندقٍ راق في دولةٍ أوروبية، وقد عرف بالخبر أثناءَ زيارته لكينيا في الأيام الماضية. هذا بالضبط ما سيقوله، وأضاف (ململة) أنّ قائدًا إقليميًّا في بلدةٍ مغمورة مثل مداري لا يملك أيّ إمكانات تؤهّله للخوض قي المسألة أكثر، سيقبلها بلا شك.

- أنت هنا بخصوص (شامل رطيب) الملقّب بشروم الأصلع، وعلمنا أنك ستبقى في مداري، وتبقيه معك، وبالتالي لا يصلح التعهّد القديم، وعليك كتابة تعهّدٍ جديد تتحمّل فيه كلّ تبعات صاحبك.

تنفّس عمبابا، تنفّس بعمق:

- أخبرتكم سيدي عدّة مرّات أنّ الرجل تاب، ويقدّم فقرةً في السيرك.

- أولًا لا يوجد في علم الإجرام لصّ تائب تمامًا، ثانيًا لم يعدْ هناك سيرك يقدّم فيه فقرة، ماذا سيفعل في رأيك حتى يعيش؟

كانت في ذهن عمبابا مسألة تجارة الدرّاجات الهوائية، وافتتاح ورشة لإصلاحها، وسيعهد بذلك النشاط لشروم الأصلع، الموضوع قيْد الدراسة، في الواقع ما يزال مشروعًا ضبابيًّا ولا يوجد تمويل. وململة يتدخّل بعنف، ويلقّنه:

- سيدي.. ستصل في الأيام القادمة شحنةٌ من الدراجات الهوائية بعد أن حصلت على امتياز بيْعها وتصليحها في مداري، وسيقوم شروم بتلك المهمّة.. سيدي سأهدي الشرطةَ دراجتين.

بدا أنّ القائد شبهُ مقتنع، وشبهُ الاقتناع هذا بالذات كان ما يبحث عنه عمبابا، ويكاد يعرف تمامًا أنّه لن يحصل على اقتناعٍ كامل من أحدٍ في مداري يخصّ أي مشروع ينوي المغامرة فيه، وحتى شعبيّة زيابا المستقلّة منذ عدّة أيام في جمع تبرّعات وهمية كاذبةٍ لعلاج نجمة السيرك السابقة صبورة ملكي، التي أصيبت بالشلل فجأة، وهي في نيروبي خضعت لقانون شبه الاقتناع ولم تحصل على الشيء المتوقّع. يعتبرونه

مسئولًا مباشرًا عن موت تاجر الحدود، ولا يريدون أنْ يفهموا الأمورَ بظاهرها، نفس الظاهر الذي فهمه رابح مديني، ومرِضَ ومات.. لم أؤلف فقرة الساحر حتى أفنّدها.. هذا هو الظاهر الذي يجبُ عليهم فهمُه. ألّفت الفقرة من ألِفِها إلى يائها بمساعدة (ململة).. هذا هو الباطن الذي يعرفه وحده، ولا يجب أنْ يعرفه أحدٌ آخر، ولحُسن الحظّ، أنّ باشاكر كان يائسًا، وانتحر حاملًا معه السرّ. القائد شبهُ مقتنع، وتتأرجَح في يده سيجارة قندول أخرى غير مشتعلة، ولو كان عمبابا يدخّن لأخرج قدّاحة أو ثقابًا من جيبه، وأشعلها له.

- ولماذا تهدي الحكومة يا أخ؟ هل الحكومة في حاجةٍ إلى إهداءات؟ خصّص إهداءك حتى يستفيد الجميع.

تلك اللحظة، التقط (ململة) خيطَ الرّسن، وابتدأ يقود قافلةَ الطمع التي تجمْهرت في كلام القائد، يريد الدراجتين لنفسه إذًا، لا بأس سيجعلهما ثلاثًا، أربعًا، وخمسًا.. وحين يفتتح النشاط حقيقة ربما يكون قد نسي، وإنْ لم ينسَ يستطيع مساومته في ذلك الحين، ململة موجود، ودائمًا لديه حلّ.

- حاضر يا سيدي، سأزيد الكمية وأخصّصها.. لا تقلق.

في ذلك اليوم، خرج عمبابا أزرق العبابيني من قسم شرطة مداري، ليس مطرودًا، ولا مسئولًا

عن نشاطات شروم الأصلع التي ربّما يمارسها في مداري في مستقبل الأيام، خرج شامخًا متغطرسًا يصحبه عسكري مطيع، فتح له بابَ عربة الجيب التي تخصّ القائد ليجلس فيها، وأقلّه إلى مكان مساكنه الخشبية، التي لم تتمّ إزالتها حتى الآن من ساحة الوسط، بالرغم من انتهاء السيرك وتشتّت نجومه، وموت أنجل وطيلسانة.. وكان عمبابا قد توصّل إلى اتّفاق مع الإدارة البلدية أنْ يبقى فيها حتى تستضيف البلدةُ سيركًا آخر، ممّا يعني سكنى مستديمة، ولا يوجد سيرك آخر في أيّ مكان في الدنيا، يغامر كما غامرَ السيرك العظيم، ويأتي إلى بلادٍ لا تمنح المتعة حقّها بنزاهة كهذه البلاد.. ولولا وجود زيابا خضراء العينين، وما يتجمّع من حصاد فقرتها، وقُبُلاتها التي تشتّتها على الجميع، ويمتصّها كلّ قلبٍ واثقٍ أنّها قبّلته وخصّصت له؛ لكان السيرك قد تمزّق منذ عهد. حتى يأتي سيركٌ آخر، وعمبابا يبتسم في سرّه.. ما عليه سوى العثور على بنّاءين رخيصين، وتحويل تلك المساكن الخشبية المؤقتة إلى بيوت طينٍ أكثر تحمّلًا لمتغيرات الطبيعة.

***

- ١٥ -

أوّل وجْه صادفه الجريح سالمان عبيش بعد أنْ أنزله العسكريون في وسط سوق مداري، وقالوا له: تدبّر أمورك يا عرّيف. ومضوا إلى معسكر الجيش الذي يقع خارجَ البلدة، هو وجْه خوجال المسيري، صاحب تجارة رابح الذي اشتراها من أهْله المتصارعين، ذلك ببساطة شديدة أنّهم أنزلوه أمامَ متجر لوازم. كان الجريح متأثرًا بشدّة، دموعه هطلت بغزارةٍ حين دخلوا مداري، واستمرّ يذرفها طوالَ طواف عربة المجروس بالبلدة عابرةً طرقَها وأحياءها، ونظافتها واتساخها قبل أن تصل إلى السوق، غير عابئ بعيون العسكريّين المستغربة، وحلوقهم القويّة التي كانت تنهره، وتطالبه بالكفّ عن إيذاء رتبة العرّيف التي يحملها، وتخفيضها إلى رتبة ولدٍ صغير حُرم من الحلوى، أو امرأةٍ تتبع جنازة زوجها الميّت. يتأمّل أشجار الشوارع، ويظنّها وهي تتأرجح بفعل الهواء تبكي معه، يتأمّل البيوت، ويفكّر في سكانها، وأنّهم أهله الحقيقيّون، ويتأمّل الآن خوجال المسيري ويفكّر في سرّه.. ربّما يكون عمي أو خالي. وضع حقيبته الثقيلة بفعل تذكارات أمّه على رصيف لوازم، ودخلَ مردّدًا: السلام عليكم.

أكمل خوجال، تسليم علبة مربى القرع لامرأةٍ شابّة طلبتها، والتفت إليه، رادًّا: وعليكم.. ماذا تريد؟

كان ردًّا جافًّا بالطبع، ردّ بائع قديم، وأمين، ارتقى فجأةً إلى رتبة تاجر حدود بسبب لوحةٍ أسطورية، كانت امرأته على وشكِ إلقائها في الطريق بوصفها قاذورات، ولا يستطيع- حتى الآن- معرفة الطريق إلى كينيا، أو يوغندا، أو الكونغو برازافيل، والواقع أنّ هذا كان سيكون ردّه حتى لو لم يكنْ قد ترقّى، وخوجال أصلًا يحمل ذلك الوجه الخشن، ويبدو رسميًّا وفظًّا، حتى وهو على فراش الحميميّة يحتضن امرأته. لم يُصدم الجريح بتاتًا، وقد جاء إلى مداري ليبتهج، لا ليصدم، الصدمات تركها في جوبا، ولن تكون ثمّة صدمة أكبر من موت أمّه.

- أنا الرقيب الجريح سالمان عبيش مِن شرطة السجون.

قالها، وابتدأ في قراءةِ ملامح خوجال ليعرف ردّ فعلها، ولم يقرأ شيئًا، إنه ردّ الفعل العادي المتّبع لدى التجّار في مواجهة الزبائن:

- نعم يا رقيب .. بماذا أخدمك؟

اضطر الجريح عند ذلك للدخول إلى المرحلة الثانية من خطّة استدرار عطف مداري، التي جاء يحملها، بعد أنْ فشلت مرحلة إحداث الوقع حين ينطق باسمه أمام هذا التاجر، المرحلة الثانية، هي التذكير، النّحت في النسيان بعمق، وجلْب مفرداته، وكان أنْ سحب مقعدًا داخل المحل، جلس عليه بلا استئذان، وابتدأ بلا مقدمات، يحكي

لخوجال المسيري المشغول بتلبية حاجة الزّبائن، ويستمع إلى حديثه بضجرٍ واضحٍ عن منابعه التي يزورها لأوّل مرّة، وأهله الذين يتوقُ لمعرفتهم في أي حيّ يوجد بيت أبيه؟ ومَن بقي على قيد الحياة من عائلة عبيش حتى يسرع إليه فورًا، ويقبّل رأسه. انتهى من سرْد الأحزان والتطلّعات كلّها، وما وجد أمامه كوبَ شاي ساخن، أو زجاجة عصير ترحّب به، وفاجأه خوجال للمرّة الثانية حين أفشل خطةَ استدرار عطفِ مداري بقوّة:

- اسمع.. لا يوجد هنا عائلة اسمها عائلة عبيش، لا بدّ أنك مِن بلدة أخرى.

- بلدة أخرى؟

ردّد الجريح مندهشًا، وخوجال يصعد على سلمٍ خشبي، يتناول زجاجة فازلين خضراء، يناولها لرجلٍ ناعم، كان يقف متكئًا على طاولة البيع، يمضغُ عِلْكة.

- أيّ بلدة أخرى يا عمّ؟ أنا مِن مداري.

- هذه هي مداري.. وهي خالية من عائلة اسمها عبيش، يمكنك سؤال السوق كلّه إنْ أردت.

أرجأ الجريح كوابيسه ريثما يستقرّ ويتحقّق أكثر، ولم يبدِ اندهاشًا جديدًا، واستخدم تقييمَ السجانين في حقّ خوجال؛ حيث وصفه في سرّه بالعصيدة المضروبة، وهو لقبٌ كانوا يطلقونه

على السّجناء غير المتعاونين، حمل حقيبته القماشية الثقيلة وخرج من لوازم، مشى أمام المحلات العامرة، والمطاعم الرخيصة التي تعجّ بالزبائن، وجلس على رصيفٍ حجري مكسّر يتأمّل العابرين، ينتقي العرب منهم، ويطلق عليهم لقبَ العمّ، والخال، وابن العمّ، وغيرها من تلك الألقاب العائلية المشبعة، وشاهد آدم مطر يتمشّى أمامه ببطء، وفكّر أنّ والده كان سيكون في هذه السنّ لو عاش.

فجأة توقّفت أمامه فتاةٌ رشيقة، خضراء العينين، ترتدي قميصًا أسود، وتنّورة حمراء قصيرة، ويقف خلفَها جيشٌ من الرجال الهائمين. إنها زيابا معشوقة الجميع، كانت تحمل كيسًا بلاستيكيًّا شفّافًا تبدو بداخله عملاتٌ فضية وورقية.

- تبرّع لعمل إنساني يا أخ.

قالتها بلغةٍ عربية شبيهة بلغة جوبا المكسرة، وهبّ الجريح واقفًا، ويحسّ فجأة بالعطش، وهذه فتاةٌ في مداري لم يرَ شبيهًا لها أبدًا من قبل، ولا حتى في السائحات الأوروبيّات اللائي كنّ يزرْن تيلا في مطرة جوبا، أيّام أصبح نحاتًا عظيمًا، ويشترينَ تماثيله برُخص التراب. فتاة بلا شبيه، وفي بلدته التي لا يعرفُ الآن هل هي بلدته بالفعل أم لا؟ وقد أبعدها ذلك التاجر، العصيدة المضروبة، عنه بلا أيّ وازع من ضمير. أدخل يده إلى جيبه بلا تردّد، وتبرّع للعمل الإنساني من دون أن يسأل عن تفاصيله، وفي أعماقه أضاء نورٌ

غريب، النورُ الذي يؤكّد بعد أربعين عامًا من عدم تذوّق المرأة، والادّعاء بأنّ التي يريدها لم تخلَق بعد، أنّها ربّما تكون قد خلقت.. وبعد ثانية أخرى يؤكّد إنّها خُلقت بالفعل. ابتعدت زيابا جارة جيشها الهائم تحت حماية شروم الأصلع، المكلّف من عمبابا بحمايتها، وأمسك الجريح بحقيبته، جرّها على الأرض، ولم يعدْ يستطيع حملها من تلك المرأة التي خُلقت له، وهل ستفهم حقيقةَ أنّها فتاته لو طاردها الآن أو في أيّ وقت آخر؟ وحكى لها عنْ مشاعره التي كانت غافيةً واستيقظت، رجولته التي أدّت بصاحبات أمّه إلى محاولة تمزيق سراويله للتأكّد منها، وتأكّدت الآن؟ هذه مفاجأة مداري بلا شك، وحين يعثر على الأهل والأحباب ستكون ثمّة مفاجآت أكثر. لم يكنْ يدري إلى أين يذهب وقد اقترب الليل، ولا يستطيع الذهاب إلى السجن إلّا في الصباح، الإجراءات الصارمة تتطلّب مواجهة القائد أولًا، وتسليمه خطاب النقل الرسمي، وبعد ذلك يمكنه ممارسة مهامّ وظيفته. لقد ترك دراجته الهوائية هناك، وكلّف مَن يرسلها له حين يستقرّ، ولو كانت معه لاستقلّها الآن في متابعة خضراء العينين من بعيد، والاستمتاع بالعذاب الذي ضخّته في قلبه، وذهبت.

كانت الممرضة المسنّة سامتا، التي تعمل في مستشفى مداري منذ إنشائه، خارجةً من متجر لوازم، وتحسّ بالضيق الشديد بعد أن فشلت كلّ جهودها في إقناع خوجال المسيري أنْ ينتهج نهجَ رابح مديني، ويمنحها حنّاء القرود بلا ثمنٍ

لصبْغ شعرها في ذلك اليوم بالذات، وكان ثمّة عرس لإحدى قريباتها سيقامُ في المساء. ذكرته كيف كان يطيع تعليماتِ رابح فيما مضى، وردّ عليها باقتضاب، إنّه الآن صاحب التجارة، وعليها أن تتعوّد على شراء ما يخصّها بدلًا من تسوّله، شاهدها الجريح في زيّ الممرضات تتحدّث إلى نفسها، ثيابها بيضاء، وصندلها المضغوط من كثرة استعماله، أبيض، غمغم.. ملائكة الرحمة، وشاهدته يجرّ حقيبته القماشيّة، ويتلفّت، وبدا لها ضائعًا ليس من مداري، يبحث عن مأوى.. كانت توجد داخل المستشفى في ذلك اليوم، عدّة أسرَّة فارغة، والدكتور إيزايا لن يحضرَ في هذا الليل إلّا إذا طرأ طارئ يستوجبُ حضوره، كأنْ يُطعن أحد، أو تتهيّج المصارين في بطن أحد، وبالرغم من أنّ مداري كانت ممتلئة ببيوتٍ رخيصة يؤجّرها أصحابُها كفنادق بلا أساسيّات لإيواء المغامرين القادمين من عمق إفريقيا راكبين سكّة الخطر، أو بعض عرب الخليج الذين يأتون في رحلاتِ صيدٍ مؤقتة بعرباتهم ومعداتهم، إلّا أنّ ذلك الغريب لا يبدو ملمًّا بشيء، ولنْ يضيره أن يدفع ثمنَ حنّاء القرود، يساهم في تجديد مظهرها، ويبيت ليلته هذه في غرفة ستنظّفها له بيديها، تغيّر ملاءة سريرها، وغطاءها، ووسادةَ النوم فيها. اقتربت من الجريح، حيّته في بشاشةٍ مادّةً يدها، ولاحظ أنّ أصبعَها الصغير كان مقطوعًا:

- هل أنت غريب عن مداري؟

سألته.

- حتى الآن نعم.. ولكنّ الصباح رباح.

ردّ الجريح، وحدّثها بوضوحٍ عن رحلته إلى المنابع، التي كان يحلم بها منذ الصغر، ووصلَ منذ قليل، ويبحث عن مكانٍ يقضي فيه ليلته. أراد سؤالها عن حقيقة الجنيّة ذات العينين الخضراوين، التي تجمع تبرّعات في كيس بلاستيك، واستحى، خاف أنْ تعتبره صعلوكًا، وتبدو في سنّ جدةٍ واجبة الاحترام، وعاد وسألها عن الفتاة بعد أن طلبت منه ثمنَ حنّاء القرود مقابل استضافتِه هذه الليلة في المستشفى.. جدّة غير واجبة الاحترام، هذا للحنّاء وهذا لتحدثيني عن تلك الفاتنة. لم يصدم أبدًا، ولا أحسّ بضآلة الفتاة، ومرارة طعمها، حتى بعد أنْ عرف أنها كانت لاعبةَ سيرك تمّ تفكيكه مؤخرًا، وكانت فكرتُه عن السيرك في غايةِ الضعف، فهو لم يشاهدْ واحدًا قطّ من قبل، وما كان سيرك عمبابا- ولا أيّ سيرك آخر- يصل إلى جوبا، وفيها صالةٌ للسينما افتُتحت منذ عدّة أعوام، وتقوم بواجب الترفيه خيرَ قيام. نادت المرأة المسنّة على عتّال جنوبي ممتلئ الجسد، كلّفته بحمل حقيبة الجريح، ووضْعها في عربة كارو، وذهبتْ إلى لوازم، عادت بحنّائها بعد أن دفعت لخوجال، وذهبت مع الجريح إلى المستشفى، أدخلته بحذرٍ شديد إلى غرفةٍ فيها مريض واحد يبدو شبْهَ ميّت، وأوصته أن يتصنّع المرض إذا ما شاهد ممرضًا، أو جاء الدكتور إيزايا، الطبيب الوحيد بالمستشفى، لأيّ سبب. كانت لائحة الأمراض التي سلّمتها له ليختار منها

واحدًا؛ قصيرةً ودقيقة، آلام حادّة في البطن، صداع واستفراغ، نزيف من مسالكه البولية، وفي كلّ الحالات سيسمح له بالبقاء في المستشفى حتى الصباح. وهي تهمّ بالخروج، سألها الجريح بغتةً عن عائلة عبيش، إحدى عائلات مداري العريقة.. مَن بقي منها يا جدّة؟

- لا توجد عائلة اسمها عبيش هنا، ولم تكنْ على الأقلّ منذ سبعين عامًا؟

- كيف؟

تورّم قلب الجريح مجدّدًا، وغزتْهُ الوساوس، وأوشكَ أن يشكّ أنه ليس من مداري بالفعل، وما قاله تايلور تيلا، لا بدّ كان مزاحًا، أو كذبًا مارسه في حقّ ولدٍ يافع كثيرِ الأسئلة. هل هذا معقول؟ وقد جاهد في شوقه، وجاهد أكثرَ حتى ينالَ ذلك النقل، هل يكون قدْ أخطأ بذلك؟

فجأة، سألته الممرضة:

- ما اسم أمّك يا عرّيف؟

- رضيانة الخضر.

بدا للجريح كأنّ الممرضة المسنّة اهتزّت قليلًا حين سمعت اسم أمّه، اهتزازًا خفيفًا، اختفى من وقفتِها وعينيها سريعًا، مثلما حدث.. ردّدت:

- لا أعرفها.. لم أسمعْ بها أبدًا من قبل.

تركتْه وخرجت. ولأوّل مرّة أحسّت سامتا أنّ على لسانها الذي انفتح سنين لنقل الأسرار وكشْف العورات والسراويل الداخلية، واضطراب القساة أمام سطوة المرض؛ أنْ ينغلق، وإذا لم يفعل ستقطعه بنفسها وترميه لكلاب الشوارع. كانت هي الممرضة المتدرّبة، التي أحضرها رابح مديني، وعمبابا أزرق إلى كوخٍ مهجور ذات يوم، لتخفي عارًا.. وفعلت ذلك بيدين مُرتعشتين، وذهنٍ مشتّت، ونالت أجرَها. الممرضة التي انتقاها الطبيبُ الإنجليزي الذي افتتح مستشفى مداري من عشرات تقدّمن لتكون نواةً لممرّضات وممرضين سيأتون بعد ذلك، ويمضون بالمهنة خلفًا للإنجليز.. يا للصدفة الغريبة. ذهبت إلى بيتها الكائن في حي ميرا الشعبي، جلست طويلًا أمام المرآة تتأمّل شعرها الأبيض، الذي كان مستورًا بالحنّاء منذ أنِ ابيضّ، وما ظهر عاريًا هكذا إلّا بعد وفاة رابح، وتريد سترَ عُريه اليوم بمناسبة عرس قريبتها. لقد ظلّ ما حدث في ذلك اليوم سرًّا بفضل رابح الذي كان يساهمُ في جعْله كذلك، وأيضًا بفضل خوفها الشخصي من ضياع مهنتها لو أفشت سرًّا يخصّها، وربما ضياع روحها لو عرف أهل رضيانة ما فعلت، بالرغم من أنّهم تركوا البلدة تمامًا، واختفوا بعد أنْ فرّت، ويأتي عمبابا أزرق بصحبة سيركِه الفقير كلّ عام، ويصافحها حين يلتقيها، بلا معرفة، وكأنه نسيَها، ولا تبتئس من ذلك النسيان، تعتبره سخاءً بلا حدود. لا أحدً في البلدة- باستثناء رابح- يعرف، والآن لا أحد باستثناء عمبابا يعرف، وعمبابا يعرف القديم فقط، ولا

يعرف الجديد، يعرف حتى لحظة فرار ملكة الشاي بعارها وطفلِها، ولا يعرف أكثرَ من ذلك. اعتذرت لشعرها بشدّة حين قرّرت تركه شعر امرأة مسنّة حتى تموت، لن تصبغَه بعد اليوم، لن تصبغه أبدًا، ولن تكون في نظر الفتى المسكين أقلّ مِن جدّة واجبة الاحترام، خرجت من بيتها سريعًا قبل أن يغلق السوق أبوابَه، أعادت حنّاء القرود بنفس غلافها إلى خوجال المتذمّر وذهبت إلى المستشفى؛ حيث كان الجريح ما يزال يوسوس بشأن خطأ ارتكبه بالعودة إلى بلده، لم يخرج منها أصلًا، وبين تلك الوساوس، يطلّ وجْه زيابا الفاتن.. زيابا.. زيابا.. لقد خُلقت المرأة التي يريدها، ولم يكن يعرف، وسيبقى في مداري حتى لو لم تكنْ بلدته، يبقى من أجل زيابا، وقد لا يبحثُ عن أهل أو أقارب إلّا إذا حدث ذلك مصادفة. غدًا مِن شروق الشمس سيذهب إلى السجن يسلّم القائد خطابَ تكليفه الرسمي، يبحث عن سكنٍ دائم، مؤهّل لإيواء زوجة خلّابة، ويسعى لتقريب وجهات النظر.. الصباح رباح، ردّدها مرارًا، آملًا أنْ يتكرّم النوم عليه بساعةٍ أو ساعتين، وكان النوم في غاية الشحّ، نعاسًا مضطربًا، تافهًا، ثقيلَ الدم، ويستغرب من نوم المريض الرّاقد على السرير الآخر، بلا آهةٍ تصدُر.

***

كان سوق مداري، المسمّى السوق وسط المحليّين بلا لقبٍ مبجّل أو غير مبجّل، كما كان الحال في سوق البردعة القديم قدْ أنشئ عام ١٩٤٠، وجاءت فكرةُ إنشائه مبادرةً من مستر تومسون هاورد، مأمور البلدة الإنجليزي في ذلك الحين. كانت تجارة الرّقيق قد اندحرت بشدّة بعد إدانتها بمواثيق ومعاهدات دولية، وما عاد ثمّة جنوبيّون حفاة وعراة يُساقون إلى مصائر مجهولة، ونُظّمت تجارة الماشية حيث لم تعدْ بيعًا عشوائيًّا بلا قواعد، ولكن أصبحت بيعًا مرتّبًا بإشراف الحكومة يتمّ في أحدِ أطراف البلدة حرصًا على الصحّة العامة، ونظافة الهواء، من تلك الروائح النتنة. منذ نشأ السوق، والعربُ أسياده الموقّرون، سطوْا عليه، استعمروه بذكاءٍ وحيلٍ كثيرة، وخلقت في فترةٍ قصيرة أنشطةً تجارية متنوعة لم تكن تخطرُ على بال أحدٍ من قبل. فتحت الدكاكين العامرة أبوابَها، فتحت مطاعم مثل بابايا، واللورد، وسلسلاوي، متعةَ التذوّق التي لم تكنْ متوافرة، وجاء رابح مديني مهاجرًا من مهنة تنظيف الدواب، وتقليم أظفارها ليغزو التجارة الحدودية أولًا، وكانت تتمّ في البداية عن طريق الجمال، ثمّ تطوّرت إلى تلك الشاحنات الثقيلة المستعدّة للتوغّل في عمق إفريقيا بلا مرض، أو تعب. أنشأ لوازم، وطوّره، واستمرّ في تطويره ليصبح في منتصف الستينيّات واحدًا من أهمّ متاجر البيع في المنطقة كلّها. ولأنّ

التجارة في ذلك السوق كانت راسخةً ولا تحتمل الخدشَ بنشاطٍ جديد إلّا نادرًا، كما حدث في حالة بيع الببغاوات، وسوليفان القديس، وتمّ قبولها لأنّها من غرائب رابح، فإنّ مجرّد التفكير في إنشاء صالون تجميل نسائي في وسط ذلك السوق، ودعوة النساء ليتجمّلن، ويمتّعن أزواجهنّ بمتعةِ النظر، تعدّ إحراجًا كبيرًا للسوق، وتعريته من ملابسه المحتشمة إلى حدّ ما حتى ذلك الوقت.

كان عمبابا أزرق، قد امتلك نقودَ البداية كما يتصوّر، وفي غرفته الخشبية التي كانت سكنًا مؤقتًا، وحوّله إلى سكنٍ دائم، وبحضور زيابا، وشروم الأصلع، الوحيدين المتبقيَيْن من طعم السيرك، جلس في ذلك المساء يعدُّ الحصاد: هذا ثمن الكلب العجوز.. هذا أجر المزايدة على الفيلين، استلمناه من تاجر الأغنام.. هذا ما جمعتِه بمجهودك يا زيابا حتى اليوم. لا بأس.. هل مررت على عمدة البلدة، وقائد الشرطة، وقائد الجيش، وأولئك المتعجرفين في المجلس البلدي؟

- غدًا في الصباح.

ردّدت الفتاة، وتشعر بحاجةٍ ملحّة إلى مكعّب ساخن مِن حلوى حصان طروادة، التي ما عاد عمبابا يهتمّ بصنعها، ويبدو طوالَ اليوم متخبّطًا في أفكاره المُخيفة، وزاحفًا في المشاوير الطويلة التي يقطعها ماشيًا، أو على ظهْر حمار مُتهالك، يكاد يسقطه، وقد ردّ الشاحنة ومقطورتها إلى مالكهما في نيروبي، في نفس

الفترة التي تفقد فيها باشاكر، ووجده ميتًا، وعاد إلى مداري برفقة زيابا، راكبًا على ظهر عربة، تنقل جماعة من الهيبيز الإيطاليين، كانوا يحملون عقيدةً غريبة، وخريطة ضخمةً للعالم نثروها على وجوههم، ويدعون طوالَ الرحلة أنّ القيامة على وشك أنْ تقوم، وسيشاهدون بداية قيامها في بقعةٍ تقع جنوب السودان اسمها (واوا)، وما كانت سوى تلك الصحراء الجرداء الموصوفة في كتابِ رحلاتي إلى المنابع والمصبّات للرحّالة الإنجليزي سير ويلفر، والتي احترق فيها رابح مديني بنار تابيتا، جنيّة الليل. كانوا طوال الرحلة يتدرّبون على فتح أعينهم باتساع، ومطّ حلوقهم، وترديد صلوات مُلحدة اغتاظ منها عمبابا، برغم وجود (ململة) في ذهنه، يردّدونها بلغة عربية مطعّمة بلغةٍ تبدو مخترعة، ولا وجود لها في اللغات، واقترح أحدُهم أنْ تنضمّ الفتاة زيابا إلى شعب القيامة وتضحي بعذريتها- إن كانت عذراء- كأوّل قربانٍ نظيف يحملهم جميعًا إلى الغفران. كان عمبابا يزفر بشدّة، واستخدم لأوّل مرّة نشيدَ آدم وحواء المنمّق في مكان غير لائق، وفوجئ بشعب القيامة يردّد معه النشيد، ويعتمده تعويذةً ملتهبة من تعاويذ عقيدته. بالقربِ من مداري، وفي طرف بعيد من وسطها العامر، بذل عمبابا مجهودًا مضاعفًا حتى استلّ نفسه، واستلّ خضراء العينين، وهبطا من العربة، وهي ماشية، وقطعا المسافة إلى ساحة الوسط على أقدامهما، ووصلا مُنهكين.

في وسط السوق، وبالقرب من متجر لوازم،

كان ثمّة متجر طيني مغلَق، وقد تناسلت خيوطُ العنكبوت على بابه، وقيل لعمبابا حين فكّر في إمكانية أن يكون صالونَ تجميل، أو ورشة للدراجات الهوائية، إنّه متجرٌ مهجور، لا يخصّ أحدًا من التجار، ولا يتذكّر أهل البلدة أنه كان مفتوحًا، ويبيع سلعةً في يومٍ من الأيام. غامر بالذهاب إلى لوازم، وسؤال خوجال المسيري، ويعرف أنّ خوجال لا يحبّه، ونعَتَه بالتّيس من دون أن يحسّ بأنه ينعت نجمًا من نجوم السحر بلقبٍ مهلهَلٍ وتافه. واستغرب بشدّة حين ردّ عليه خوجال بطريقة عادية، أخبره بنفس القصة، المتجر لا يخصّ أحدًا، وإذا أراده فليأخذه، فقط عليه أن يسجّل نشاطه لدى الإدارة البلدية، ويفرد دفترًا من الحجم الكبير، يسجّل فيه ربحَه، حتى إذا جاء موظّفو الضرائب من جوبا وهُم يأتون في العادة مرّتين في العام، وجدوه ملتزمًا وأمينًا.

- هل كان رابح مديني يسجل كلّ شيء؟

سأل خوجال بعد تردّد:

- لست "رابح" لتنشئ مثلَ هذه التجارة العظيمة من دون أنْ يقترب منك موظّفو الضرائب.. أنت مسنّ أكثر من اللازم حتى تبدأ، نعم يا عرّيف، هل عثرت على عائلة عبيش؟

قال خوجال، وأهمل عمبابا الذي صدمَ من تذكيره ببدايته المتأخّرة جدًّا، وفي سنّ كان يجب على الدنيا أنْ تنظر إليه بعين الاحترام. التفتَ

إلى الجريح المؤرق، الذي دخل المتجر في تلك اللحظة، يرتدي زيّ السجانين كاملًا، ويعلّق سلاحه على الخصر، ويحاول جاهدًا أن تبدو مشيئه شبيهة بتلك التي تعلّمها أثناء تدريبه المرهِق في جوبا حتى يلتحق بشرطة السجون. بالأمس استردّ نقوده كاملة من الممرضة سامتا، التي أبتْ أن تحتفظ بها، حتى بعد أن حلف عليها، رقدَ بلا نومٍ في سرير المستشفى، ويتوقّع في كلّ لحظة أن يظهرَ الطبيب، وكان قد اختار من قائمةِ الأمراض نزيفَ المسالك البولية ليكذب به، إنّه مرض سهلُ الوصف، وبلا أعراض كثيرة.. فقط عبارة واحدة... لون البول عندي أحمر، ويشرع الطبيب في نحْت ذهنه لمعرفة سبب ذلك اللون في بوْل المريض، لكن لم يحضرْ أحد. في الخامسة صباحًا، التي ارتسمت على مينا ساعته الجوفيال الرخيصة، نهض مسرعًا، بحث عن الحمام، وعثر عليه بمساعدة سامتا التي ظهرت باكرًا، استحمّ وسوّك أسنانه، أخرج لباسه العسكري، وسلاحه، وحذاءَ الخدمة الثقيل، تعسكر حتى غطاء رأسه، وخرج راكبًا عربة كارو قادتْه إلى سجن مداري بعد أن ترك حقيبته القماشيّة عند سامتا، وقد عادت إلى ذهنه بعد أن ردّت نقوده، جدّة واجبة الاحترام.

كان السجن يقع في الطرف الشمالي من البلدة، بناءً من الحجر، في بلدة أغلب بيوتها من الطين والطوبِ الخشن. لم يكنْ كبيرًا مثل سجن جوبا، ويبدو مناسبًا جدًّا لمساحة الإجرام في بلدةٍ إقليمية، متوسّطة المساحة وعدد السكان، مثل مداري. ابتسم في وجْه حرّاس البوابة، أراهم

بطاقته العسكرية، وخطاب النقل الذي جاء به، بالرغم من أنّهم لم يطلبوا شيئًا، ووصفوا له مكتب القائد، الذي كان في مبنى صغيرٍ داخل السور، يبعد بمسافة مناسبة عن فوضى الزّنازين وصخبها، وعاداتها المقْرفة التي تتشابه في كلّ السجون. كان القائد من أبناء الجنوب من قبيلة الدينكا، كبرى قبائل الإقليم، ويجيد قراءةَ الخطابات، والأوامر، والعلاوات، وحسابات المرتبات، حتى لو كتبت باللغة الهيروغليفية، ويخاطب العرب من موظّفيه بلغة أهل جوبا المعروفة لكلّ لسان جنوبي، اضطرّ ويضطرّ باستمرار لمخاطبة العرب، الذين كانوا جزءًا كبيرًا، وهامًّا من مجتمع الجنوب.

دقّ التحية أمام القائد بحذائه الثقيل، رفع يدَه اليمنى إلى محاذاة رأسه، وتمنّى لو كانت تحيةَ عشق أمام خضراء العينين، وردّ القائد بتحيةٍ أرفع شأنًا، وهي حركةٌ خفيفة من أصبعيه، مع ابتسامةٍ بيضاء، ردّد، ويتصفّح نسخةً من أمر نقل الجريح سبقته إلى هناك:

- العريف الجريح سالمان عبيش.. أليس كذلك؟

- نعم يا سيدي.

- يقولون في جوبا، إنّك أصررت بشدّة على الانتقال إلى مداري، ما السببُ في ذلك أيها العريف؟

كانت الوساوس قد عملت طوالَ الليل في عقل الجريح جنبًا إلى جنب مع العشق الفجائي للفتاة التي يظنّها خلقت من أجله، وجاءت النتيجة اقتناعًا تامًّا، بأنّه لم ينبعْ أصلًا من مداري، وكان ما يعتقده حقيقة، هو مجرّد مقْلب بلا طعم من صُنع الصديق تايلور، وتصرّفات أمّه حين يذكر لهفته أمامها، ومحاولته جرجرتها إلى منابعَ ليست لها، كانت التصرّفات العادية لأي أمّ، وهي ترى ابنها مصرًّا على اقتلاع نفسه من بيته، والتشرّد في بيوت أخرى. حقيقة لم تخبره بأنّ ما قاله تايلور كان مجرّد مزحة، وكان يجب أن تخبره. وماتت لتتركَه متورّطًا في عشق بلدةٍ كان أوْلى بأهلها أن يعشقوها. سؤال القائد ما زال معلقًا ينتظر إجابته، وكانت إجابةٌ سلسة، ردّدها الجريح، وأحسّ بحلاوة طعمها:

- ماتت أمّي يا سيدي، وتركتني وحيدًا وحزينًا، وأردت أن أغيّر المكان حتى أنسى.

- تعازيّ الحارة يا عرّيف، معك حقّ في طلب النقل من سجن جوبا، ولكنْ لماذا مداري بالذات، توجد مدنٌ كثيرة في الجنوب بها سجون ومساجين، رمبيك مثلًا.. منقلة مثلًا؟

هذا بالذات سؤالٌ صعب. لماذا مداري بالذات؟ حتى الأمس، وهو على ظهر عربة المجروس، وقبل أن يلتقي التاجر العصيدة المضروبة، والممرضة المسنّة، كان الأمر خاصًّا بالبحث عن الجذور، ولولا الفتاة التي خلقت من أجله ولم

يكن يعرفها؛ لاعترف بالخطأ، اعتذر لقائد سجن مداري، وقفز إلى أقرب عربة مجروس عسكرية مغادرةً إلى جوبا يستلم وظيفته القديمة من جديد، ويعيش في حي المطرة، يواصل الزعم بأنّ المرأة التي يريدها لم تخلَق بعد.. الآن سيبقى، سيدمن البقاء، سيموت ويُدفن هنا، ولكن بعد أن يقرّب وجهات النظر. لقد تبرّع للفتاة أمس بعملةٍ ورقية مرسوم فيها قلبٌ مطعون بسهم، لم يكن هو الذي رسمه، وجاء الأمر مصادفة أنْ تخرج تلك العملة النازفة من جيبه ساعةً أن أدخل يده؛ لعلّها تكون رسالة غير مقصودة، وتفهمها الفتاة عكسَ ذلك حين تخرج النقود من الكيس، وتبدأ في إحصائها. كان يأمل لو انتبهت إلى العُملة قبل أن تدخلها إلى الكيس.

- لا أدري يا سيدي.. مداري أول بلدة خطرت ببالي، ولعلي صادفت منها أحدًا ذكّرني بها.

لم تكن ثمّة أسئلة أخرى، وقد نادى القائد على أحد المجندين، طلب منه أخذ العريف الجريح سالمان إلى ضابط شئون الأفراد، وكان ذلك الضابط من عرب الرّزيقات الذين لا يطرقون سلك التجنيد العسكري إلّا نادرًا، ووجد الجريح راحةً تامّة في التعامل معه، وضح له من الأوّل أنّ ثمّة سخرية كبيرة رافقت اسمه أثناء عمله في جوبا، وتوجد أغنية خاصة اسمها "اجرحني يا جريح" كانت تردّد لخمسة عشر عامًا من دون أن يعرفها، وفوجئ أنّ الضابط العربي يحفظ الأغنية عنْ ظهْر قلب، وحذّره أنّ كثيرين غيره من الزملاء- وربما

بعض المساجين- يحفظونها كذلك، ولم تكن تلك مشكلةً للجريح الذي استعاد ثقته في اسمه، وجاء به إلى مداري كعلامةٍ تجارية ما سخر منها الآخرون إلّا لأنّهم لا يملكونها. سلّمه الضابط متطلباتِ وظيفته، وخيّره بين السكنى في عنبرٍ مخصّص للعزّاب داخل السجن، أو البحث عن بيتٍ داخل المدينة، ويمنح بناءً على ذلك بدلًا ماليًا متواضعًا، فقط لا توجد مواصلات خاصّة بنقل الجنود، وأخبره الجريح بأنّه يختار السكنى داخل المدينة، وأنه يملك دراجةً هوائية مُنحت له حين ترقّى إلى رتبة العريف، في طريقها الآن إلى مداري. في النهاية منحه إجازة يومين حتى يرتّب أموره، ويعود لبدْء العمل.

تأمّل عمبابا عريف السجون الذي يقف بجانبه في تلك القامة العسكرية الصلبة، ويبدو بقامته الضئيلة بجانبه قزمًا يستحقّ الرثاء. لم يكنْ قد شاهده من قبل في وسط تلك الجماهير التي كانت تجتمع لحضور سيركه العظيم، وبدا له يشبه شخصًا يعرفه، ولم يتذكّر أبدًا من ذلك الشخص، وفي أي بلد يقيم.

ردّ الجريح على خوجال بأنه اكتشف خطأه، نتيجة سوءِ فهمٍ، وأنه ليس من مداري على الإطلاق، وطلب منه أن يدلّه على أحد يؤجّر بيتًا أو حتى غرفة صغيرة إن كان يعرف. كان يتكلّم بهدوء وبطء، ولو رفع صوته قليلًا، وأسرع به؛ لانتبه خوجال إلى أنّ الرجلين الواقفين أمامه يتحدّثان بصوتٍ واحد، الصوت الذي كأنه صوت ذئبٍ مجروح

يعوي في الغابة.

أرسله حوجال إلى وسيط إيجاراتٍ شبهِ عاطل عن العمل في بلدةٍ لا تطرق كثيرًا، ولا يملك محلًّا في السوق، ويمارس نشاطه القليل تحت واحدة من أشجار النيم الكبيرة الواقعة عند الطرف الأقلّ ضجيجًا من السوق، حيث دكاكين الطوب والأسمنت وأبواب الحديد، وعثر عليه الجريح مستدلًّا بخيط من الجلد، أخبره خوجال أنه يتدلّى من رقبة الوسيط. وجد عنده خيارات عدّة؛ بيوتًا وغرفًا من الطين والحجر، والخيش والبوص في مختلف أحياء البلدة، الرّاقية والشعبية، وقد عُرضت عليه اليوم فقط، حجرتان من الخشب، في ساحة وسط البلدة، كانت تقيم فيهما امرأتان مسنّتان من موظّفي السيرك، ورحلتا بعد أن ألغي السيرك. كانت هذه من أفكار (ململة)، وليست أفكار عمبابا الخالصة، أن يؤجّر غرفتي صبورة وديمومة كسبًا للمال، حتى لو كان مالًا بسيطًا.

- تقول السيرك العظيم؟

ارتبك الجريح.

- نعم.. كان هنا وانتهى بتفكيكه منذ شهرين، وصاحبه القديم هو مالك الغرفتين.

- ومَن يقيم هناك غيري، لو استأجرت غرفة؟

- صاحب السيرك عمبابا أزرق، وفتاة يربّيها

اسمها زيابا، وموظّف سابق في السيرك اسمه شروم الأصلع.

لاحظ الجريح أنّ وسيط العقارات تقطّعت جملته في لسانه وهو ينطق زيابا، بينما انساب اسمُ عمبابا وشروم الأصلع سلسَيْن من لسانه، وشعر بغيرةٍ غريبة تكويه، ولم يستطع أن يتفهّمها، ويعلم أنه ما يزال بعيدًا عن كلّ ما يخصّ الفتاة، اعتبر تلك الغيرة- بفهمه المحدود لأنواع الغيرات- ظاهرة صحيّة، تؤكّد له بما لا يدع مجالًا للشك أنّ تلك الفتاة هي التي خلقت له، ولم يكن يعرف ذلك.

- حسنًا أريد غرفة منهما.

استلم منه الوسيط خمسة وستين جنيهًا، عبارة عن أجرِ الغرفة، وعمولته الشخصية، وكتب له رسالة إلى السيد عمبابا أزرق يطلب فيها أن يسلّمه الغرفة متى ما جاءه. لم يكن الجريح متعجّلًا جدًّا برغم عطشه، أراد أن يعود إلى المستشفى حيث ترك حقيبته، يستبدل زيّ السجانين، غير اللائق لدلق العواطف، يستأجر عربة كارو نظيفة تطوف به في كلّ أحياء مداري، طوافًا متأنّيًا، لا ليشمّ رائحة أهل وأحباب باتَ يشكّ في وجودهم أصلًا، ولكن قطعًا للوقت في انتظار أول المساء، الوقت الأكثر احترامًا عند الناس، والأنسب لمصارحة فتاةٍ بالحب، كما كان يقول تايلور- تيلا.

كان عمبابا ما يزال يقف أمام خوجال المسيري، وقد اختفتْ من ذهنه صورة عريف السجون حالما اختفى، ولم يتصوّر أبدًا أن يأتي في ذلك اليوم ليستأجر إحدى الغرفتين، وكان قد وضع شرطًا مهْووسًا لوسيط الإيجارات، أن يأتي برجال مسنّين، أو نساء تقطّعت بهنّ السبل خوفًا على زيابا من جارٍ شابّ، يشحن رغبة فيها، أو يسقط في عشقها ويتعذّب، وقد أخلّ الوسيط بشروط عمبابا، كان الكسادُ كبيرًا، ذلك النوع من الكساد الاقتصادي الذي تنهزم أمامه كلّ الشروط. ترك خوجال، واتّجه إلى المتجر المغلق، وبمساعدة عددٍ من المارّة المنزعجين والخائفين.. كسر الباب، وكانت مفاجأةً غريبة له، وللذين شاركوا في المهمّة؛ كان المتجر ممتلئًا بالتعاويذ التي أحسّ بأنها كهربته بمجرّد أن دخل. ثعابين وسحالٍ محنّطة، قرونُ حيوانات جافّة، ومكسّرة، أسنان حرباء، وأذنا أرنب يتجلّط على فتحتيهما الدم، وبعور نَتِنة موضوعة في قنانٍ سوداء، ويرقد في أحدِ الأركان ثعلبٌ كامل، مفتوح العينين.

يا (ململة).

صرخ وقد أرعبته تلك النظرات التي وجّهها الثعلب الميت إليه، بالرغم من ادّعائه الدائم بأنّه ساحر عظيم، وما كان سوى نصف ساحر أو حتى ربْعه، تدرّب عند متخصّص كيني، وخرج بخدعتين أو ثلاث. لقد أخبره نفس الساحر الكيني، ذات يوم، وبعد أن فشل في تعليمه الكثير؛ أنْ يبتعد عن دروب السحرة، ويسعى إلى عرض ما تعلّمه من

خدع بسيطة في سيركٍ للترفيه، أخبره أن يفرّ قدْرَ الإمكان من الأوكار التي فيها طلاسم، ولا يرفع حجرًا من الأرض، لو شك لحظةً واحدة أنه كان يومًا عقربًا، وحوّلها أحدهم إلى حجر. هذا وكرُ ساحرٍ بلا شك، وتلك التعاويذ الخسيسة، تعاويذه، وثمّة إخلالٌ واضح بوصيّة الساحر دفعه إلى الإسراع بإعادة قفل الباب إلى مكانه، وترديد صلوات كان قد نسِيَها. وخرج من السوق لاهثًا، ولا يعلم أنّ خوجال الصلد- المتذمّر دائمًا- يبتسم، وآدم مطر صاحب بابايا يبتسم، والسوق الذي تواطأ في حَبْك القصة الخيالية كلّه يبتسم، وحتى الذين ارتبكوا وخافوا، وساعدوه في كسر الوكر يبتسمون. كانت قصّة خطّط لها السوق المحتشم إلى حدٍّ ما، والذي سيسوءه حتمًا أن ينكشف جزءٌ من عورته في صالون تجميل، تأتيه النساء اللائي لا يعرفن زينةً غير الكحل، وزيت الكركار القوي الرائحة، وبعض مرطّبات الوجوه الخفيفة، ولا ينبغي أن يعرفنَ غير ذلك.

- بماذا سنبدأ يا داد؟

كانت زيابا تسأل، وبين أصابعها العملةُ النازفة بقلب مطعون التي جاءت مع حصاد دورانها في السّوق والأحياء، ولا تعرف من أيّ يدٍ استلمتها. نادته بلقب داد، الذي يعني الأب، وما كانت تناديه بأيّ لقبٍ فيما مضى، برغم وصايته عليها، وأنه ظلّ- برغم نزواته وألاعيبه- يحافظ عليها حتى الآن، واستغرب عمبابا أن يسمع منها تلك الكلمةَ الدافئة، التي أعادته إلى أيّام كان أبًا حقيقيًّا

لولديْن تافهين، تركاه أرمل ومتشرّدًا، وهاجرا إلى أمريكا حالما امتلكا أفقًا يزيّن لهما طريق الهجرة. الآن فقط تذكّر رابح مديني، وأحسّ بشيء من تخلخل القلب، نفس التخلخل تقريبًا الذي حدثَ له في الصباح حين اعتدى على طلاسم ساحر، وفي اللحظة التي أوشكتْ فيها عيناه على دلق الدموع، استيقظ (ململة) وأمسك بالدموع في غددها مانعًا تكوينها.

- شكرًا يا (ململة).

ردّدها من دون أن ينتبه إلى أنّه يخاطب شخصًا لا تعرفه زيابا، ولا يعرفه شروم الأصلع، ولن يشكّ أيّ بوليس دولي مهْما اجتهد بأنه كان وراء مهمّة قذرة نُفّذت بواسطة مختلس، يائسٍ مطارد.

- مَن (ململة) يا داد؟

أفاق على صوتِ الفتاة، همّ بالردّ عليها بما يُسكتها، وطرق الباب في تلك اللحظة. إنه العرّيف سجون، الجريح سالمان عبيش، وقد جاء بحقيبته التي تتعارك بداخلها عدة أمّه، وخطاب الوسيط العقاري، باحثًا عن سكنيَيْن: سكنى الجسد في إحدى الغرفتين الخشبيتين الفارغتين، وسكنى الروح في قلب زيابا. فتح شروم الأصلع الباب، وكأنّه فوجئ بمنظر الجريح، وارتعد، بالرغم من أنّ الجريح جاء مدنيًّا صرفًا، ببنطلون رمادي، وقميص أبيض، ولعلها فراسة من شروم الذي

يعرف العسكريّين، أكثر من معرفته أهل بيته. ارتعدَ ونادى على عمبابا الذي هبّ من جلسته مسرعًا، بادر بالسؤال، ويرى العريف الذي التقاه في الصباح عند خوجال، واقفًا متصلّبًا أمام غرفته، ويجرّ حقيبة قماشية، متّسخة بالطين، وأيضًا في هذه المرّة يخيل لعمبابا أنه التقاه في مكانٍ ما، ولا يدري بالتحديد أين ذلك المكان، ولا يبدو على العريف أنه يبادله الخيال نفسه.

- نعم يا سيدي.. بماذا أخدمك؟

استخدم لقبَ سيدي في مخاطبته، بالرغم من أنّ الجريح لا يبدو سيدًا لأحد، وكانت هذه واحدةً من ألاعيب عمبابا أنْ يرتفع بمنازل الناس، حتى ينال الثقة، وكان يسمّي واحدة من بنات الهوى يتردّد عليها في نيروبي، السيدة وعاء العسل، ينال ما تمنحه له بلا مقابل، وحين يفيق في الطريق يبصق ما لحسه من حنظلٍ مرّ.

- جئت مستأجرًا غرفةً عندك.. أنا العريف الجريح سالمان عبيش من شرطة السجون.

كان يتكلّم بهدوء وبطء شديدين، ولو عوى بصوته قليلًا لظنّ عمبابا أنه يستمع لصوته الشخصي من آلةِ تسجيل.

- مَن قال إنّ عندي غرفًا للإيجار؟

لم يتحدّث الجريح، أخرج من جيبه الرسالة التي

توضّح أنه دفع إيجار ستة أشهر مقدّمًا للحجرة، وهي المدّة التي قدّر أنها كافية جدًّا لتقريب وجهات النظر بينه وبين الفتاة التي خلقت له، أو الفشل في تقريبها، والعودة إلى جوبا منهزمًا ليسكن المطرة من جديد، ويصرح لجيرانه ومعارفه أنّ الفتاة التي سيتزوّجها ما تزال في علم الغيب.. لقد فكّر في كلّ شيء تقريبًا، وطوال طوافه المتأني على ظهر عربة الكارو، الذي شمل ما تبقّى من الصباح وفترتي الظهر والعصر؛ استعرض كافّة الاحتمالات، عاد بذاكرته إلى الفتيات اللائي كنّ يطاردنه، ويتهرّب من مطارداتهن، وضع نفسه مكان أولئك الفتيات، وزيابا مكانه، واحتسبها نقطةً خاسرة لأنّه أفلت في تلك الأيام. جعل زيابا امرأة شهوانية بإيحاء من صدرها المكشوف على نهديْن بحجم ثمرتي برتقال، وجرأتها في طلب التبرع من غريبٍ يجلس على رصيف مكسّر، واحتسبها نقطة إيجابية لأنّه يعتقد بقدرته الفذّة على إرضاء امرأة شهوانية. أدخل رتبته العسكرية الجذّابة في مغامرة الصراع، واحتسبها نقطة إيجابية، ولا بدّ يوجد احترام مهما كان ضعيفًا تجاه عسكري لديه رتبة وراتب ومستقبل. وحين أراد إدخال عينيها الخضراوين، اللتين يعرف تمامًا أنهما جاءتا من دمٍ أوروبي، تكدر.. قد تستعلي عليه بدمها الأوروبي، ولا تجدي الرتبة، لا يجدي الراتب والحياة المريحة التي يتوقّعها لها بجانبه. أخيرًا وهو يمدّ يده ليطرق الباب، كان ثمّة تعادل بين السلبي والإيجابي، ويفكر أن السّكنى بجانبها، وما يحدث أثناءها من تعوّد الأطراف على بعضها البعض، يمكن أن يرجّح

كفّة الإيجابيات.

قرأ عمبابا أزرق رسالة الوسيط بتأنٍّ، وتوقّف طويلًا عند رقم الستة أشهر مقدّمًا. كانت قد طارتْ من ذهنه فكرة صالون التجميل بفعل طلاسم الساحر، وأنه لن يعثر على مكانٍ بلا إيجار ليبدأ منه النشاط التجاري، والآن عادت نفس الفكرة لتحطّ مجدّدًا في ذهنه، لديه مال يسمح بإيجار مكان آخر، لديه هذا العريف الكنز الذي يمكن استغلاله، ملعونٌ أب الشروط كلها، ليغازل زيابا إن أراد ولن يمنعه، على الأقلّ سينتهج منهجًا متعقلًا في الغزل حفاظًا على رتبته، ولن يطارد نهديْها في الشوارع كما يفعل أولئك الهمجيون، الذين أنشأوا رابطة بلا لوائح، سموها رابطة معجبي زيابا، وأخبروه حين عاركهم، ومزق لافتاتهم القماشية، أنهم مجرّد صعاليك عاديين، مكسري الأجنحة، لا يملكون غرائز ولا رغبات، وما كونوا تلك الرابطة إلّا حرصًا على حقّ المواطن في استخدام حريته الشخصية.

- تفضّل.

أدخله إلى الغرفة حيث شروم الأصلع قد زاد ارتجافه، وزيابا ما تزال مُمسكة بالعملة النازفة، تتأمّل القلب المطعون في الوسط، وتذكر حبيبها العربي الذي تمرّدت من أجله على سيف وصيّها، وفرّت معه العام الماضي بدافع الحبّ فقط، ولا تعرف حتى اسمه، واكتشفت- وهي على ظهر الناقة- وقبل أن يصل بها إلى قريته؛ أنّ المسألة

لم تكنْ حبًّا، ولكن نيّة أكيدة في تمزيقها، ولحس أنوثتها بلا رحمة، واضطرّت للفرار متخبّطة في القرى، وعادت تبحث عن عمبابا وسيفه الصدئ، وحلوى حصان طروادة التي ما انقطع عن صناعتها إلّا مؤخّرًا.

ما أسخف الحبّ، وما أغبى المحبّين!!

كانت تردّد في سرّها، والآن ضغطتْ على الورقة المالية بقوة حتى تكسّرت صورة الرئيس بملابسه الوطنية التي كانت عليها.

***

-١٧-

في نيروبي، وفي بيت أحد الصناعيّين الأثرياء، توجد صبورة ملكي، الدمية المسنّة التي تتنفّس بحلمتَيْها للذي يسوى، والذي لا يسوى من الضيوف والأطفال بلا مقابل، ولدرجة أنّ الخدم المنتشرين في أرجاء البيت وحديقته، والبيوت المجاورة، باتوا يأتون بأهلهم ومعارفهم سرًّا في منتصف الليالي، يوقظونها من رقادها المسكين، يطالبونها بالتنفس، وتحسّ في كلّ يوم جديد، أنّ ثدييْها ما عادا يتحمّلان ضغط الهواء على أليافهما المسنّة، وقطعًا سيتوقّفان عن الضخّ في يومٍ ما، وتنتهز أيّ فرصة لتجلب إلى قلبها الجريح غلًّا وبغضًا شديدًا، لعمبابا.

في ركنٍ قاحل من أحياء العاصمة الكبيرة، لا يضجّ كثيرًا بحركة السير، الركن الذي لا يشجّع عصابات المتسولين على طرقه، تجلس ديمومة برداءِ جلد الثعابين، والوشاح الأحمر الناري على رأسها، تلعن عمبابا، وتمدّ يدها بإناء الفخار الأسود لكلّ عابر، ودائمًا حصادها أقلّ من فرنك كيني في اليوم، لا يكفي حتى أجرة انتقالها من بيتها التّعس إلى ذلك الركن.

في بيت رجلٍ مسنّ، ضنين بالأكل والشرب حتى على نفسه، ما عاد الكلب التشوكي الأبرص قادرًا على رقص البانديرا، والتش تش وشجن الغرام، بكفاءة، وما عاد يملك في جسده مقاومةً تقيه

شرُّ مرض (التشمة)، وسعال الكلاب الضار، ويرقد حزينًا، حين يرقد الرجل المسنّ يتذكّر أمجاده القديمة حين كان يصفّق له الناس، ويمتلئ القدح الفخاري الأسود بحصاد فقرته، ويغلي... يغلي من الجوع، وتذكّرِ الماضي.

ذهب المروّض برباري عبده إلى مشرفي الحديقة الوطنية، اعتذر بمرارة عن استقالته السابقة، وانضمامه للسيرك العظيم، بكى حين أخبرهم بموت الفيليْن اللذين سّميا أنجل وطيلسانة، وأبدى استعدادَه لترويض أفيالٍ أخرى أكثر شبابًا، وتعليمها الأناشيدَ الوطنية كلها؛ لو أعادوه إلى وظيفته، وكانت للأسف محاولة بائسة. لا توجد وظيفة مروّض أفيال فارغة، وإن أراد العودة إلى الحديقة عليه البدءُ من جديد، عاملًا في تنظيف أوساخ الضواري. أتفه وأحطّ مهنةٍ في حدائق الحيوان على الإطلاق.

الأهمّ من ذلك كلّه، أنّ عامل تنظيف المراحيض العبابيني، انتقل من تحقيقات شرطة نيروبي الرحيمة، التي اختُتمت بتأييد أقواله كلها بشأن بيته المقتحم، وأغلفة تحاميل الجلسرين الفارغة، وألواح الخشب المنجورة في شكل آدميّين، والعدد التاريخي من مجلّة هومز تراب، وابتدأت إجراءات إغلاق القضية إلى الأبد، انتقل إلى تحقيقات الشرطة الدولية التي شمّت رائحة باشاكر من عملائها المدْسوسين في كلّ مكان، والتي لن تعتبر انتحار رجلٍ مطارَد من قبَلها مجرّد حدثٍ عادي عابر ينتهي بدفنه في مقبرة بلا اسم، وينتهي

الأمر. هنا ثمّة لغة أخرى تستخدَم، وطرقٌ في نزع الاعترافات لا يصمد أمامها صامد، لكنّ عمبابا أزرق الحالم في مداري يخلق تجارة توازي تجارة رابح مديني الذي قتله بإشفاء الغليل، أو تتفوّق عليها، لا يعرف.

كان أوّل ما فعله الجريح، وهو يدخل إلى الغرفة الخشبية، التي كانت بلا أثاث وتتناثر على أرضها الألحفة والوسائد؛ هو أنْ قدّم نفسه لزيابا محاولًا السيطرة على نبضات قلبه العصيّة على السيطرة:

- العريف سجون الجريح سالمان عبيش.

- الجريح؟

ابتهجت الفتاة بشدّة، تراقصت ابتسامتها على شفتيها، وخاف الجريح في تلك اللحظة أن يفقد اعتزازه باسْمه من جديد، خاف أكثر أن تكون أغنية "اجرحني يا جريح" قد وصلت إلى موظّفي السيرك المنحلّ، ولم يكن ذلك حقيقة، فقط كان استغرابًا من فتاةٍ لم تسمع قطّ، أنّ ثمّة شخصًا اسمه الجريح، نفس الاستغراب الذي قد يستغربه الجريح نفسه حين يسمع أنّ ثمّة فتاة اسمها زيابا، وقد كان يعرف اسمَها، ولم يستغرب، وجاءته الفرصة الآن ليبدي استغرابَه بنفس طريقتها، ولم يفعل.

في تلك اللّحظة تدخّل عمبابا بصوته الكبير المجروح، قال إنّ اسم الجريح من الأسماء التي وردت في كتب القدماء، وعرف تلك المعلومة

من تردّده على المكتبة الوطنية في كينيا، كانوا يسمّون به الفرسان الشجعان، كنايةً عن فوران قلوبهم في الحروب، والقلب لا يفور إلّا إذا كان مجروحًا. كلام عمبابا، يمكن أن يكون حقيقة، ويمكن أن يكون مجرّد لغوٍ حماسي، اشتعل بفعل إيجار ستة أشهر مقدّمًا سيستلمه من الوسيط، والثابت في الأمر أنّ رضيانة الخضر لم يكنْ يخطر ببالِها فرسان ولا شجاعة، حين سمّت ولدًا بلا أبوّة ثابتة بذلك الاسم. انتظر الجريح أن تعلّق الفتاة على الشقّ الثاني من التعريف، تبدي انبهارها برتبة العريف كما أبدت العشرات غيرها من قبل، لكنّها لم تفعل، كانت تتلاعبُ بالورقة المكسّرة في يدها، وشاهد الجريح طرف القلب المطعون، وردّد لاهثًا:

- أعطيتك هذه الورقة في الصباح.

- هذه الورقة منك؟

- نعم.. كانت في جيبي.

لهثَ الجريح أكثر، وقد صمت عمبابا، تاركًا ما ظنّه حوارًا بلا أهداف معينة حتى تلك اللحظة، يأخذ مجراه، بينما شروم الأصلع لملم ما تبقّى من رِغْدته، وخرج من المكان.

- هل أنت مَن رسم هذا القلب المطعون؟

نطقتها، وقد مالت برأسها إلى الأمام، وتدفّق

شعرها الحريري على عينيها، مانحًا نقاط الدّمار في قلب الجريح، ضربة جديدة عذبة. أحسّ في تلك اللحظة أنه أمام مفترق طريقين عليه أن يسلك أحدَهما. ولا يعرف بالضبط أيّ طريق يقودُه إلى غايته. أنا مَن رسمها، تعني بأنني عاشقٌ من النظرة الأولى، وتعمّدت منحك تبرعًا مطعونًا بسهم، هو في الحقيقة رسالة إلى قلبك. لم أرسمه، ووجدته مصادفةً على الورقة ساعةَ أن أعطيتها لك، تعني أنني مجرّد مستأجرٍ عادي بلا أغراض يبحث عن مأوى. وكلا الطريقين قد يلفتان انتباه الفتاة حسب قوانين العاطفة التي تؤمن بها. بعضهنّ يحبّ العاشق المندلق، وبعضهنّ يحبّ الجافّ اللامبالي. حسنًا، سيغامر باختيار حيلة المندلق، ولم يكنْ ذلك اختيار عقله، بل اختيار قلبه المندلق بالفعل:

- نعم.. أنا مَن رسمها.

استغرقت الفتاة وقتًا طويلًا حتى تعلّق، الوقت الذي قطعه ضبّ معلّق في السقف حتى يصطاد ذبابة ويبتلعها، الذي قطعه صرصور دخل من فتحة الباب حتى يطوف الغرفة كلّها ويخرج من جديد، والذي امتلأت فيه مثانة الجريح بالسوائل، وكانت فارغة حين جاء. كانت ترمي شعرَها على عينيها، وتستعيده، تفرد العملة الورقية، تتأمّلها، وتعيد تكويرَها من جديد، وحين نطقت أخيرًا بدا للجريح أنها كانت مسافرةً بذهنها إلى أماكن عدّة قبل أن تعود:

- رسمة سخيفة.. لا تكرّرها في ورقة أخرى.

ثمّ ضحكت، وكانت ضحكتها برغم أنها صدرت من فمٍ عسلي، وبمساعدة لسان وردي، وشفتين ملوّنتين بالأحمر الجذّاب، وأسنان منجورة بحنكة أشبه بلدغة ثعبان، إذا ما ضمّها الجريح بجانب الإجابة الطاردة إلى مغامرة الحبّ التي يخوضها. هذه أكثرُ السلبيات التي صادفته ولم تكن متعجّلة ليظنّها نتاج عجلة، ويتفهّمها، بل إجابة مدروسة، وابتسامة رُوعيَ فيها أن تكون شفرة سكين. لم يكن ثمّة جدوى في تمدّد الحوار أكثر من ذلك، وقد انهزمت كلّ الأفكار التي كان مِن المُمكن أن تركض بينه وبين الفتاة، وجهات النظر بعيدة تمامًا، وعليه أن يعتمد الآنَ على الجوار في السكنى، وتعود الأطراف على بعضها، وفي اللحظة التي يحسّ فيها أنه قريب من الباب سيطرقه مجددًا، والتي يحسّ فيها أنّ الباب قد ضاع مفتاحه إلى الأبد؛ سيمضي بعيدًا. مطرة جوبا ما زالت حيًّا بهيًّا برغم موت أمّه وسجن جوبا، أكبر كثيرًا من سجن مداري الإقليمي الصغير، ويستطيع أن يصادق السجناء، ويبتهج بحكاياتهم، أو يحزن لها. وكانت تلك الحكايات، خاصة من سجناء الرأي، أو الانقلابات العسكرية، الذين يرسلون إلى الأقاليم البعيدة كلّما تغيّرت السياسة، أو غامر بعضهم بإطلاق الأناشيدِ واحتلال الإذاعة من الحكايات التي يعشقها، ويفرد لها حيزًا كبيرًا في نفسه. وما زال يذكر شاعرًا يساريًّا، اعتقل من أمسية ضاجّة بالخرطوم، وجيء به إلى جوبا ليمضي عامين وينقل إلى

سجن آخر، وعن طريقه، عرف الجريح أنّ ثمّة إبداعًا اسمه الشعر موجود عند البشر.

كان عمبابا، صاحب السيرك السابق، قد غفا في تلك الأثناء، لا بدّ أنه غفا؛ لأنّ شخيرًا ضعيفًا متقطّعًا، كان يصدر من حلقه، وريالة في شكل خيطٍ قذر، تسيل على جانب وجهه، ولأنّ صوته المجروح لم يشارك في ذلك الحوار، ليمجد، أو يتفّه رسمةً كانت مطعونة في الأصل، وطعنت من جديد، يقدر له الجريح جدًّا أنّه وجد تاريخًا مبجّلًا لاسمه الغريب، هذا التاريخ الذي لا يعرف إنْ كان حقيقيًّا أم لا؟، ومع ذلك سيظلّ يردّده لكلّ أولئك الذين غنوا "اجرحني يا جريح" أو رقصوا عند غنائها سيحمله بعد غد، إلى الضابط العربي في سجن مداري، وإلى ضباط سجن جوبا كلهم، لو عاد إلى جوبا مرّة أخرى. الجريحون هُم الفرسان، ما أجمل ذلك. كان مفتاح غرفته المستأجرة في يده ليس مفتاحًا مجسّدًا من حديد أو خشب، ولكنه مفتاحٌ معنوي، فقد كانت الغرفة في الواقع بلا قفل. نهض واقفًا، واستأذن ليذهب إلى غرفته، ونهضت الفتاة أيضًا، خرجت معه، وكان خروجها مُراقبًا بدقّة، ومُستعدًّا له كما يبدو، وقد شاهد- بالقرب من المساكن الخشبية- جمهرةً من الشباب يصفّقون ويصفرون، وقد حمل أحدُهم لافتة من القماش، كتب عليها.. رابطة مُعجبي زيابا تحيي زيابا. لم ينتظر الجريح حتى يعرف أهدافَ تلك الرابطة الخسيسة في نظره، ولا ألقى أيّ نظرة تجاه أعضائها المتأنّقين بابتذال، وقد طالت شعورهم، وتساقطت أذرة قمصانهم، لن

ينافسه أحدٌ منهم في القصد الشريف بلا شك، وهُم مجرّد صعاليك، سيفرّون حتمًا من طريق فتاته، حالما تتقرّب وجهات النظر، وتعرف مداري كلّها أنّ الفتاة خضراء العينين، قد خطبت لعريف مرموق في السجون، تمّ نقلُه من جوبا مؤخّرًا. في غرفته العارية إلّا من لحافٍ ووسادة، وأشياء أخرى تافهة، استعاد زيابا بتعقّل من أجل إيجاد مبرّر معقولٍ لتصرّفاتها، وبهرجتها غير الضرورية، قدر عمرها، من ملامح الوجه، ورخاوة الجسد، وبدا له حوالي الثامنة عشرة، أو التاسعة عشرة، وكان عمرًا من الأعمار الطائشة عند المرأة، لن تظلّ هكذا بالتأكيد، حين يقترب وتقترب، ستتبدّل.. ستتبدّل كثيرًا. تحت غطاء هذا المبرر المعقول، نام الجريح مطمئنًا في تلك الليلة، لم يكن السخيفُ الذي رسم قلبًا مطعونًا بسهم، وعليه ألّا يكرّره، بالرغم من أنه لم يفعل، وتبنّى الفعل، ولكنّ الأملَ بشدّة في الأيام القادمة.

في الصباح الباكر، استيقظ على صوتِ طرقٍ حفيف على بابه، تأكّد من شكله جيّدًا أمام مرآة مشقّقة أخرجها من حقيبته، وذهب بثقةٍ ليفتح، ويواجه زيابا التي ربما فكّرت فيه بتأنّ، وهي مستلقية في فراشها، وجاءت تطالبه برسم عشرات القلوب النازفة على أوراق النقد. كانت الممرضة سامتا هي مَن طرق، ووجدها تقفُ هادئة، وبيدها قدح من الفخار، مغطّى بقطعة من الألمونيوم، وتفوح منه رائحةُ عصيدة دخن حارّة. ابتسم في وجهها، وتناول منها القدح، ويستغرب من سرعة انتشار الأخبار في مداري،

وكيف عرفت الممرّضة بمكان سكنه، ولم يكن يظنّ أنّ أحدًا يعرف.

- شكرًا يا جدّتي.

نعم، جدّة طيبة واجبة الاحترام، ولا يعرف أنّ تلك الجدّة تستطيعُ وهي واقفة بالباب تناوله عصيدةَ الدّخن الحارة؛ أنْ تثبت وجوده في مداري بكلمة، تأخذه من يده، تريه قبرَ المعلّم رابح مديني ليبكي عليه، أو يبصق، وتشير إلى الباب المجاور، حيث يوجد واحدٌ من شريكين قديمين، اقتسما غواية أمّه، وأنجباه، وماتت أمّه وفي داخلها اكتشافها الكبير، اكتشاف يخصّها وحدها، مثلما يخصّها القبر، وتخصّها أسئلة الملكين. واجبة الاحترام فعلًا حين انتصرت على لسانِ الأقاويل داخل حلقها، تركت شعرَها مسنًّا كما يجب أن يكون، وسخرت عاطفة جديدة صنعت بها عصيدة دخن حارة جاءت بها إليه.

في ذلك اليوم بالذات، تقاعدت سامتا عن العمل في مستشفى مداري، لم يكن تقاعدًا صدر فيه أمرٌ رسمي من الدكتور إيزايا، أو إدارة الصحة الإقليمية في جوبا بالرغم من بلوغها السبعين، وكان تقاعدًا اختياريًّا بحتًا منذ اليوم لن تذلّ شيخوختها، ولن تسعى لمعرفة سرّ حتى لا تذيعه، وكانت راضية تمامًا عن لسانها، سمّتْه اللسانَ العفيف وهي تتأمّله أمام المرآة، وتعرف أنها تسمية متأخّرة، لا بأس في ذلك، أن يصبح عفيفًا وهو شيخ خيرٌ من أنْ يموت بلا عفّة. قالت

للجريح، اقصدني إن اشتقت لطبيخ الكهول، أو أحسست بحاجتك إلى رائحة جدّة. روائح الجدّات عملةٌ نادرة هذه الأيام.

-١٨ -

في البداية، بدا الأمر لمحقّقي الشرطة الدولية، الذين نبشوا جثمان باشاكر من قبره، وتحفّظوا على كلّ ما يخصّ قضيّته مهما كان تافهًا، ورطة بلا تفرّعات، مُنغرسًا فيها عامل تنظيف المراحيض العابيني وحده، استدعوه لتحقيق جديد، حاول فيه أن تكون إجاباته نسخةً مطابقة للتي أدلى بها للشرطة الكينية:

بيتي تمّ اقتحامه أثناء غيابي، وكنت في وردية عمل.

نعم، كان في وردية عمل، نقل فيها أكثر من سبعين برميلًا من قاذورات البشر من بيوت حيّ بلا صرف صحي، لكنّ البيت لم يقتحم، لا يوجد أيّ أثرٍ للاقتحام، لا قفل تصدّع، ولا بابٌ انخلع من مكانه، ولا التراب الذي تلبسه عتبة البيت وطأته رجْلٌ غريبة.

تحاميل الجلسرين تخصّني.. أستخدمها في تفريغ أمعائي .

بالكشف الطبي على أمعائه، ومراجعة العيادات الشعبية القريبة من مكان سكنه، والبعيدة.. والبعيدة جدًّا، وسجلّات المستشفيات العامة، التي تعترف بالإمساك مرضًا؛ اتّضح أنّ العامل كان يتردّد شاكيًا من إسهال مزمن، وصُرفت له عدّة

أدويةٍ من قبل.

العدد القديم من مجلة هومز تراب، صدر في الستينيّات، وكان موجّهًا إلى مراهقي ذلك العهد حين كانت ركبة المرأة تثير، أنفها يثير، إلقاؤها لخصلة الشعر على جانب وجْهها؛ يدفع الجيلَ كلّه لتسخير اليدين في احتلاب المنكر. ولا يمكن تبرير وجوده عند شاب، لن تثيره موضات ذلك العهد، حتى طرق الإثارة تغيّرت، الكلّ يعرف ذلك.

ألواح الخشب المنجورة في شكل آدميّين، عبارة عن أهداف أتعلّم فيها الرماية مُستخدمًا الحصى.

أين الحصى في البيت؟ أين هو على بُعد شارع، شارعين.. عدّة شوارع؟ أين الحصى؟

وكخطوةٍ أولى لا بدّ منها لتفكيك اللسان ومنازلة الصمت؛ ربطوه بلا أكل ولا شرب إلى عامودٍ من الحديد في غرفةٍ بلا نوافذ ليومٍ كامل، لم يفعلوا أكثر من ذلك.. وفي اليوم التالي، عثروا على اسم عمبابا أزرق عريضًا على اللسان، واسم مقهى الحنين نوستالجي كافيه بحروف أصغر قليلًا، وكان يمكن لو لمْ ينزلوه من العامود، ويمنحوه وجبةً من العدس الرديء، كان يحتاجها بشدّة أنْ يعثروا على أكثرَ من ذلك، يعثروا على اسم ساحر تركي متغَطْرس يعيش في أوروبا، ويعلّق أسطورةً من المعدن في أذنه، وصرّح مرارًا أنه لم يقدّم حيله في العالم الثالث ولا مرّة واحدة لأنّ ذلك العالم لا يستحقّ شرف الذهاب

إليه، وعليه أن يأتي لو أراد. كان بإمكانهم أنْ يمسكوا الخيط المتين كلّه، وليس فتلة صغيرة منه، أن يركبوا شاحنةً مستأجرة محمّلة بالبشر، وفيلين سمّيا بعد ذلك أنجل وطيلسانة، وكلب تشوكي أبرص حتى مداري، يجلسوا متوتّرين، مشدودي الأنفاس في خيمة سيركٍ ضاجّة بالآلاف ويستمعوا إلى صوت المنتحر المطارد، يصرخ: نسيبة لادو.. شريك علي.. أنت ميت يا معلم رابح.. ارقد بسلام ..حضرات السادة والسيدات الحضور.. أنتم تنظرون إلى رجلٍ ميت. كلّ ذلك كان على طرف لسان العامل العبابيني، لولا العدس الرّديء، ويعرف بالرغم من أنّ عمبابا أخبره حين جاء بباشاكر إلى بيته؛ أنّه مجرّد متدرّب على التمثيل، فارّ من إزعاج أسرته ليشارك في شريط سينمائي عن عادات الشعوب، إنّ الرجل مختلس فرّ من بلده تاركًا سمعة في الطين، وامرأة حاملًا بجنين في بطنها، ونضب مال السرقة كلّه في محاولة تغطية الهروب حتى هوى في مصيدة عمبابا، وكان جالسًا يبكي بدموع الحنين في نوستالجي كافيه. يعرف أنّه جائع، وبائس، يعرف اسم أمّه، وأسماء خالاته وعمّاته، وعدد الحفر في شوارع حي الشجرة، وعدد النساء اللائي غازلهن وهو مراهق، واللائي زارهنّ في بيوت البغاء الرخيصة، بعد أن عرف تلك السكة، يعرف أنّ عربته كانت من نوع موريس ماينور خضراء، رقمها ٥٤٣خ، وصالون بيته بطقم مقاعد فضي اللون، مصنوع في ورشة نجارة يملكها الأسطى عبد الحميد، وله جارٌ مجنون مربوط بالسلاسل، وجارة كانت صمّاء، وذهب صمَمُها فجأة، حين شاهدت ممثلًا

مصريًّا وسيمًا على شاشة سينما (كوليزيوم) في وسط العاصمة، وجلسا في ليال بلا حصر، يتشاركان زجاجات عرق رخيص، ومزة من الترمس، ونبات الكاجو، وضغط عليه مرارًا ليعرف إنْ كان ثمّة مال تبقى حتى يقتسمه معه، ويتحرّر من حمل قاذورات البشر، وأقسم باشاكر أنه لا يملك سوى بنطلونه وقميصه ورباط عنقه، وملابسه الداخلية التي لا يستطيع تبديلها، ولا يستطيع غسلها ونشرها حتى تجفّ، ويرقد عاريًا. العامل يعرف كلّ شيء، وأكثر من كلّ شيء، لو كان ثمّة شيء أكثر من كلّ شيء، ودّع باشاكر بعناق طويل، حين ذهب إلى مداري لتنفيذ مهمّة إشفاء الغليل، وحين عاد في هيئة التركي (ندمان قل)، بعد أن أدّى مهمّته ساعده في نزع الأسطورة من الأذن، وقام بدفْنها بنفسه في حفرةٍ بعيدة، كان مقتنعًا حتى تلك اللحظة أنه ما زال يملك شيئًا من المال المسروق، وتصنّع عدمَ ترحيبه به، وأنه متضايق منه أمام عمبابا، حتى يبعده من سكّة ذلك المال. الشيء الذي لم يكن يعرفه العامل، هو نيّة الانتحار.. لقد فوجئ بشدّة حين عادَ في ذلك اليوم، ووجده معلقًا بحبل نسجه من ملاءات السرير وأغطيته، وتلك اللحظة بالذات، أيقن تمامًا أنّه كان يؤوي في بيته كارثة، ظانًّا أنها كنز.

أمسك المحقّقون بخيطِ نوستالجي كافيه بقوّة، ولم يكن مقهى عاديًّا يستوعب الأسئلة، وينساب في الرّدود بشكلٍ تلقائي، إنه المقهى المصمّم خصّيصًا لجوعى الحنين، وكثير من الذين يأتون لإرواء الحنين، ليسوا أنقياء أو ذوي سيَرٍ

عطرة، ومرّ على هذا المقهى منذ تأسيسه في الستينيات آلافُ المطرودين والمطاردين حتى رؤساء الدول المخلوعين مرّوا، وقادة أجهزة المخابرات الذين انهارت الأنظمة التي كانت تساندهم ويساندونها؛ مرّوا، قتلة مأجورون، وشواذٌ من الجنس الثالث، موعودون بقطع الرقاب لو عادوا إلى بلادهم، وأوغاد ذرفوا بداخله دموع الحنين، حتى تورّمت عيونهم. المحصّلة في الجولة الأولى داخل المقهى، أنه لم يكن ثمّة زبون تنطبقُ عليه أوصاف عبد الغني باشاكر، جلس يومًا على طاولة هنا، شرب شايًا بطعم الحنين، وبكى.. لا.. لم يمرّ صاحب هذه الصورة مِن هنا أبدًا. الجولة الثانية، كانت مُثمرة، وقد اكتشف المحقّقون أنّ ثمّة نادلة تهوى كشفَ ساقيها لأشقياء الحنين، وهاجرت من غينيا العام قبل الماضي بطريقة غير شرعية، يمكن أن تدلي باعترافٍ ما لو ذكروها، وغالبًا ما يكون التذكيرُ قاسيًا بعض الشيء، كأن يذكر الشخص بإمكانية طرده من الدولة التي هاجر إليها بطريقةٍ غير شرعية، أو يذكر بنشاطٍ مخزٍ مثل إدارة منزل للدّعارة، مارسه في بلده ذات يوم، وقد قالت النادلة إنّها تعاركت ذاتَ يوم من العام الماضي مع شخصٍ يحمل ملامحَ الأتراك، كان يمسح دموعَه بمنديل أبيض، ورفض دفعَ ثمن إرواء الحنين، اعتبره سرقة. لكنّ عمبابا أزرق، صاحب السيرك العظيم، عالج المسألة، ووعدَ بدفع فاتورته، ولم يدفعها إلى الآن، وخصم المبلغ من مرتّبها.

للمرّة الثانية، يكتب اسم عمبابا صاحب السيرك

العظيم في أوراق التحقيق بحروفٍ كبيرة. يسألون عاملَ تنظيف المراحيض، مَن عمبابا أزرق؟

- صاحب السيرك العظيم.

- وأين هو الآن؟

- لا أعرف. اسألوا ديمومة وصبورة، وبرباري عبده.

العامل كان يعرف، وكم من مرّة، أيام التحقيق الأولى مع الشرطة الكينية، الذي لم توجّه له فيها أي تهمة؛ عبَرَ بركن التسول شبه المهجور، وتبادل مع المرأة المنكودة ديمومة حديثًا طويلًا، خاليًا من أي وعدٍ بمساعدتها، ولا حتى في إمكان إيجاد مشترٍ مِن هواة جمع التذكارات لتبيعه قميصها الثعابيني.. طمأنته.. لا تخف.. لدي قميص آخر، ولن أتسوّل عارية. يعرف وقد شاهد صبورة ملكي، تُجرجر في إحدى الحدائق العامة بواسطة خدم أشدّاء، ويمسك أحد الأطفال الأشقياء بحلمتي ثديَيها، ويعتصرهما في قوّة.. وفي أحد الأيام، وكان في عطلةٍ من عمله، دخل حديقة الحيوان الوطنية، وشاهد المروّض اللامع عبده برباري باركًا على ركبتيه في قفص نمر أعزب، يبدو في حالة هياجٍ غرائزي، وكان ينظّف سوائله المتلاحقة. انتظر حتى بردت حرارة النمر، وانفرد بالمروّض، وعرف أكثر.

كانوا يبحثون عن صبورة بإصرارٍ غريب، وعثروا

عليها أخيرًا، وأخبرهم الطبيب الذي يرعاها في مستشفى نيروبي العام أنّها في حالة تلفٍ دماغي، أو موتٍ سريري، كما يسمّى في لغة الطب، وينتظرون قرارَ لجنة من الأخصائيين في شأن حالتها، حتى يوقفوا ضخّ الأكسجين إلى الدم فيما يعرف بالموتِ الرحيم. بحثوا عن ديمومة بإصرارٍ أغرب، ولم يعثروا عليها أبدًا، لم تمت، ولم تمرض، وحالفها الحظ، وهي في ركنها البائر؛ تتسوّل من السراب، مرّ يوغندي مِن هواة جمع الغرائب، واسترعتِ انتباهه، أخبرها أنه جمَعَ من الغرائب في الثلاثين سنةٍ الأخيرة ما يؤهّله لافتتاح متحف أوسع كثيرًا من متاحف الدول، التي تتغطرس بمتاحفها، وتفتحها لزيارة السياح. قال عندي إناء المرمر الذي كانت تتناول فيه الأميرة الصينية، ون بواي، أكباد عشاقها كلّ ليلة. عندي عينة من أوّل بول تمّ تحليله، واكتشاف مرض السكر فيه، عندي أسطوانة غنائية بصوت الكاتب الروائي جوزف كونراد، وكمية لا بأس بها من الصدأ الذي سقط من محرّك أول طائرة مدنية تمّ صنعها. والآن أريدك لتنضمّي إلى مجموعة الغرائب.

لم تكنْ ديمومة تفهم حديثه، وما سمعت من قبل بأميرة صينية شرهة لأكباد البشر، أو كاتب روائي ترك أسطوانةً غنائية، وقد عرفت بإصابتها بمرض السّكر مؤخّرًا، حين مرّت حملة من طلبة الطب يفحصون الناس في الشوارع، وفحصوها. أيضًا لم تعرف لمَ اعتبرَها اليوغندي من ضمن الغرائب، وكانت تظنّه يسعى إلى قميصها

الثعابيني، ما الغريب فيها؟ تتساءل بعمق، وهي تستعيدُ إلى ذهنها وجهها الذي لم تره منذ مدّة؛ لأنّ بيتها بلا مرآة. أنفها بشري، كما تتذكر، مفلطحٌ قليلًا، لكنه أنف. شفتاها منتفختان مثل شفاه ملايين الناس في بلادها، ذهابها إلى الحمّام مثل ذهاب الناس العاديين، وتتسوّل الآن بيدٍ عادية، تمسك بإناءٍ من الفخار. ما الغريب فيها؟ وتضطرّ إلى سؤاله:

- عفوًا سيدي، ما الغريب في؟

ويجيب الرجل باستغرابٍ شديد:

- ألا تعرفين؟ ألا تعرفين حقيقة؟

- أبدًا يا سيدي.

- إذًا اذهبي إلى بيتك، وتأمّلي وجهك جيّدًا في المرآة، وقابليني غدًا في فندق أمباسادور، أنا روجر خمير، الملقّب بصاحب الذقن الحليقة، بالرغم من أنّني لم أحلقْ لحيتي قط.

تركها الرجلُ صاحب اللحية الكثّة المُلقاة على صدره، مشدوهة، أنفقت النهار مادّة إناءَها الفخاري حتى وثقت أنّ ما جمعته يمكن أن يأتي بمرآتين، واحدة في الأمام، وواحدة في الخلف، ذهبت إلى بيتها وثبّتت المرآتين، وقضت الليل كلّه تتأمّل وجهها، حتى غامت الرؤية في عينيها، تتأمّل وتكرّر لنفسها، عينان عاديتان، شفتان مثل

الشفاه الأنثوية في بلادي، فمٌ عادي، أذنان بلا شيء يميزهما، ما الغريب فيّ؟! ما الغريب في ديمومة؟! في الصباح ذهبت إلى فندق أمباسادور ترتدي قميصها الآخر الوردي، وتحمل القميص الثعابيني ملفوفًا بخرقةٍ قديمة، وجدت "خمير" ينتظرها في صالة الفندق مبتسمًا، وحقيبتُه أمامه، وكان أوّل شيء فعله، هو أنْ حطّم إناءها الفخاري بدقّهِ على الأرض، ومزّق قميص جلد الثعابين بلا رحمة، ألقاه في سلّة المهملات، لم يسألها، إن كانت قد عرفت مصدرَ الغرابة فيها، ولم تكنْ تدري بماذا تجيب لو سألها، وطلب من عامل استقبال الفندق أن يبعث ببرقيةٍ عاجلة إلى مكتبه في كمبالا يخبرهم أنّ روجر خمير قادم برفقة امرأة تعدّ من الغرائب النادرة.

بالنسبة للمروّض عبده برباري، فقد كان الأمرُ مختلفًا، لم يبحث عنه أحد، بالرغم من أنّ العامل العبابيني أخبرهم أنه كان في السيرك العظيم، وأنّ الفيليْن اللذين كان يروّضهما قد ماتا، وأنه يوجد في الغالب تحت قدمي أسدٍ أو نمر، وربما يساعد لبؤة على تحمّل آلام المخاض في حديقة كينيا الوطنية، سبب عدم البحث غير معروفٍ، لعلّه سهولة العنوان، ممّا اعتبر أمرًا مضلّلًا، أو لعلّه كان مدخّرًا لأسئلة مستقبلية، ولو كانوا يقرؤون الصحف لقرؤوا خبرًا في الصفحة الأولى يتحدّث عن عاملٍ بسيط في الحديقة الوطنية راح ضحيةَ حادثٍ مؤسف حين مزّقه فهد.

عادت التحقيقاتُ مرّة أخرى إلى بدايتها، وعامل

تنظيف المراحيض ليس مربوطًا على وتدٍ من حديد هذه المرة. كان راقدًا في حوضٍ ممتلئ بالثلج، وقد تجمّد ظهره، وتحوّلت مؤخرتُه إلى قالب ثلجي هي الأخرى.

- ارفعوني؛ لدي أقوال جديدة.

ورفعوه. دفئوه بتيارٍ هوائي حار، مستخدمين خرطومًا ضخمًا حتى ذاب لوح مؤخّرته، لم يمنحوه عدسًا ولا فاصوليا، ولا كوب شاي ساخن من ذلك الترموس الممتلئ، الموضوع في المكان.

- قلْ ونستمع إليك.

حين عاد عاملُ تنظيف المراحيض العبابيني إلى بيته بعد شهر ونصف من خضوعه لتحقيقات الشرطة الدولية، كان مصابًا بالبواسير، وما كانت عنده من قبل؛ يسعل بلا توقّف وما كان يسعل أبدًا، يطيل القلق والتفكير، وكان ثابتًا لا يقلق، ولم يفكّر بجديّة في أيّ شيء من قبل، وكان قد ترك أقوالًا وحكايات لم تكشفْ ما خفي فقط، بل أغرتْ أحدَ المحقّقين الأوروبيّين أنْ يترك مهنته، ويتحوّل إلى كتابة الرواية. كانت ثمّة شخصيات غنية بشكلٍ لا يصدَّق، وأحداث قلّما يعثر عليها كاتبٌ روائي محترف.

سمّيت القضيةُ بالقضية الشبيهة بقضية الروسي (برهان حيدروف)، التي كانت قضيةً دولية معروفة لدى محقّقي الإنتربول، وقد شفى

فيها صاحب سيرك روسي فقيرٌ ومتشردٌ غليلَه من صديقه التاجرِ الألماني الشرقي، لأسباب غير معروفة، فعل ذلك بتسليطِ ساحر حقيقي عليه، اخترع له ثعابين وعقارب، وآفات أرض وبحر، وحتى حيوانات كانت تعيش في عصر ما قبل التاريخ، وأماته رعبًا. لم يكن عمبابا، أو ململة بالقطع، يعرفان بتلك القصة التي حدثت في بلادٍ بعيدة. أكيد أنّ الأمر كان مجرّد توارد خواطرٍ بين (ململة) الذي يسكن في رأس عمبابا و(ململة) الذي يسكن في رأس الروسي حيدروف.

صيغ تقريرٌ مكثّف بالقضية من خمس صفحات نُسخت منه عدّةُ نسخ على الآلة الكاتبة، وسلّمت نسخة لقائد الشرطة المحلية في نيروبي، ليس استفزازًا لقدرته، أو قدرة محقّقيه حين أغلقوا قضية بهذا الحجم من دون تدقيق؛ ولكنْ بدافع الروتين فقط.

لكنْ ما هي التّهمة التي يمكن توجيهها لصاحب سيركٍ سابق، الآن بالذات في وضع مزرٍ في مداري؟ ولم يكن ثمّة قانون في الدنيا يمنع الجلوس على مقاهي الحنين، والتطفّل على الجوعى، ومصاحبتهم، وإسكانهم في جحور، لعمال تنظيف مراحيض، حتى لو كانوا مختلسين وفارّين، حتى لو كانوا ثوارَ الخمير الحمر؟ ليس ثمّة قانون يمنع أحدًا من استخدام تحاميل الجلسرين لتفريغ أمعائه، أو قراءة عدد منتهي الصلاحية من مجلة هومز تراب؟ أراد العامل العبابيني أنْ يسألهم قبل أن يطلقوه، وفي داخله انقباض،

من كوْنه أدخل عمبابا في القضية، ولم يصمدْ في تحمّلها وحده. لم يسألهم، وما كانوا سيردّون عليه، ويستحسن أن يتلملم بما تبقى منه، ويذهب، وقطعًا ستعرف إدارة البلدية التي يعمل معها بأمْرِ توقيفه، وربّما يطرد من عمله، ولم يحدث أي شيء من كلّ ذلك، لا إدارة البلدية سألته، ولا طرد من عمله، فقط قواه الخائرةُ ما جعلته يفكّر في ترك تلك المهنة. أيضًا ما الجرم في قراءة مستقبل رجلٍ كان سيوافيه الأجل المحتوم بأيّ شكل، حتى لو لم ينبّهه ساحر مزيف، يرتدي أسطورة ساحر حقيقي؟

هذا هو بيت القصيد.

في العالم الثالث، حيث الحقوق المشروعة ترفٌ، مستحيل، وحيث يمكن أن يسكن غرباء بيتك، أو يشاركونك سريرَ الزوجية الحميم، أو يلحسون عصيدتك الفقيرة، قبل أن تمدّ يدك أو لسانك، لا مشكلة.. لا مشكلة إطلاقًا، لكنّ الشرطة الدولية دوليةٌ بحقّ، و(ندمان قل) الأصلي، دولي يعيش في بلد حرّ، وتهمة التحريض، واستخدام اسمٍ كبير في مهمّة شخصية بحتة، جرم كبيرٌ جدًّا، لا تقل عقوبته عن عشرين عامًا من التنفس المقيت في سجن بلا هواء، إنّه الإعدام البطيء لرجلٍ مثل عمبابا أزرق العبابيني، كان سيحتفل لو نجحت بدايته التجارية في مداري بعيد ميلاده السابع والستين.

***

الجريح سالمان، وبعد يومين من السكنى بجوار المرأة التي خُلقت له- كما يعتقد- ومتحمّلًا إزعاج عمبابا الذي كان يفكّر أحيانًا بصوتٍ مرتفع جدًّا، ويوقظه من أفكاره التي انصبّت في محاولة تعديل زيابا، وجعلها فتاةً خائفة مرتبكة في ليلة العرس؛ أسوة بالبنات الأخْريات، قرّر أن ينتهج نهجًا جديدًا تمامًا، ويطلب يدَها مباشرة، ومنها شخصيًّا، ولن يتحدّث في هذا الشأن مع الوصي عمبابا قبل أن يتأكّد من أنّ الدجاجة باتت في قفصه.. كان قد استلم عملَه رسميًّا اليوم صباحًا، ذهب إلى سجن مداري راكبًا حمارًا جيّدًا وسريعًا، استأجره من زريبة مواشٍ، عثر عليها بالقرب من مسكنه، ولم تكنْ دراجته الهوائية قد وصلت بعد. أخبر الضابط العربي في لهجةٍ منشرحة، بمعنى اسمه، المستقى من تاريخ الشجاعة عند القدماء، القلوب لا تفور إلّا إذا جرحت يا سيدي، وأنا دائمًا فائرُ القلب. طلب من الضابط التكرّم من أجل خاطره بتعميم ذلك المعنى على كلّ إدارات السجون في المنطقة، من جوبا إلى ملكال، حتى تختفي من الأذهان أغنية "اجرجني يا جريح"، بعد أنْ عشعشت طويلًا، وتحلّ محلّها أغنية أخرى أكثر احترامًا. لم يكن طلبًا عاديًّا يمكن كتابته في ورقةٍ من أوراق الحكومة، وتوقيعه بتوقيعاتها المعقدة، ووضع ختم الدولة عليه كما يحدث في المكاتبات الرسمية، ووافق الضابط العربي من أجل خاطره فقط على إصداره شفاهةً، وتحميله

للجنود المسافرين بين المدن، أو المنتقلين إلى السجون المختلفة في أي سانحةٍ تسنح. لم يكنْ عملُ الجريح شاقًّا في الواقع، وباستثناء طواف الصباح للتأكّد من هدوء السّجناء، وصحتهم الجيدة، ومراقبتهم أثناء وجبتي الإفطار والغداء، وممارستهم لعبة كرة القدم، أو الركض المتواصل في فناء السجن، لم يكن ثمّة عمل آخر. وقد لاحظ أنّ بينهم عدّاءين لو أطلق سراحهم؛ لنافسوا هيلا قبرياس الإثيوبي في ألقابه، وكان قد شاهده العام الماضي يشارك في بطولة محليّة في جوبا بدافعِ الودّ لشعب الجنوب السوداني. تحدّث مع عددٍ من السجناء، وعرف أسماءهم، وحجمَ خطاياهم، وسأل زملاءه السّجانين، إنْ كان يوجد انقلابيّون أو مساجين رأي بين الجدران، والزنازين الانفرادية التي تصفح وجوهَ شاغليها على عجل، وأخبروه أنهم غير متأكّدين تمامًا، لكنْ يوجد سجين واحد فقط، اسمه (علي شجرة)، يدّعي أنه يحمل رتبة الفريق، وأنّه كان قائدًا لمحاولةٍ انقلابية تمت العام الماضي، وأنه محتجَز انفراديًّا، نسبةً لأخلاقه الفظّة، ومعاملته لزملائه السجناء معاملةً لا تليق.

- مثل ماذا؟

يسألهم الجريح.

- إجبارهم على تدليك رجليه مثلًا، البروك على ظهره لإرخاء عضلةٍ مشدودة، فتح عينيه في الصباح حتى يستيقظ، أشياء مثل هذه.

- هذا ليس عسكريًّا ولا انقلابيًّا، لا تصدّقوه.

هتفَ الجريح، ويعرف تمامًا أنّ عسكريًّا برتبة فريق قاد انقلابًا ضدّ السلطة، وأخفق، لا بدّ أن يكون مدفونًا الآن في صحراء جرداء، أو غابة مُتشابكة الأشجار، وفي جسده ما لا يقلّ عن أربعين رصاصة، وإن حدث، ولم يعدم لأيّ سببٍ من الأسباب، فلا يمكن أن تؤلمه قدماه بسهولة، أو تنسدّ عيناه، أو تؤلمه عضلةٌ في ظهره. عضلات العسكريين لا تؤلمهم أبدًا.

عند العصر، انتهى يومُه الأول بلا مشاكل، ولم يسمعه أحدٌ مقطعًا ولو صغيرًا، من أغنية "اجرحني يا جريح"، وهو عائد بذات الحمار المستأجر إلى وسط مداري، فكّر في زيابا كثيرًا، ورسمها جديدة تمامًا في خياله. شعرها الآن مغطّى بطرحةٍ من حرير، صدرها مخنوق، بحمّالة صدر مثيرة، أكثر إثارة ممّا لو ترك عاريًا، فستانها طويل مثل فساتين أمّه، وربّما سترتدي ثوبًا خارجيًّا، وتستغل عدّة أمّه المستهلكة والجديدة في صناعة الشاي وبيعه في سوق مداري. لا تؤمن بالحب، واعتبرت رسمة القلب المطعون بسهمٍ سخافةً لا يجب تكرارها.. لو وافقت عليه، ستوافق بلا حبّ كما يعتقد، ولو لم توافق توجد الخطةُ البديلة، أخرج من جيبه الرسمي ورقةً كتبها في ساعةِ استراحة وهو في السجن، تترجّى القائد أنْ يوافق على إعادته إلى جوبا مرّة أخرى، لم يكتب مبررات، ولم يقضِ في مداري سوى ثلاثة أيام فقط، ويعتمد على وقفته أمام القائد ليخترع مبرّرات من وحي سخطه

أو رضائه. كانت مداري أمامه ممتلئةً بشتى السّحنات، وتبدو مسالمة إلى أقصى حدّ، وكريمة أيضًا، وقد دعاه عريف من زملائه إلى الغداء في بيته، واعتذر للعريف. لديه مهمّة عاجلة في الغرفة الملاصقة لغرفته، تتلاشى أمام أهميّتها كلّ المجاملات. في زقاق ملتوٍ شاهد الممرضة سامتا، وكانت بلا زي أبيضَ، وترتدي ثوبًا عاديًّا، ترتديه المسنّات، دخلت إلى بيتٍ من الطين، خمّن أنه بيتها، وحاول نحت المكان في الذاكرة، حتى إذا ما فكّر في زيارتها، عرفه بسهولة.

في الغرفة الخشبية، استبدل ثيابَه العسكرية بثيابٍ مدنيّة، أخفى سلاح السجانين في حفرةٍ حفرها بالأمس في أرضيةِ الغرفة، خرج مرّة أخرى وطرق باب زيابا.

***

الذي حدث، أنّ تابيتا جنيّة الليل، لم تظهر أبدًا في مداري مرّة أخرى، وحتى بعد أنِ ارتدى خوجال المسيري ثيابًا شبيهة بالتي كان يرتديها رابح مديني، وركب عربةَ الجيب القوية، متّجهًا إلى يوغندا، وخلفه شاحنتان ثقيلتان فارغتان، في سبيلهما للامتلاء من تلك التجارة المشبعة، ولا بدّ أنه لا يعرف بالرغم من خدمته الطويلة عند رابح مديني، أنّ ثمّة فاكهة اسمها سجائر القندول يحبّها العسكريون أكثرَ ممّا يحبّون نساءهم وعيالهم، وأنّ جيبًا ممتلئًا بالمال تنتقل محتوياته بلا جدال ولا تفكيرٍ إلى جيوب حرّاس الحدود، وتشلّ أياديهم، ولم يخبره المرافقون الأشدّاء الذين اصطحبهم معه؛ لأنّهم لم يكونوا نفس الذين كان يصطحبهم رابح، وغالبًا لن يناديه أحدٌ بالمعلم خوجال، سيواجَه في أولى مغامراته بعشراتِ الأيدي النشيطة التي ستنبش تجارته، وتمنع تدفّقها من بلدٍ إلى بلد، وربّما يذكّره أحدهم بأنّ ثمّة تاجرًا سخيًّا، وغريبًا، ومجرمًا في سخائه، اسمه رابح مديني، تمّ الترحيب به سنوات طويلة، والبكاء عليه قبل شهرين، هنا في هذه البقعة.

الذي حدث، أنّ آدم مطر، صاحب مطعم بابايا، لم يعثرْ على صديقٍ جديد يبادلُه سرّه، وانزوى في مطعمه لابسًا صمتًا أشدّ جنونًا من صمته السابق، يراقب بابايا في نشاطه وفوَرانه، ويعود مساءً

إلى بيته، وربّما يتذكّر رابح أحيانًا، ويكاد يبكي، يشتري خاماتِ مطعمه من لوازم ما يزال، ولا ينظر إلى عيني خوجال المسيري أبدًا.

شامل رضيب، الشهير بشروم الأصلع، المدرّب على خفّة اليد بطريقةٍ علمية من أجل عملِه السابق في السيرك؛ يئس، والنشال القديمُ يعود إلى قديمه لو يئس، ولا يوجد في علم الإجرام درسٌ اسمه المجرم التائب، كما قال قائد الشرطة المحلية حين استدعى عمبابا. جرّب يديه أولًا في نشل عقدٍ من الخرز الرخيص كانت ترتديه زيابا، ويسيرُ هو خلفها من أجل الحماية في بلدةٍ مجنونة بحبّ الفتاة، أعاد العقدَ إلى صدرها قبل أن تنتبه، سرق توافهَ من أفراد جيش الهائمين الذي يتابع زيابا في كلّ وقت تظهر فيه بالبلدة، وأعاد بعضَ التوافه إلى جيوب أصحابها، بينما تخلّص من البعض الآخر. توقّف طويلًا أمام متجر لوازم، وابتدأ يحكّ يدَه، وأمام متجرٍ آخرَ يبيع الفحم، وعثر في يدِه على فحمة.. وفي النهاية، وفي آخر النهار، كانت بحوزته مناديلُ مطرّزة، وأوراق نقدية من جميع الفئات، وخواتم ذهبية، وأساور كانت في جيبه بداية عمبابا كلها، ثمن الكلب التشوكي الأبرص، أجر المزايدة على الفيليْن أنجل وطيلسانة، المستلم من تاجر الأغنام إيجار الستة أشهر الذي دفعه الجريح، وكان الوسيط العقاري قد سلّمه لعمبابا في الصباح الباكر. لقد تلاشى شروم الأصلع فجأة، اختفى كأنّه لم يكن أبدًا سارقَ توافه في سيرك منحلّ.

اكتشف عمبابا خسارته الجسيمة،

اكتشف الكثيرون خساراتهم، وشوهد قائد الشرطة بنفسه يتجوّل في السوق، ومواقف السفر إلى مدن المنطقة وعمق إفريقيا، يحصي الخسائر، ويطمئنُ الخاسرين، بمَن فيهم عمبابا أزرق نفسه، الذي لم توجّه إليه تُهمة، أو إساءةٌ شرطيّة، ولم يكن قد وقّع على أيّ تعهّد يتحمّل بموجبه آثامَ موظّفه أثناء سكناه في مداري، وقد لعب بهدايا الدراجات الهوائية، التي سيخصّ بها قائد الشرطة. لم يتبقّ شيء كان عمبابا يخاطب (ململة) الغافي بلا أملٍ في استيقاظه، لا سيرك، ولا نقود، ولا وجه طيب، يستجدي به المساعدة، ولا قشّة من مكْنسة، في تجارة رابح التي آلت كلّها لعامله السخيف خوجال. لقد استفاد خوجال بلا شكّ من مهمّة إشفاء الغليل، وعلى كلّ حال، كان سيستفيد لو نفّذت المهمّة، أو لم تنفذ، ويوجد الأجل المحتوم الذي يعني أنّ الروح قد انقبضتْ وانتهى أمرها، وكلمة وافاه التي لو قيلت بحنكةٍ لأبكتِ الدنيا كلّها. خرج عمبابا صفر اليدين، ولا يعرف بعد أنّ ذلك الصفر الذي خرج به كان سيكون ثروةً عظيمة لولا أنّه توجد في نيروبي ولدى المحقّقين الدوليّين قضيةٌ اسمها القضية الشبيهة بقضية الروسي برهان حيدروف، وأنّ ثمّة تهمة مبالغًا في عقوبتها تنتظره لو عبَرَ الحدود عائدًا، وستطارده حتى غرفته الخشبية العارية من كلّ شيء لو لم يعبر الحدودَ عائدًا. شروم الأصلع كان في الواقع قد عبَر، ليس إلى كينيا أو يوغندا، أو الكونغو برازافيل؛ ولكن إلى عمق بلاده حيث سيذهب إلى جوبا، ثمّ راكبًا بواخرَ النيل إلى أيّ مكان لا يعرفه فيه أحد. لم يكن

يملك خطةً معيّنة، لا خطة مجرم، ولا خطة تائب، ويملك ما يجعله سعيدًا، لعدّة سنوات لو أحسّ فقط بأنه سعيد، وليس سارقَ أرزاق خلّفَ وراءه عشراتِ التعساء.

ماذا سنفعل يا (ململة)؟

و(ململة) نائمٌ أو مات، لا يدري عمبابا بالتحديد، وتقفز إلى ذهنه صورةُ العريف سجون، الجريح عبيش، ويفكّر أنه ربما يكون المُنقذ، ويعوله هو وزيابا إلى أنْ يموتا، أو يخترع (ململة) جديدًا في رأسه يسخّره في مهمّة أرفع شأنًا، مهمّة فائدة، وليس مهمّة إشفاء غليل، شفي بالفعل، ولكن من دون فائدة.

كانت خضراء العينين قد فتحت بابَها، ولم تقلْ للجريح ادخل، وما كان سيدخل حتى لو دعَتْه، حقيبته مغلقة على ملابسه وعدّة أمّه، وخطاب الرّجاء الموجّه لقائد السجن في جيبه، وبقيت تلك الجملة التي سترسي بالأمور هنا أو هناك:

- هل تتزوّجيني يا زيابا؟

- أتزوّجك!

خيّل للجريح أنّ الفتاة قد فقدت وعيها، بالرغم من أنها كانت واقفة أمامه بلا علامات فقدان وعي، خيّل إليه أنها عطست، ولم تعطس، أنّها حكّت رأسها، ولم تحكه.

- نعم.. هل تقبلين؟

- أقبل؟

خيّل إليه هذه المرّة أنها تنظر إلى ما وراءه، وتحيي اللافتة التي يحملها أعضاءُ تلك الرابطة الغبية، رابطة معجبي زيابا، ولم تكنْ في الحقيقة ثمّة رابطة ولا معجبون، وتلك الرابطة بالذات تفكّكت في وقتٍ مبكّر من ذلك الصباح بعد أنِ اكتشف مؤسّسوها وأعضاؤها أنّها بلا أهداف سامية، وتلك الفتاة التي يهيمون بها مجرّد دميةٍ فارغة من أي معنى، وما كان يشعلها في قلوبهم هو تلك القبلاتُ الحميمة التي كانت ترسلها بعد أن تنشقّ، وتتلملم من جديد، ويحسّ كلّ مشاهد أنها خُصّصت له وحده.. صباح ذلك اليوم بالذات، جلس أولئك الشباب مطوّلًا مع أنفسهم، وقرّروا البحث في مستقبل الأيام عن شخصٍ أكثر سموًّا لتكوين رابطة باسمه.

- اسمع يا عريف.

كانت تخاطبُه، ويسمعها بوضوحٍ لأنه جمَّد الصمم، والتّوهان، وفوران العواطف كلّها انتظارًا للقرار.

- أنا عصفورة حرّة، أغرد حيث أشاء، ولمَن أشاء، ولم أخلق ليتزوّجني سجّان، ولا غير سجّان.. أكره السجّانين كلهم، وغير السّجانين كلّهم.. أكرههم بشدّة.

ثمّ صفقت الباب في وجهه.

في مساء ذلك اليوم، من أواخر نوفمبر من عام١٩٧٥ ، كان كلّ شيء في سبيله للانتهاء، وقد ظهرت عربةُ الشرطة الدولية قادمةً من نيروبي، وبداخلها جيشٌ من المحقّقين وجنود الحراسة. لم يكونوا بحاجةٍ لسؤال أحد، وعامل تنظيف المراحيض العبابيني رسمَ لهم خريطة واضحة، وعثروا على عمبابا أزرق باركًا أمام حجرته الخشبية يبكي، وزيابا بطرفِ ثوبها تمسح دموعه، أخبروه بهويّتهم لأنّ ذلك حقّ من حقوقه، وأخبروه بالتّهمة الموجّهة إليه، وتقديراتهم الشخصية عن مدّة عقوبتها، وهذا أيضًا من حقّه. تذكّر أنه الوصيّ الرسمي للفتاة الطائشة، ولم يسلّمها لشخصٍ آخر يعتني بها، وارتعد بشدّة، ماذا أفعل في زيابا؟ ماذا أفعل؟ وتذكّر عريف السجون فجأة، صرخ:

- يا جريح.. يا عريف الجريح.

كانت صرخةً بلا معنى، وموجّهة للا أحدٍ تقريبًا، والعريف الجريح سالمان عبيش قد دقّ تحيته العسكرية أمام القائد متبوعةً بالاستعطاف، وحصل على خطاب إعادة فوريّة إلى سجن جوبا. كان على ظهر عربة مجروس عسكرية تشقّ سحر الجنوب، وخضرته الخلابة، يلامس القرويّين ويلامسونه كلّما أبطأت العربة أمام حفرة أو جدول، يسمع عدّة أهّه تتصارع بداخل الحقيبة القماشية، ويستعيد مطرة جوبا، ذلك الحي الذي

قضى فيه عمرَه كلّه، ويفكّر بضراوة في امرأةٍ يريدها، ولم تخلق حتى الآن.

***